بيان النبي
- صلى الله عليه وسلم- لألفاظ الوَحْيَيْن
في صحيح البخاري

دكتور/ حمدي عبد الفتاح السيد بدران
كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمياط الجديدة
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، سبحانه لا عاصم من الزَّلَل إلا هو، ولا حافظ من الخطأ والخَطَل سواه، والصلاة والسلام على من عصمه من الخطأ والزلل مولاه، سيدنا محمد- صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد

فأبدأ بقول ربنا- جل وعز-: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾(١)، علَّ الله يحفظني من الزَّيغ والزلل، والخطأ والخلل، فكل كلمة تقال في هذه الدراسة إنما هي دِين، وليست مجرد كلامٍ لُغَوِيٍّ، فكلام الرسول- صلى الله عليه وسلم- ليس كأي كلام، إنما هو كلام من قال فيه ربه: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾(٢)، يقول الخطابي: " إن الله- جل وعز- لما وضع رسولَه موضعَ البلاغ من وحيه، ونصبه منصب البيان لدينه، اختار له من اللغات أعربها، ومن الألسن أفصحها وأبينها؛ ليباشر في لباسه مشاهدَ التبليغ، ويَنْبِذَ القولَ بأوكد البيان والتعريف، ثم أَمَدَّهُ بجوامع الكلم التي جعلها رِدْءًا لنبوته، وعَلَمًا لرسالته؛ لينتظم في القليل منها عِلْمُ الكثير، فيسهل على السامعين حِفْظُهُ، ولا يَؤُودُهُمْ حَمْلُه، ومن تتبع الجوامع من كلامه لم يعدم بيانها"(٣).

---

(١) البقرة /٢٨٦.

(٢) النجم /٣ ، ٤.

(٣) غريب الحديث للخطابي (مقدمة المؤلف) ١/٦٤.

ولئن كانت الآثار والروايات الواردة عن أبي عمرو بن العلاء والمفضل الضَّبِّيِّ والخليل بن أحمد وخلف الأحمر وأبي عمرو الشيباني وأبي زيد الأنصاري وكراع النمل وغيرهم من الأئمة الأوائل– تُعدُّ من المصادر الأولى لجمع اللغة وتدوينها، فإن الروايات اللغوية الواردة عن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– أسبق وأضبط وأفصح من رواياتهم جميعا.

ولئن كان الخليل بن أحمد الواضع الأول للمعجم العربي– فإن الروايات اللغوية الواردة عن النبي– صلى الله عليه وسلم– تُعَدُّ اللبنة الأولى للمعجم، ورواياته أسبق من كتب الرسائل المجموعة قبل الخليل؛ ذلك أن الصحابة– رضي الله عنهم– كانوا إذا غاب عنهم معنى شيء من ألفاظ القرآن الكريم أو السُّنَّة النبوية سألوا عنه رسول الله– صلى الله عليه وسلم– فيُجيبهم.

وإذا كان المعجم كتابا يضم ألفاظ اللغة، مشروحة شرحا يُزيل إبهامها، مرتبةً ترتيبا معيَّنا– فإن الركن الركين فيه هو اللفظ والشرح، أما الترتيب فهو ركن تنظيمي لا دخل له بحقيقة المعجم– إذا كان الأمر كذلك فإن الألفاظ التي بيَّن النبي– صلى الله عليه وسلم– معناها تُعَدُّ اللبنةَ الأولى لعمل المعجم العربي، ولم يبْقَ لها إلا جمعها في كتاب وترتيبها، وهذا ما بدأت– بحول الله وقوته وعونه– العملَ فيه؛ رجاء أن أقوم بجمع المعجم النبوي لألفاظ القرآن الكريم والسنة المطهرة.

أما عن هذه الدراسة فقد وسمتها بـ (بيان النبي– صلى الله عليه وسلم– لألفاظ الوحيين في صحيح البخاري)، قمت فيها باستقراء صحيح الإمام البخاري– رحمه الله–، وهو أصح كتاب بعد القرآن الكريم، فجمعت الأحاديث التي ورد فيها بيان من النبي– صلى الله عليه وسلم– لشيء من ألفاظ القرآن أو السنة، ثم قمت بدراستها وفق المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، مُتَتَبِّعًا أقوالَ شُرَّاح الحديث– خاصة شراح صحيح البخاري– وأصحاب التفسير وأهل اللغة والمعجمات، لأقف على حقيقة هذه المعاني، وهل كانت معانيَ لغويةً موجودةً في الاستعمال العربي لكنها غابت عن بعض الصحابة– رضي الله عنهم– فلم يعرف معناها؟ أو كانت تطورا دلاليا جرى على لسان رسول الله– صلى الله عليه وسلم–؟ أو كانت من المعاني الإسلامية التي اكتسبتها بعضُ الألفاظ مع التشريع الإسلامي، كالإيمان والإسلام والزكاة والصوم ونحو ذلك من الألفاظ؟ كل هذه أسئلة نجد إجاباتها– بإذن الله– في ثنايا هذه الدراسة.

ولم أقف على دراسة– حسب علمي– تعرَّضت لهذا الجانب من البيان النبوي إلا ما كان من الدكتور خالد بن عبد العزيز الباتلي في دراسته الموسومة بـ (التفسير

النبوي- مقدمة تأصيلية مع دراسة حديثية لأحاديث التفسير النبوي الصريح)(١)، وخرجت هذه الدراسة في نحو ألف صفحة.

وقد قسم الباحث الدراسة قسمين:

القسم الأول: الدراسة التأصيلية، تناولها الباحث في ثلاثة فصول، تحدث في الأول عن بيان الرسول- صلى الله عليه وسلم- للقرآن، وفي الثاني عن خطر القول في القرآن بغير علم، وفي الثالث عن عناية المحدِّثين بعلم التفسير.

القسم الثاني: جمع فيه الباحث الأحاديث الواردة في تفسير القرآن الكريم، وقام بتخريجها من كتب السنة، والحكم على إسنادها، وذِكْر المتابَعات والشواهد، ثم الحكم على الحديث. وقد سرد الأحاديث على ترتيب سور القرآن الكريم وآياته.

وهي دراسة حديثية قائمة على أسس ثلاثة:

١-الأحاديث الخاصة بالتفسير النبوي الصريح للقرآن الكريم.

٢-جمعها من كتب السنة عامة.

٣-طبيعة الدراسة حديثية صِرْفة، وذلك بناء على قواعد أهل الحديث وضوابطهم، ولا صلة لها بالشرح والبيان.

أما دراستي هذه فتشمل بيان معاني القرآن والسنة من خلال صحيح البخاري خاصة، وطبيعتها لغوية دلالية، دون التعرُّض للجوانب الحديثية.

وقد ذكر صاحب هذه الدراسة عددا من المصنفات في هذا الجانب، كلها دراسات حديثية قائمة على قواعد أهل الحديث وضوابطهم (٢).

وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن تخرج في مقدمة ومبحثين:

المبحث الأول: الدراسة التأصيلية، تناولت فيه الحديث عن البيان النبوي، والصلة بين التبليغ والبيان ، وروافد البيان النبوي، والأسباب التي دعت إلى هذا البيان، وختمته ببعض ملامح البيان النبوي المستقاة من الأحاديث الواردة في الدراسة.

المبحث الثاني: الدراسة التحليلية، تناولت فيه:

أولا: الألفاظ والعبارات القرآنية.

ثانيا: الألفاظ والعبارات الحديثية.

---

(١) أطروحة دكتوراه في قسم السنة وعلومها بكلية أصول الدين- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، عام ١٤٢٩ه. وقد طبعتها دار كنوز إشبيليا – المملكة العربية السعودية، ١٤٣٢ه/٢٠١١م.

(٢) التفسير النبوي- مقدمة تأصيلية مع دراسة حديثية لأحاديث التفسير النبوي الصريح /٩ : ٢٠.

وقد أصَّلتُ في هذا المبحث للألفاظ الواردة فيه ومعانيها تأصيلا لغويا، رابطا إياها بكلام شراح الحديث وأهل الفن فيها، مبيِّنا ما فيه من أقوال تتوافق مع ما جاء في النص النبوي، رادًّا ما كان منها غير متوافق أو آتيًا بغير ما نصَّ عليه رسول الله– صلى الله عليه وسله–، وقد بلغت المواضع المدروسة في هذا البحث (ثلاثة وأربعين) موضعا، دون النظر إلى ما كان منها مكررا في غير موضع من صحيح البخاري.

وخُتمت الدراسة بأهم النتائج والتوصيات، تلا ذلك جريدة المصادر ثم فهرس الموضوعات.

وأسأل الله– جلَّ في علاه– أن يكتب لهذه الدراسة القبول والسداد في الدنيا والآخرة، وأن يضاعف في الأجر، ويتجاوز عن الخطأ والزلل، ويوفق لرأب ما بها من صدع خلل، وإكمال ما بها تقصير ونقص؛ فالنقص من دأب البشر.

إنه ولي ذلك والقادر عليه، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

المبحث الأول: الدراسة التأصيلية

البيان النبوي:

البيان من أكبر النعم التي امتن الله- تعالى- بها على الإنسان؛ لذلك استحق أن يأتي في مقدمة النعم التي أخبرنا الله- تعالى- بها في سورة النِّعَم (سورة الرحمن)؛ حيث جاء ذكْر البيان بعد نعمة خلق الإنسان، يقول الله- تعالى-: ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾(١).

ولغة العرب هي لغة البيان والوضوح، لكنها من السعة بمكان بحيث يستحيل على آحاد الناس الإحاطة بها، يقول الشافعي- رحمه الله-: " ولعل من قال: إن في القرآن غيرَ لسان العرب، وقُبِلَ ذلك منه ذَهَبَ إلى أن من القُرآن خاصاً يجهل بعضَه بعضُ العرب. ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسانٌ غيرُ نَبِيٍّ، ولكنه لا يذهب منه شيءٌ على عامَّتِها، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه. والعلمُ به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلا جَمَعَ السُّنَنَ فلم يذهب منها عليه شيءٌ، فإذا جُمِع علْمُ عامَّةِ أهل العلم بها أتى على السنن، وإذا فُرِّق علمُ كلِّ واحد منهم ذَهَبَ عليه الشيءُ منها، ثم كان ما ذَهَبَ عليه منها موجودا عند غيره. وهم في العلم طبقات منهم الجامع لأكثره، وإن ذهب عليه بعضه، ومنهم الجامع لأقلَّ مما جمع غيره ... وهكذا لسان العرب عند خاصَّتِها وعامَّتِها. لا يذهب منه شيءٌ عليها، ولا يُطلب عند غيرها، ولا يَعْلَمُهُ إلا مَنْ قَبِله عنها، ولا يَشْرَكها فيه إلا من اتَّبعها في تَعَلُّمِه منها، ومَن قَبِلَهُ منها فهو من أهل لسانها. وإنما صار غيرُهم من غيرِ أهله بِتَرْكِه، فإذا صار إليه صار من أهله. وعِلْمُ أكثرِ اللسان في أكثر العرب أعمُّ من عِلْمِ أكثرِ السنن في العلماء "(٢).

فهذا النص على طوله يُوقفنا على عدة حقائق:

١- سعة اللسان العربي، وكثرة ألفاظه، وأنه من السعة بحيث يستحيل على آحاد الناس الإحاطة به، فلا يستطيع ذلك ويقدر عليه إلا نبيٌّ مرسَلٌ يُوحى إليه.

٢- أنه لا يغيب عن عامة العرب شيءٌ من اللغة، وإن غاب عن بعضهم بعضُها، فما ذهب عند أحدهم وضاع- وجدناه عند غيره.

٣- أن حال أهل اللغة في العلم بها كحال أهل الحديث في العلم بالسُّنَن.

---

(١) الرحمن /١ : ٤.

(٢) الرسالة للشافعي ٤٢/١.

ولم يكن العرب في العلم باللغة متساويين، فمنهم من تغيب عنه بعض ألفاظها، ومنهم من قد يسمع اللفظ ولا يعرف المعنى، يقول ابن قتيبة: " سألت: هل كانت العرب قبل نزول القرآن، وقبل مبعث النبي– صلى الله عليه وسلم– تستوي في المعرفة من جهة اللغة بجميع الأسماء التي في القرآن، وما تحتها من المعاني؟ والعرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل لبعضها الفضل في ذلك على بعض؛ والدليل عليه قول الله– جل وعز–:﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾(١)، ونحن نذهب إلى أن الراسخين في العلم يعلمونه على ما بَيَّنَا، فأَعْلَمَنا اللهُ– تبارك وتعالى– أن من القرآن ما لا يعلمه من العرب إلا من رَسَخَ في العلم. ويدل عليه قول بعضهم: يا رسول الله إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه ونحن العرب حقًّا. فقال: (إن ربي عَلَّمَنِي فَتَعَلَّمْتُ)(٢) ... وكذلك هي في الغريب، ليس كلها تستوي في العلم به، ولا كلامُها كله واضحًا عندها، بل منه المبتَذَل، ومنه الغريب الوحشي الذي إنما يعرفه العالم منهم، وقد يختلفون في الحروف كما نختلف، ويقول العالم في الشيء يُسْأَل عنه من اللغة: لا أعرفه، ويعرفه غيره، فيخبر به "(٣).

ولما كان الحال كذلك وجدنا بعض العرب تغيب عنهم معاني بعض الألفاظ، وقد ورد من ذلك أمثلة عديدة في عصر النبوة المبارك، فقد غاب عن بعض الصحابة– رضي الله عنهم– معاني بعض الألفاظ أو العبارات القرآنية أو النبوية، فكانوا يسألون رسول الله– صلى الله عليه وسلم– عما غمُض عليهم من ذلك وخفي، يذكر الخطابيُّ النبيَّ– صلى الله عليه وسلم– وحالَ من يتلقى كلامه وعدمَ استوائهم في فهمه وتحصيله، فيصف بأنه " المبيِّن للناس ما نُزِّلَ إليهم بلسان عربي مبين، فيه واضح يعرفه السامعون، وغامض لا يعقله إلا العالمون، لتكون آثار الحكمة فيها قائمة، ودلائل الاعتبار عليها شاهدة، وليرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات "(٤)، ويُبيِّن ابن الأثير حالَ النبي– صلى الله عليه وسلم– مع صحابته– رضي الله عنهم– في هذا الشأن فيقول: " فكأن الله– عز وجل– قد أَعْلَمَهُ ما لم يكن يعلمه غيرُه من بني أبيه، وجَمَعَ فيه من المعارف ما تفرَّق ولم يوجد في قاصي العرب ودانِيهِ، وكان أصحابه–

(١) آل عمران /٦.

(٢) سيأتي الكلام– إن شاء الله– عن هذا الحديث بعد قليل.

(٣) المسائل والأجوبة، لابن قتيبة /٤٨.

(٤) غريب الحديث للخطابي (مقدمة المؤلف) ١/٤٦.

رضي الله عنهم- ومن يَفِدُ عليه من العرب يعرفون أكثر ما يقوله، وما جهلوه سألوه عنه فيوضحه لهم "(١).

التبليغ والبيان:

من المعلوم من الدين بالضرورة أن من الصفات الواجبة للرسل التبليغَ، يقول ربنا- جل وعز- مبينا بعض ما يجب على الرسل- عليهم السلام-: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾(٢) ويقول لنبينا- صلّى الله عليه وسلّم-: ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾(٣)، ويقول أيضا: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٤)، وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم عدة مرات.

ومن لوازم التبليغ أن يبِّن لهم كل ما يحتاجون إليه، ويجيبهم عن كل ما خفي عليهم وغمض من ألفاظ الوحيين (القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة)، يقول الأزهري: " وخاطَبَ- تعالى- نبيه- صلى الله عليه وسلم- فقال: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٥). قلت- والتوفيق من الله المجيد للصواب-: نزل القرآن الكريم والمخاطبون به قوم عرب، أولو بيان فاضل، وفهم بارع، أنزله- جل ذِكْرُه- بلسانهم، وصيغة كلامهم الذي نُشِّئُوا عليه، وجُبِلُوا على النطق به، فتدربوا به يعرفون وجوهَ خطابه، ويفهمون فنونَ نظامه، ولا يحتاجون إلى تعلُّم مُشْكِله وغريب ألفاظه حاجةَ المولَّدين الناشئين فيمن لا يعلم لسان العرب حتى يُعَلَّمَه، ولا يفهم ضروبه وأمثاله وطرقه وأساليبه حتى يُفَهَّمَها. وبيَّنَ النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- للمخاطبين من أصحابه- رضي الله عنهم- ما عسى الحاجةُ إليه من معرفة بيانِ لِمُجْمَلِ الكتاب وغامضه ومتشابهه، وجميعِ وجوهه التي لا غنى بهم وبالأمة عنه، فاستغنَوْا بذلك عما نحن إليه محتاجون، من معرفة لغات العرب واختلافها، والتبحُّرِ فيها، والاجتهاد في تعلُّم العربية الصحيحة التي بها نزل الكتاب، وورد البيان "(٦).

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (مقدمة المؤلف) ١/٤.

(٢) النحل /٣٥.

(٣) آل عمران /٢٠.

(٤) النحل /٦٤.

(٥) النحل /٤٤.

(٦) تهذيب اللغة (المقدمة) ١/٥.

من أجل هذا وجدنا الرسول– صلى الله عليه وسلم– لا يترك بابا من أبواب البيان والتوضيح إلا سلكه، سواء كان هذا بعد سؤال من أحد أصحابه عن شيء خفي عليه وغمض، أم كان البيان منه– صلى الله عليه وسلم– دون سؤال منهم، سواء ابتدأهم بسؤال أم بادَرَهُم بالبيان دون سؤال، وما جميع ذلك منه– صلى الله عليه وسلم– إلا لتحقيق الأمر الإلهي في قوله– تعالى–: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، وقوله: ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾(١).

لأجل هذا كان بيان النبي– صلى الله عليه وسلم– للقرآن أو السُّنَّة أصدق بيان، وليس بعد بيانه بيانٌ، وليس لنا أن نقول– في القرآن أو السُّنَّة– بعد قوله قولا؛ ذلك أن قوله إنما هو وَحْيٌ من الله– تعالى– له، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾(٢)، وغاية ما لنا حينئذ أن نجتهد في فهم قوله، لا أن نقول مع قوله قولا آخر، يقول البدر العيني معلقا على موقف علماء الفلك وغيرهم من قول الله– تعالى–: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾(٣): " فإن قلتَ: أصحاب الهيئة قالوا: الشمسُ مُرَصَّعة في الفَلَك؛ فإنه يقتضي أن الذي يسير هو الفَلَكُ، وظاهر الحديث أنها هي التي تسير وتجري؟ قلتُ: أما أوَّلًا فلا اعتبار لقول أهل الهيئة عند مصادمة كلام الرسول– صلى الله عليه وسلم–. وكلامُ الرسول– صلى الله عليه وسلم– هو الحق، لا مرية فيه، وكلامهم حدس وتخمين "(٤)، وما دام الخبر جاء من جهته– صلى الله عليه وسلم– فهو الفصل الذي ليس بعده قول، ولا قيمة حينئذ لما يقوله علماء الفلك والفضاء أو علماء اللغة أو الدين أو غيرهم من أهل أي فن من الفنون.

وفي هذا يقول ابن تيمية: " ومما ينبغي أن يُعلَم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عُرِف تفسيرُها وما أريد بها من جهة النبي– صلى الله عليه وسلم– لم يُحْتَجْ في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم؛ ولهذا قال الفقهاء: الأسماء ثلاثة أنواع: نوع يُعرف حدُّه بالشرع كالصلاة والزكاة؛ ونوع يُعرف حدُّه باللغة كالشمس والقمر؛ ونوع يُعرف حدُّه بالعرف كلفظ القَبْض ولفظ المعروف في قوله: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمعْرُوفِ ﴾(٥)، ونحو ذلك. وروي عن ابن عباس أنه قال: تفسير القرآن

(١) الشورى /٤٨.
(٢) النجم /٣،٤.
(٣) يس /٣٨.
(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ١١٩/١٥.
(٥) النساء /١٩.

على أربعة أوجه: تفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعْذَر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله، من ادعى علمه فهو كاذب. فاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك قد بَيَّنَ الرسول- صلى الله عليه وسلم- ما يراد بها في كلام الله ورسوله، وكذلك لفظ الخمر وغيرها، ومن هناك يُعرَف معناها، فلو أراد أحد أن يُفسِّرها بغير ما بَيَّنَه النبي- صلى الله عليه وسلم- لم يُقبَل منه. وأما الكلام في اشتقاقها ووجه دلالتها فذاك من جنس علم البيان ... واسم الإيمان والإسلام والنفاق والكفر هي أعظم من هذا كله؛ فالنبي- صلى الله عليه وسلم- قد بَيَّنَ المرادَ بهذه الألفاظ بيانا لا يُحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك؛ فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله، فإنه شاف كاف، بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للخاصة والعامة "(١)، فهذا قول فصل في القضية، وقد جمع الدكتور خالد بن عبد العزيز الباتلي طائفة من أقوال السلف- رحمهم الله- في وجوب الرجوع إلى السُّنَّة عند تفسير القرآن الكريم(٢)، وأنه لا يجوز تجاوُزُها في فهم القرآن. وإذا كان الحال كذلك مع كلام الله- تعالى- فهو آكَدُ في فهم السنة النبوية، على صاحبها أزكى السلام وأعطر التحية.

روافد البيان النبوي:

لقد كان رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أفصح العرب لسانا، وأحسنهم منطقا، وأعلاهم بيانا، يُحدثنا الجاحظ عن بيانه وبلاغته وفصاحته فيقول: " وأنا ذاكرٌ بعدَ هذا فَنًّا آخر من كلامه- صلّى الله عليه وسلّم-، وهو الكلام الذي قَلَّ عددُ حروفه، وكَثُرَ عددُ معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلُّف، وكان كما قال الله- تبارك وتعالى-: قل يا محمد: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾(٣). فكيف وقد عاب التشديق، وجانَبَ أصحابَ التَّقْعِيبِ(٤)، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السُّوقِيِّ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشُيِّدَ بالتأييد، ويُسِّرَ بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى اللهُ عليه المحبة، وغَشَّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن

(١) مجموع الفتاوى ٢٨٦/٧.

(٢) ينظر: التفسير النبوي- مقدمة تأصيلية مع دراسة حديثية لأحاديث التفسير النبوي الصريح، د. خالد الباتلي ٣٠/١.

(٣) سورة (ص) /٨٦.

(٤) التقعيب في الكلام هو التقعير، يقال: قَعَّر في كلامه وتَقَعَّرَ: تشدّق وتكلَّم بأقصى فَمْر فَمِه، وقيل: تكلَّم بأقصى حلْقِه. ورَجُلٌ قَيْعَـرٌ وقَيْعارٌ: مُتَقَعِّر في كلامه، والتَّقْعير في الكلام: التَّشَدُّق فيه . ينظر اللسان (قعب ، قعر).

الإفهام وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته. لم تَسقط له كلمةٌ، ولا زلَّتْ به قَدَمٌ، ولا بارَتْ له حُجَّةٌ، ولم يَقُمْ له خَصْمٌ، ولا أفحمه خطيبٌ، بل يَبُذُّ الخُطَبَ الطِّوالَ بالكَلِم القِصارِ، ولا يلتمس إسكاتَ الخصم إلا بما يعرفه الخصمُ، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلْجَ إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابة، ولا يستعمل المواربَة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يُبْطِئ ولا يَعجَل، ولا يُسْهِبُ ولا يَحْصَر. ثم لم يَسمع الناسُ بكلام قطُّ أعمَّ نفعًا، ولا أقصدَ لفظا، ولا أعدلَ وزنا، ولا أجملَ مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى– من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيرا "(١).

فهذا الكلام في وصفِ بيان النبي– صلى الله عليه وسلم– وفصاحته، وجميلِ لفظه وسبكِ عبارته، وكيف لا، وهو الذي أُوتي جوامع الكَلِم؟ فعباراته قليلة، ومعانيه منهمرة غزيرة، أدهش البلغاءَ ببلاغته، وأَعْيَا الفصحاءَ عن محاكاة فصاحته، وأعجز الحكماءَ عن الإحاطة بحكمته، يذكر– صلى الله عليه وسلم– بعضَ فضل ربه– عزَّ وجلَّ– عليه، وما فَضَّله به عن إخوانه النبيين– عليهم السلام– ومازَهُ عليهم، فيقول: (فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بِستٍّ: أُعْطِيْتُ جَوامِعَ الكَلِم، ونُصِرْتُ بالرُّعْب، وأُحِلَّتْ لِيَ الغنائِمُ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرضُ طَهُورًا ومَسْجِدًا، وأُرْسِلْتُ إلى الخَلْقِ كافَّةً، وخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ)(٢).

ولا شك أن جوامع الكلم هذه فيها من الحكمة والدقة، وقلة الألفاظ وبَسْطِ المعاني، مع الإبانة والوضوح والإفهام– ما لا يخفى على عاقل، ولا يشك فيه من له بالفهم أدنى سبب. ولو كان في هذه الجوامع خفاءٌ أو غموض أو لبس أو إبهام– ما استحقَّت أن تكون ميزة أُعطِيَها النبيُّ– صلى الله عليه وسلم– وفُضِّل بها على إخوانه النبيين– عليهم السلام– وامتاز.

ويصف ابنُ الأثير فصاحتَه– صلى الله عليه وسلم– فيقول: " وقد عرفت– أيدك الله وإيانا بلطفه وتوفيقه– أن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– كان أفصحَ العرب لسانا، وأوضحَهم بيانا، وأعذبَهم نُطْقًا، وأَسَدَّهم لفظا، وأَبْيَنَهم لهجة، وأقومَهم حجة، وأعرفَهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طُرُق الصواب، تأييدا إلهيا، ولُطفا سماويا. وعناية ربانية، ورعاية روحانية "(٣).

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ، تح. عبد السلام هارون ١٦/٢.

(٢) صحيح مسلم، حديث /٥٢٣.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (مقدمة المؤلف) ٤/١.

وإننا لنجد لهذا البيان النبوي ثلاثة روافد تُغذِّيه، وتُعلي من شأنيه وتُنمِّيه، أولها خارجي، والآخران مكتسبان ذاتيا.

أما الأول الخارجي فعَطِيَّة من الله رب العالمين لنبيه- صلى الله عليه وسلم-، وقد مرَّ بنا حديث تفضيله على الأنبياء، وكان مما قال: (أُعْطِيْتُ جَوامِعَ الكَلِمِ)، ففي كمال فصاحته، وفخامة بلاغته- جانبٌ من الوحي الإلهي، والعناية والتأييد الرباني؛ فهو بشر، لكن ليس كباقي البشر، إنما هو مميَّز بالوحي ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾(١)، يضاف إلى ذلك ما ورد في الحديث من تأديب الله- تعالى- له على ما سيأتي إن شاء الله، وقد أرجأت ذكر الحديث للتعليق عليه وعلى غيره مرة واحدة.

وأما الثاني والثالث المكتسبان فكونه- صلى الله عليه وسلم- من قريش، واستُرضِع في بني سعد بن بكر، ومعلوم أن قريشا أفصح العرب حديثا، وأبْيَنُهم كلاما، يقول أبو علي الفارسي: " قال أحمد بن يحيى [ثعلب]: يقال: ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتَضَجُّع قيس، وعجرفية ضبة "(٢)، ويقول ابن فارس: " كانت قريش- مع فصاحتها، وحسن لغاتها، ورقة ألسنتها- إذا أتتهم الوفود من العرب تخَيَّروا من كلامهم وأشعارهم أحسنَ لغاتهم، وأصفى كلامهم؛ فاجتمع ما تَخَيَّروا من تلك اللغات إلى نحائرهم وسلائقهم التي طُبِعوا عليها؛ فصاروا بذلك أفصح العرب "(٣).

وأما بنو سعد فتظهر فصاحتهم فيما يرويه ابن فارس حيث يقول: " حدثنا أبو الحسن علي بنُ إبراهيم القطَّان قال: حدثنا عليٌّ بن عبد العزيز، عن أبي عُبيد، عن شيخ له، أنه سمع الكلبيّ يُحدِّث عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: نزل القرآن على سبعة أحرُف، أو قال: بسبع لغات، منها خمسٌ بلغة العَجُزِ من هَوازِن، وهم الذين يقال لهم علْيا هَوازن، وهي خمس قبائل أو أربع، منها سَعدُ بن بكر وجُشَمُ بن بكر ونَصْر بن مُعاوية وثَقيف. قال أبو عُبيد: وأحسِب أفصَحَ هؤلاء بني سعد بن بكر ... وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن العَلاء: أفصح العرب عُليا هَوازِن وسُفْلى تميم "(٤).

(١) الكهف /١١٠ ، فصلت /٦.

(٢) المسائل البصريات، لأبي علي الفارسي ٣٦١/١.

(٣) الصاحبي في فقه اللغة، لابن فارس /٣٣.

(٤) الصاحبي في فقه اللغة، لابن فارس /٤١.

ويشهد لهذه الروافد الثلاثة بعض الأحاديث المروية عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، منها ما رواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: (أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ، أَنَا أَعْرَبُ الْعَرَبِ، وَلَدَتْنِي قُرَيْشٌ، ونَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، فَأَنَّى يَأْتِينِي اللَّحْنُ!) (١)، ومنها قوله:(أنا أَفْصَحُ العَرَبِ، مَيْدَ أَنِّي من قُرَيْشٍ، واسْتُرْضِعْتُ في بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ)(٢)، ويذكر ابن الأثير أن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال له حين " سمعه يخاطب وفد بني نَهْد: يا رسول الله، نحن بنو أب واحد، ونراك تُكَلِّم وفودَ العرب بما لا نفهم أكثره! فقال: (أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي، وربيت في بني سعد)، فكان- صلى الله عليه وسلم- يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وتبايُن بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم، كلًّا منهم بما يفهمون، ويحادثهم بما يعملون "(٣).

وقد وردت روايتان أخريان أقرب لرواية علي بن أبي طالب- رضي الله عنه-، إحداهما منسوبة إلي أبي بكر الصديق، والأخرى إلى عمر بن الخطاب- رضي الله عنهما-، أسوقهما ضمن كلام الزركشي والسخاوي؛ ففيهما غنية عن غيرهما، يقول الزركشي: " الحديث الأول: (أنا أفصح من نطق بالضاد)، معناه صحيح. قال شيخنا عماد الدين بن كثير في تفسيره: ولا أصل له. الحديث الثاني: (أدبني ربي فأحسن تأديبي)، معناه صحيح أيضا، لكنه لم يأت من طريق يصح، وقد ذكره ابن الجوزي في الأحاديث الواهية في ذيل حديث وفد بني نهد وضعَّفه فقال: هو حديث لا يصح، في إسناده ضعفاء ومجاهيل ... وفيه: فقال علي- رضي الله عنه-: يا رسول الله، إنك تكلم الوفود بكلام أو بلسان لا نفهم أكثره. فقال: (إن الله أدبني فأحسن تأديبي، ونشأت في بني سعيد بن بكر)، فقال له عمر: يا رسول الله، كلها من العرب، فما بالُكَ أَفْصَحُنَا؟ فقال: أتاني جبريلُ بلغة إسماعيل وغيرها من اللغات فعلمني إياها "(٤).

وعلَّق السخاوي على حديث علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- السابق فقال: "سنده ضعيف جدا، وإن اقتصر شيخنا على الحكم عليه بالغرابة في بعض فتاويه، ولكن معناه صحيح، وكذا جزم ابن الأثير بحكايته في خطبة النهاية وغيرها، لا سيما وفي

(١) غريب الحديث، لأبي عبيد ١٤٠/١، وبرواية (بيد أني) بدل (ميد أني) في الغريبين في القرآن والحديث لأبي عبيد الهروي (بيد)، الفائق (مقدمة المؤلف) ١١/١، (بيد)، النهاية (بيد).

(٢) المعجم الكبير للطبراني، حديث /٥٤٣٧. قال المحقق: " حديث موضوع .

(٣) النهاية (مقدمة المؤلف) ٤/١.

(٤) اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة، للزركشي /١٦٠.

تاريخ أصبهان لأبي نعيم بسند ضعيف أيضا، من حديث ابن عمر قال: قال عمر: يا نبي الله، ما لك أفصحُنا؟ فقال النبي- صلى الله عليه وسلم-: جاءني جبريل فَلَقَّنَنِي لغة أبي إسماعيل "(١).

وواضح من كلام الزركشي والسخاوي وغيرهما أن هذه الأحاديث لم تثبت، لكن الذي يعنينا- هنا- نصهما على أن المعنى صحيح وإن كان النص غير ثابت، فصحة هذه المعاني، بالإضافة إلى حديث جوامع الكلم؛ إذ أن من أوتي الجوامع كان في الفصاحة والبيان أعلى وأجود، وفوق كل هذا كونه- صلى الله عليه وسلم- لا يتكلم في بيان آية أو حديث من عند نفسه، إنما بوحي من الله- تعالى- الذي أرسله ليبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم من عند ربهم، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾(٢)، وما كان الله- تعالى- لِيُوحِيَ له إلا أفصح كلام وأبلغه- كل ذلك يؤكد أنه كان لفصاحة النبي- صلى الله عليه وسلم- وبيانه وبلاغته ثلاثة روافد رئيسة، هي:

١- التعليم الإلهي.

٢- كونه من قريش، وهم المشهود لهم بالفصاحة والبيان، المجمَع لهم على ذلك.

٣- رضاعه ونشأته الأولى في بني سعد بن بكر، وهم من أعلى العرب في الفصاحة.

أسباب البيان:

كان لبيان النبي- صلى الله عليه وسلم- لبعض ألفاظ القرآن الكريم أو السنة النبوية أسبابٌ دعت إليه، تبيَّن- من خلال صحيح البخاري- أنها تدور في فلك ما يلي:

١- خفاء بعض المعاني اللغوية

سبق بيان أن العرب لم يكونوا في العلم باللغة سواء، وإنما كان يغيب عن بعضهم دلالة بعض الألفاظ القرآنية أو الحديثية؛ فكانوا يسألون عنها رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فيبيِّن لهم ما غمض عليهم وخفي عنهم.

٢- التطور الدلالي و (المعاني الإسلامية)

بعض المعاني التي بيَّنها الرسول- صلى الله عليه وسلم- ترجع إلى عامل التطور الدلالي، سواء أكان تطورا لغويا مطلقا أم خاصا ببعض المعاني الإسلامية والاستعمالات المرتبطة ببعض الجوانب الشرعية.

---

(١) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، للسخاوي/ ٧٣.

(٢) النجم /٣ : ٥.

فمن الأول مثلا ما جاء في حديث ذي الوجهين؛ حيث بيَّن الرسول– صلى الله عليه وسلم– المراد به في قوله: (وتَجِدُونَ شَرَّ الناسِ ذا الوَجْهَيْنِ: الذي يَأْتِي هؤلاءِ بوَجْهٍ، ويَأْتِي هؤلاء بِوَجْهٍ)(١).

ومن الثاني ما جاء من تفسير النبي– صلى الله عليه وسلم– الظلمَ بالشرك، حيث ورد أنه لما نزلت ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾(٢) شَقَّ ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله، أَيُّنا لا يظلم نَفْسَه ؟ قال: (ليس ذلك، إنما هو الشِّرْكُ، أَلَمْ تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه:﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(٣)﴾)(٤)، فتفسير الظلم بالشرك إنما هو دلالة إسلامية، وأمثلة هذه الدلالات كثيرة، ولقد أورد ابن فارس بابا في الصاحبي أسماه باب الألفاظ الإسلامية، يقول فيه: " كانت العربُ في جاهليتها على إرثٍ من إرث آبائهم في لُغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقَرابينهم، فلما جاء الله– جلّ ثناؤه– بالإسلام حالت أحوالٌ، ونُسِخَت دِياناتٌ، وأُبْطِلت أمورٌ، ونُقِلت من اللغة ألفاظٌ من مواضعَ إلى مواضع أُخَرَ: بزيادات زِيدت، وشرائع شُرِعت، وشرائط شُرِطت؛ فَعفَّى الآخرُ الأوّلَ "(٥)، إلى أن قال: " فكان مما جاء في الإسلام ذِكْرُ المؤمنِ والمسلمِ والكافرِ والمنافقِ. وأنَّ العرب إنَّما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان، وهو التصديق، ثُمَّ زادت الشريعةُ شرائطَ وأوصافا بها سُمِّيَ المؤمنُ بالإطلاق مؤمنا"(٦)، وحديث الإيمان يأتي– إن شاء الله– في الألفاظ الحديثية.

٣– استثارة الهمة ولفت الانتباه

قد يكون سبب البيان لَفْتَ الانتباه لأهمية الأمر وخطورته، كما في حديث المفلس، حيث قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: (إنما المفْلِسُ الذي يُفْلِسُ يوم القيامة)(٧)، وقد جاء الحديث مفصلا عند مسلم أن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– قال: (أَتَدْرُون ما المفْلِسُ؟) قالوا: المفلِسُ فينا مَنْ لا دِرْهَمَ له ولا متاعَ، فقال: (إنَّ المفْلِسَ من أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ القيامةِ بِصَلاةٍ وصيامٍ وزكاة، ويَأْتِي قَدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فَيُعْطَى هذا

(١) صحيح البخاري، حديث /٣٣٠٤.

(٢) الأنعام / ٨٢.

(٣) لقمان / ١٣.

(٤) صحيح البخاري، حديث /٣٢٤٦.

(٥) الصاحبي في فقه اللغة العربية /٧٨.

(٦) الصاحبي في فقه اللغة العربية /٨٣.

(٧) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي– صلى الله عليه وسلم– (إنما الكرم قلب المؤمن)، رقم (١٠٢).

من حَسَنَاته، وهذا من حَسَناته، فإن فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى ما عَلَيه أُخِذَ مِنْ خَطَاياهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ)(١)، فالحديث يلفت لخطورة من كان هذا حاله، حيث يفعل الإنسان من الأعمال ما يُضَيِّع عليه جميعَ حسناته، ويذهب بها لغيره، بل يجعله يحمل من سيئات غيره حين تفنى حسناته؛ فيُضيِّع بيده كل ما قدَّم من خير وبِرٍّ.

٤- تغيير بعض المفاهيم

قد يكون سببُ البيان تغييرَ بعض المفاهيم التي تعارف عليها الناس، فإذا بالنبي- صلى الله عليه وسلم- يبادرهم بأن حقيقة الأمر على خلاف ما يعتقدون، من ذلك ما ورد من تغيير معنى الشديد من المفهوم الشائع بين الناس وهو الصُّرَعة الذي يصرَع الرجالَ ولا يصرعونه، فبيَّن لهم أن الأمر على غير هذا فقال: (ليس الشديد بالصُّرَعَةِ، إنما الشديد الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عند الغَضَبِ)(٢).

من ملامح البيان النبوي:

غلب على البيان النبوي في هذه الدراسة صورةُ بيان المعنى بالعبارة، بحيث يُصَوِّر النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- المعنى في عبارة موضِّحة لجميع جوانبه، فلا يُحتاج معها إلى مزيد بيان أو إيضاح، سواء أقصرت العبارة أم طالت؛ فالمقصد الأصلي منها الإفهام والبيان، ولا يؤثر في ذلك طولٌ أو قِصَرٌ، إنما المهم إيضاح المعنى وإفهام المتلقي، وأمثلة هذا الصنف من البيان كثيرة متعددة، وهذا ليس خاصا بأحاديث الدراسة وحدها، إنما هو ظاهرة عامة في حديث النبي- صلى الله عليه وسلم- ، توافُقا مع صفة البلاغ الواجبة للأنبياء- عليهم السلام- جميعا، ومن لوازم البلاغ البيان.

ولقد تعدَّدت الصور التي جاء عليها بيان النبي- صلى الله عليه وسلم- لألفاظ القرآن والسنة، فنجده تارة يُبيِّن المعنى بعد سؤال من أحد الصحابة- رضي الله عنهم، وتارة نجده يبادرهم هو بالسؤال ثم يُبيِّن لهم المعنى، وثالثة يبادرهم بالبيان دون سؤال، وأحيانا نجده يذكر اللفظ المبيَّن ثم يُتبعه بالبيان، وتارة يعكس فيأتي بالبيان ثم اللفظ المبيَّن، وغالبا يكون البيان باللفظ، وقد يكون بالإشارة، وقد يصحب البيانَ صورةٌ إيضاحيةٌ توضِّح المعنى وتُجْليه، وقد يكون بيان اللفظ باللفظ، وقد يكون بيانه بالعبارة

(١) صحيح مسلم، حديث /٢٥٨١.

(٢) صحيح البخاري، حديث /٥٧٦٣.

كما سبق ذكره، إلى غير ذلك مما سيتضح- إن شاء الله- في السطور الآتية، وفيما يأتي أمثلة لهذه الصور والملامح:

أولا: البيان بعد سؤال

هذا السؤال قد يكون من أحد الصحابة- رضي الله عنهم-، وورد لهذه الصورة أمثلة كثيرة ونماذج عديدة، منها ما حدَّث به أبو هريرة – رضي الله عنه- أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (لا تُنْكَحُ الأَيِّمُ حتى تُسْتَأْمَرَ، ولا تُنْكَحُ البِكْرُ حتى تُسْتَأْذَنَ). قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: (أن تَسْكُتَ)(١)، وفي رواية عنه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم- قال: (إذا سكتت) (٢).

وقد يكون السؤال مبادرة من الرسول- صلى الله عليه وسلم- للصحابة- رضي الله عنهم- أو لبعضهم، تحفيزا لأذهانهم، وتنبيها لأهمية ما يذكر لهم من المعاني والأحكام، من ذلك قوله: (أتدرون ما الإيمان بالله وحده)؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تُعْطُوا من المغْنَمِ الخُمُسَ)(٣).

ثانيا: البيان دون سؤال

قد يبادر الرسولُ- صلى الله عليه وسلم- الصحابةَ- رضي الله عنهم- ببيان معنى بعض الألفاظ دون سؤال سابق منهم أو منه، من ذلك قوله: (لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو اللهُ بي الكفرَ، وأنا الحاشر الذي يُحْشَرُ الناسُ على قدمي، وأنا العاقب)(٤).

ثالثا: المبيَّن ثم البيان

قد يذكر الرسول- صلى الله عليه وسلم- اللفظَ المرادَ بيانُه أوَّلًا ثم يُتْبعه بالبيان، وهذا هو الغالب في الأمثلة التي وردت في صحيح البخاري، من ذلك قوله- صلى الله عليه وسلم-: (ليس المسكينُ الذي يطوف على الناس تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتانِ والتَّمْرَةُ

(١) صحيح البخاري، حديث / ٤٨٤٣، وحديث / ٦٥٦٩، تح. د. مصطفى ديب البُغا، ط. دار ابن كثير- بيروت، اليمامة- بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م. وهذه هي الطبعة التي سأعتمد عليها- إن شاء الله- هي هذه الدراسة.

(٢) صحيح البخاري، حديث / ٦٥٦٧.

(٣) صحيح البخاري، حديث / ٥٣.

(٤) صحيح البخاري، حديث / ٣٣٣٩ ، ٤٦١٤.

والتَّمْرَتان، ولكنِ المسكينُ الذي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيه، ولا يُفْطَنُ به فَيُتَصَدَّقُ عليه، ولا يقومُ فيَسْأَلُ الناسَ).(١)

رابعا: البيان ثم المبيَّن

هذه عكس التي قبلها، لكنها أقل منها، فأحيانا يذكر النبي– صلى الله عليه وسلم– المعنى أولا، ثم يُتبعه باللفظ المستعملِ فيه هذا المعنى، ويُشْبِهُ هذا ما يقوم به بعض الأساتذة في اختبارات الطلاب من ذكر عبارة معينة، ثم يطلب منهم ذِكْرَ المصطلحِ العلميِّ المناسب لهذه العبارة، لكنه في صورة البيان النبوي يكون هذا دون سؤال، من ذلك قوله– صلى الله عليه وسلم–: (المسلمُ إذا سُئِلَ في القَبْرِ يَشْهَدُ أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله. فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمَنوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ في الحياةِ الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ ﴾(٢))(٣).

خامسا: البيان باللفظ والبيان بالإشارة

الغالب في بيان النبي– صلى الله عليه وسلم– أن يكون باللفظ، لكننا نجده أحيانا يتخذ طريقا آخر من طرُق الدلالة وهو الدلالة بالإشارة(٤)، من ذلك قوله– صلى الله عليه وسلم–: (يُقْبَضُ العِلْمُ، ويَظْهَرُ الجَهْلُ والفِتَنُ، ويَكْثُرُ الهَرْجُ). قيل: يَا رَسُولَ الله، وَمَا الهَرْجُ؟ فَقَالَ: (هَكَذَا بِيَدِه فَحَرَّفَهَا)، كَأَنَّهُ يُرِيدُ القَتْلَ)(٥)، فتحريف يده الشريفة فيه إشارة للمعنى المراد– كما سيأتي بيانه إن شاء الله–، وقد ذكر البخاري هذا الحديث مع غيره من الأحاديث وترجم للباب بقوله: " باب من أجاب الفُتْيا بإشارة اليد والرأس"(٦).

سادسا: البيان اللغوي والبيان العرفي

الأصل في بيان النبي– صلى الله عليه وسلم– ذِكْرُ الدلالة اللغوية، لكنه قد يذكر نوعا آخر من الدلالات، وهو الدلالة العرفية، وذلك في مثل ما ورد عن أم المؤمنين عائشة– رضي الله عنها– أنها قالت: يا رسول الله إن البكر تستحي؟ قال: (رضاها صَمْتُها)(٧)، فجعل الصمت رضًا، وهذه دلالة عرفية غير لغوية– كما سيأتي بيانه–،

---

(١) صحيح البخاري، حديث /١٤٠٩.

(٢) إبراهيم /٢٧.

(٣) صحيح البخاري، حديث /٤٤٢٢.

(٤) يقول الجاحظ: "وجميع أصناف الدلالات على المعنى من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أولها : اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى نِصْبَة ، والنِّصْبَة هي الحال الدَّالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تُقَصِّر عن تلك الدلالات ". البيان والتبيين ٧٦/١.

(٥) صحيح البخاري، حديث /٨٥.

(٦) صحيح البخاري ٤٣/١.

(٧) صحيح البخاري، حديث /٤٨٤٤.

وهي أقرب إلى دلالة الحال من غيرها من أنواع الدلالات، يقول الجاحظ:" وأما النِّصْبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونامٍ، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص "(١).

سابعا: البيان بالمثال التوضيحي

قد يذكر النبي– صلى الله عليه وسلم– بعض المعاني، ثم يُتْبعها بصورة تفصيلية، أو نموذج تمثيلي يزيد المعنى وضوحا وبيانا، من ذلك قوله– صلى الله عليه وسلم– (وأُرِيتُ النارَ، فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كاليومِ قَطُّ أَفْظَعَ، ورَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِها النِّساءَ). قالوا: بِمَ يا رسول الله؟ قال: (بِكُفْرِهِنَّ). قيل: يَكْفُرْنَ بالله؟ قال: (يَكْفُرْنَ العَشيرَ، ويَكْفُرْنَ الإِحْسانَ، لو أَحْسَنْتَ إلى إحداهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ ثُمَّ رَأَتْ منكَ شيئًا قالت: ما رَأَيْتُ منك خيرًا قَطُّ)(٢)، فبعد أن بيَّنَ لهم أن الكفر هنا ليس الكفر بالله، إنما هو نوع آخر، وهو كُفْرُ العَشير وكُفْرُ الإحسان– ساق لهم صورةً توضيحية، ومثالا عمليا لهذا النوع من الكفر فقال: (لو أَحْسَنْتَ إلى إحداهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ ثُمَّ رَأَتْ منكَ شيئًا قالت: ما رَأَيْتُ منك خيرًا قَطُّ).

ثامنا: بيان المفرد وبيان المركَّب

والمراد بالمفرد ما كان لفظا واحدا غير مركَّب مع غيره من الكلمات، وهذا هو الغالب في هذه الدراسة، فلا نحتاج إلى تمثيل.

أما المركَّب فالمراد به ما تركَّب مع غيره من الكلمات، سواء أكان تركيب إضافة أم تركيب إسناد، أما تركيب الإضافة فكما في بيانه– صلى الله عليه وسلم– المراد ببركات الأرض، حيث قال: (إِنَّ أَكْثَرَ ما أَخافُ عليكم ما يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ بَرَكاتِ الأَرْضِ). قيل: وما بركات الأرض؟ قال: (زَهْرَةُ الدُّنْيَا)(٣).

وأما تركيب الإسناد فكما ورد في بيان نُصرة الأخ ظالما، حيث قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا). فَقَالَ رَجُلٌ: يا رَسُولَ الله، أَنْصُرُهُ إِذا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قال: (تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ)(٤)، فالبيان هنا ليس لمعنى النصرة، وإنما لمعنى نصرة الأخ حالة ظلمه.

---

(١) البيان والتبيين ٨١/١.

(٢) صحيح البخاري، حديث /١٠٠٤.

(٣) صحيح البخاري، حديث /٦٠٦٣.

(٤) صحيح البخاري، حديث /٦٥٥٢.

ويدخل في هذا التركيب الألفاظ الموصوفة، فهي- وإن كانت في الحقيق مفردات- داخلةٌ في دائرة المركَّب؛ لتَركُّب الموصوف مع الصفة وشبههما في الصورة بالمضاف والمضاف إليه، من ذلك ما ورد عن البراء بن عازب- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: (المسلمُ إذا سُئِلَ في القَبْرِ يَشْهَدُ أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمَنوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ في الحياةِ الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ (١)﴾)(٢)، فليس البيان للقول وحده، ولا للثابت وحده، وإنما البيان لتركيبهما معا (القول الثابت).

تاسعا: البيان باللفظ أو العبارة

وهذه عكس التي قبلها، فهناك كان المبيَّن مفردا أو مركبا، وهنا نجد الإفراد أو التركيب في البيان نفسه؛ حيث نجد مواضع جاء بيان معنى اللفظ فيها بلفظ آخر أوضح منه وأبين في الدلالة للمتلقي، ومواضع جاء بيان المعنى بالعبارة.

أما الأول فمثل قول أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها-: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-:(البِكْرُ تُسْتَأْذَنُ). قلت: إن البِكْرَ تَسْتَحْيِي ؟ قال: (إِذْنُها صُماتُها)(٣).

وأما بيان معنى اللفظ بالعبارة فهذا هو الغالب- كما سبق ذكره- في أمثلة هذه الدراسة، من ذلك قوله- صلى الله عليه وسلم-: (وتَجِدُونَ شَرَّ الناسِ ذا الوَجْهَيْنِ: الذي يَأْتِي هؤلاءِ بوَجْهٍ، ويَأْتِي هؤلاء بِوَجْهٍ)(٤)، فبيَّن معنى ذي الوجهين بعبارة (الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه).

عاشرا: تأكيد البيان بالتكرار

قد نجد الرسول- صلى الله عليه وسلم- يُكرِّر بعض الكلمات تأكيدا لها، أو تهويلا من شأنها وتخويفا، كما في قوله: (يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ العَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَيَكْثُرُ الهَرْجُ). قَالُوا: وَمَا الهَرْجُ؟ قَالَ: (القَتْلُ القَتْلُ)(٥).

وجميع هذه الصور نجدها مبثوثة- إن شاء الله- في الدراسة التحليلية في المبحث الثاني.

---

(١)إبراهيم /٢٧.

(٢) صحيح البخاري، حديث /٤٤٢٢.

(٣) صحيح البخاري، حديث /٦٥٧٠.

(٤) صحيح البخاري، حديث /٣٣٠٤.

(٥) صحيح البخاري، حديث /٥٦٩٠، ورُوِي عن أيضا أبي هريرة- رضي الله عنه- في حديث /٦٦٥٢ بزيادة (وتظهر الفتن) قبل (ويكثر الهرج)، وسؤال الصحابة- رضي الله عنهم- بلفظ " قالوا: يا رسول الله، أيما هو ؟ ".

المبحث الثاني: الدراسة التحليلية

أولا: الألفاظ والعبارات القرآنية(١)

(حسب) الحساب اليسير – عرض الحساب – مناقشة الحساب

حدثنا سعيد بن أبي مريم قال: أخبرنا نافع بن عمر قال: حدثني ابن أبي ملكية أن عائشة زوج النبي– صلى الله عليه وسلم– كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي– صلى الله عليه وسلم– قال: (مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ). قالت عائشة: فقلت: أَوَ لَيْسَ يقول الله– تعالى–: ﴿ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِسابًا يَسِيرًا ﴾(٢)؟ قالت: فقال: (إنما ذلك العَرْضُ، ولَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الحِسابَ يَهْلِكْ)(٣).

وقد ورد الحديث بروايات بينها اختلاف يسير في بعض الألفاظ لا يتغيَّر بها المعنى، أذكر منها هنا نصَّ النبي– صلى الله عليه وسلم–، حيث قال في أُولاها: (ذاك العرض يعرضون ومن نوقش الحسابَ هَلَكَ)(٤)، وقال في ثانيها: (إنما ذلك العرض، وليس أحد يُناقَشُ الحسابَ يوم القيامة إلا عُذِّبَ)(٥)، وفي الثالثة قال: (من نوقش الحساب عُذِّبَ). قالت: قلت: أليس يقول الله– تعالى–: ﴿ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِسابًا يَسِيرًا ﴾(٦)؟ قال (ذلك العَرْضُ)(٧).

وعندنا في هذا الحديث بيان لعبارتين: الأولى: الحساب اليسير، والأخرى: مناقشة الحساب، وعندنا أيضا لفظ المحاسبة وعَرْضُ الحساب.

وقد بيَّن النبي– صلى الله عليه وسلم– أن مناقشةَ الحساب عذابٌ، وهنا وقع شيء من اللبس عند أم المؤمنين السيدة عائشة– رضي الله عنها–؛ ذلك أن الله– تعالى– يقول: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِسابًا يَسِيرًا ﴾(٨)؛ إذ كيف يكون الحساب يسيرا وفي الوقت نفسه يكون عذابا؟ وكما في الحديث (فقد كانت لا تسمع

(١) تم ترتيب الألفاظ والعبارات حسب الترتيب الهجائي العادي (أ، ب، ت، ث، ...)، مع الاعتداد بالكلمة التي عليها أكثر مدار الحديث بالنسبة لترتيب العبارات.

(٢)الانشقاق /٨.

(٣) صحيح البخاري، حديث /١٠٣.

(٤) صحيح البخاري، حديث /٤٦٥٥.

(٥) صحيح البخاري، حديث /٦١٧٢.

(٦)الانشقاق /٨.

(٧) صحيح البخاري، حديث /٦١٧١.

(٨)الانشقاق /٧، ٨.

شيئا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه)؛ فسألت النبيَّ– صلى الله عليه وسلم– عن ذلك.

وحقيقة الحساب العَدُّ والإحصاء، يقول الخليل: " الحِسابُ: عَدُّكَ الأشياء "(١)، والمحاسبة مصدر الفعل حاسَبَ، ومحاسبةُ اللهِ العبدَ على هذا تعني عَرْضَ صحيفة الأعمال عليه ليعلم ما له وما عليه، يقول المناوي: " المحاسبة: مفاعَلة من الحساب، وهو استيفاء الأعداد فيما للمرء وعليه "(٢)، ففيها استيفاء للأعمال وحَصْرها واستقصاؤها، ويقول الدكتور جبل: " الحَسْبُ: العَدُّ، إذ هو جَمْعٌ للمتشابهات، وتَبْيِينٌ لما تَحَصَّلَ، وتقديرٌ لكميات المحسوب... والمحاسبة:عَرْضُ كل أعمال الشخص(= جَمْعٌ) وتقويمها، ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾(٣)، وكذا كل (حاسَبَ)، (يُحاسِب)، (يُحاسَب)"(٤)، ويقول أبو العباس القرطبي: " قوله: (من حُوسِب يوم القيامة عُذِّبَ) يعني حسابَ مناقشة ومطالبة"(٥)، وأختم هنا بقول ابن حجر: "قوله: (ليس أحدٌ يُحاسَب يوم القيامة إلا هَلَكَ)، ثم قال أخيرا: (وليس أحد يُناقَش الحسابَ يوم القيامة إلا عُذِّبَ)، وكلاهما يرجعان إلى معنى واحد؛ لأن المراد بالمحاسبة تحرير الحساب؛ فيستلزم المناقشة، ومن عُذِّبَ فقد هلك "(٦).

وهذه الأقوال تعني أن في المحاسبة استيفاءً واستقصاءً ومناقشةً ومطالبةً وجمعًا وحصرًا وتقويمًا، وكل هذا فيه من الصعوبة والمشقة ما فيه، واليسر في الحساب ليس من طبيعته، وإنما جاءه من الوصف باليسير ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾(٧)، يقول البدر العيني: " قوله: (يسيرا)، أي سهلا هَيِّنًا، لا يُناقَش فيه، ولا يُعْتَرَضُ بما يَشُقُّ عليه كما يُناقَش أصحابُ الشمال "(٨).

ومن هذا يتبيَّن أن الحساب اليسير هو مجرد العَرْض، والعَرْضُ: إظهار الأعمال وإبرازها دون مناقشة أو مراجعة، يقول البدر العيني: " قوله: (ذاك العَرْضُ): هو الإبداء والإبراز. وقيل: هو أن يعرف ذنوبه لم يُتَجَاوَزْ عنه، وحقيقة العرض إدراك

(١)العين (حسب)، وينظر الجذر في التهذيب والمقاييس والمفردات واللسان.
(٢)التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي /٢٩٨.
(٣)البقرة /٢٨٤.
(٤)المعجم الاشتقاقي (حسب).
(٥)المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي ١٥٧/٧.
(٦)فتح الباري، لابن حجر ١١/ ٤٠٢.
(٧)الانشقاق /٨.
(٨)عمدة القاري ١٣٨/٢، وينظر: الكليات لأبي البقاء الكفوي /٩٩٣.

الشيء بالحواس ليُعْلَمَ غايتُه وحالُه "(١)، ويقول أبو العباس القرطبي:" قوله: (إنما ذلك العرض)، يعني أن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تُعرَض أعمالُ المؤمن عليه، ويُوقَف عليها تفصيلا حتى يعرف منَّةَ الله- تعالى- عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة "(٢)، ويقول ابن منظور: " عَرَضَ له أمرُ كذا: أي ظَهَرَ، وعَرَضْتُ عليه أَمْرَ كذا وعَرَضْتُ له الشيءَ: أي أَظْهَرْتُه له وأَبْرَزْتُهُ إليه. وعَرَضْتُ الشيءَ فأَعْرَضَ: أي أَظْهَرْتُهُ فَظَهَرَ "(٣)، ويقول الدكتور جبل: " وكلٌّ (عَرَضَ) و(عُرِضَ) ومضارعهما فهي بمعنى إمرار الشيء أمام النظر أو إتاحته بقصد أن يُنْظَر إليه"(٤).

فمعاني العرض هذه تتوافق مع كون الحساب يسيرا، ويؤكد هذا المعنى ما رُوي عن أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: " سمعتُ رسولَ الله- صلى الله عليه وسلم- يقول في بعض صلاته: (اللهم حاسِبْني حِسابًا يسيرًا)، فلما انصرف قلتُ: يا رسول الله، ما الحساب اليسير؟ قال: (يُنْظَرُ في كتابه وَيُتَجَاوَزُ له عنه. إنَّه من نُوقِشَ الحسابَ يومئذ يا عائشة هَلَكَ)(٥).

أما المحاسبة أو مناقشة الحساب ومراجعته فهذا يكون عذابا، وإذا رجعنا إلى المعنى الأصلي لتركيب (نقش) وجدنا ابن فارس يقول: " النون والقاف والشين أصل صحيح يدل على استخراج شيء واستيعابه حتى لا يُتْرَكَ منه شيءٌ ; ثم يقاس ما يقاربه. منه نَقْشُ الشَّعَر بالمِنْقاش، وهو نَتْفُهُ. ومنه المناقشة: الاستقصاء في الحساب حتى لا يُتْرَكَ منه شيءٌ "(٦)، هذا الذي ذكره ابن فارس يؤيده كلام اللغويين، يقول الخليل: " النَّقْشُ: نتفك شيئاً بالمِنقاشِ بعد شيء. والمُناقَشَةُ في الحساب: ألا يَدَعَ قليلًا ولا كثيرًا "(٧)، ويقول الفيروزابادي: " النَّقْشُ: استِخْراجُ الشَّوْك، ... [والنقش]: اسْتِقْصَاؤُكَ الكَشْفَ عن الشيء "(٨).

---

(١)عمدة القاري ٢٨٥/١٩.

(٢)المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي ٧/ ١٥٨.

(٣)اللسان (عرض)، وينظر الصحاح (عرض).

(٤)المعجم الاشتقاقي (عرض).

(٥)المستدرك على الصحيحين للحاكم، حديث /٩٣٦.

(٦)المقاييس (نقش).

(٧)العين (نقش)، وينظر الجذر (نقش) في التهذيب، المصباح، التاج، وينظر الزاهر في معاني كلمات الناس ٣٠٨/١، شمس العلوم، نشوان الحميري ٦٧٣٤/١٠.

(٨)المستدرك على الصحيحين للحاكم، حديث /٩٣٦.

وقد فسَّر أبو عبيد القاسم بن سلام المناقشةَ بما يتوافق مع هذه المعاني فقال: "المناقشة: الاستقصاء في الحساب حتى لا يُتْرَكَ منه شيءٌ. ومنه قول الناس: انْتَقَشْتُ منه جميعَ حَقِّي، وقال الحارث بن حلزة يعاتب قومًا:

أَوْ نَقَشْتُمْ فالنَّقْشُ يَجْشَمُهُ الْقَوْ مُ وَفِيهِ الصِّحَاحُ وَالْأَبْرَاءُ (١)

يقول: لو كانت بيننا وبينكم محاسبة ومناظرة عرفتم الصحة والبراءة. [قال]: ولا أحسب نَقْشَ الشوكة من الرِّجْل إلا من هذا، وهو استخراجها حتى لا يُتْرَكَ في الجسد منها شيءٌ "(٢)، ويقول الحربي: " قوله: (من نوقش الحساب) المناقشة: أن لا تَدَعَ من الحساب شيئا، كأنه يستخرج ما غَمَضَ منه بالمنقاش "(٣)، وقال الزمخشري: " يقال: ناقشه الحسابَ: إذا عاسَرَهُ فيه واستقصى فلم يترك قليلا ولا كثيرا ... وأصل المناقشة من نَقْشِ الشوكة، وهو استخراجها كلها، ومنه انتقشت منه جميع حقي "(٤).

ونلاحظ أن الزمخشري خالف أبا عبيد في تحديد الأصل والمشتق، فبينما جعل الأخير المناقشة أصلا لنَقْش الشوكة من الرِّجْل، نجد الزمخشري عكس فجعل نَقْش الشوكة أصلا للمناقشة، وهذا ما ذهب إليه ابن الأثير أيضا حيث نقل كلام الزمخشري فقال: " وأصل المناقشة: من نقش الشوكة، إذا استخرجها من جسمه، وقد نقشها وانتقشها "(٥).

وما ذهب إليه الزمخشري أولى وأوجه؛ ذلك أن نقش الشوكة من الرِّجْل استعمال حسي، وأسبق– عقلا– في الحدوث من المناقشة التي تحتمل أن تكون حسية ومعنوية، وهي متأخرة– عقلا– في الواقع الفعلي؛ وما كان حسيًّا وأسبقَ وقوعا أولى بأن يكون أصلا، ويكون غَيْرُه مشتقا منه.

وأختم هنا بكلام القاضي عياض معلقا على الحديث، مبينا المراد بكون مناقشة الحساب تعذيبا فقال: " وقوله: (من نوقش الحساب عُذِّبَ)، أي من استُقْصِيَ عليه، والمناقشة الاستقصاء. وقيل: نَفْسُ عذابه، المراد يُعَذَّبُ بمحاسبته. وقيل: بل إذا نوقش ووُزِنَتْ أعمالُه وخَطَراتُه وهَمَّاتُه وصغائرُه وكبائرُه لم يكد يَخْلُص إن لم يَعْفُ اللهُ عنه،

---

(١)البيت في ديوان الحارث بن حلزة /٢٧ برواية:

أَوْ نَقَشْتُمْ فالنَّقْشُ يَجْشَمُهُ النَّا سُ وَفِيهِ الصَّلاحُ وَالْإِبْرَاءُ

وعلى هذا يكون المعني: إذا استقصيتم ما جرى بيننا وبينكم تبيَّن لكم براءتُنا وذنبُكم. ديوان الحارث /٢٧، حاشية رقم / ٣٢.

(٢)غريب الحديث، لأبي عبيد ٢٥٥/١.

(٣)غريب الحديث، لإبراهيم بن إسحاق الحربي ١/ ٣١٢.

(٤)الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري ١٦/٤.

(٥)النهاية في غريب الحديث والأثر (نقش).

كما قال– صلى الله عليه وسلم–: (لا يَدْخُلُ أَحَدُكُمُ الجنةَ بعمله، ولا أنا إلا أن يَتَغَمَّدَنِي اللهُ برحمتِهِ)(١)"(٢)، وقد علَّق ابن الجوزي على الحديث بقوله: " قلت: وظاهر هذا الحديث أن من فُتِّشَ عن كل شيء عَمِلَهُ عُذِّبَ؛ لأنه إنما يُفَتَّشُ المسخوطُ عليه، فأما المرحوم فإن بداية رحمته المسامَحَةُ في المسألة، ويحتمل أن يكون معنى الحديث: من نوقش عُذِّبَ بنقاشه "(٣).

(سبع) السبع المثاني

عن أبي سعيد بن المعلى قال: كُنْتُ أُصَلِّي فِي المَسْجِد، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّه – صلى الله عليه وسلم– فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: (أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾(٤). ثُمَّ قَالَ لِي: (لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي القُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ). ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ: (لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ)؟ قَالَ: (﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾(٥)هِيَ السَّبْعُ المَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ)(٦).

والحديث– هنا– سمَّى الفاتحة السبعَ المثانيَ، وسيأتي الحديث– إن شاء الله– عن إطلاق اسم (أم القرآن) عليها، لكني رأيت اختلافات في بيان المراد بالسبع المثاني، ولا أرى لذلك كله وجها؛ ذلك أن النبي– صلى الله عليه وسلم– أطلق هذين الاسمين عليها؛ فليس لنا أن نزيد في ذلك أو ننقص، إنما غاية ما لنا أن نبحث عن علة هاتين التسميتين.

وإذا وقفنا مع المراد بالسبع المثاني وجدنا افتراقا بين العلماء فيها؛ ذلك أنهم اختلفوا في تحديد المراد بها في قول الله– تعالى–: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾(٧)، وتعدَّدت أقوالهم على النحو التالي:

---

(١)الحديث أخرجه البخاري في صحيحه برقم /٥٣٤٩ من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله– صلى الله عليه وسلم– يقول: (لن يُدْخِلَ أحدًا عملُه الجنةَ)، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (لا، ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فَسَدِّدُوا وقارِبُوا، ولا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ: إما مُحْسِنًا فلَعَلَّهُ أن يَزْدَادَ خيرًا، وإما مُسِيئًا فلَعَلَّهُ أن يَسْتَعْتِبَ).

(٢)مشارق الأنوار على صحاح الآثار ٢/ ٢٥.

(٣)كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي ٤/ ٣٥٧.

(٤) الأنفال /٢٤.

(٥) الفاتحة /١.

(٦)صحيح البخاري، حديث /٤٢٠، ورُوِي باختلاف يسير بين الألفاظ في الأحاديث (٤٣٧٠، ٤٤٢٦، ٤٧٢٠).

(٧) الحجر /٨٧.

أولا: المراد بها السُّوَر السبع الطِّوال، يقول مكي بن أبي طالب: " قيل: السبعُ المثاني السورُ الطوال، وسميت مثاني لأنها تُثْنَى فيها الأمثال والخبر والعِبَر والحدود والفرائض، قاله ابن عباس ومجاهد وابن عمر وابن جبير وابن سيرين. وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس.وقيل:السابعة الأنفال وبراءة"(١).

وقد ذكر الطبري ردًّا على هذا روايةً " عن أبي العالية، قال: فاتحة الكتاب. قال: وإنما سميت المثاني لأنه يُثْنَي بها كلما قرأ القرآن قرأها، فقيل لأبي العالية: إن الضحاك بن مزاحم يقول: هي السبع الطُّوَل. فقال: لقد نزلت هذه السورة ﴿ سَبْعًا مِنَ المثَانِي ﴾ وما أُنزِل شيءٌ من الطُّوَل "(٢).

ثانيا: المراد بها معاني القرآن، يقول الطبري: " وقال آخرون: عنى بالسبع المثاني معانيَ القرآن. ذِكْرُ من قال ذلك: حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب الشهيد الشهيدي، قال: ثنا عَتَّاب بن بشير، عن خُصَيْف، عن زياد بن أبي مريم، في قوله: ﴿ سَبْعًا مِنَ المثَانِي ﴾ قال: أَعْطَيْتُكَ سبعة أجزاء: مُرْ، وانْهَ، وبَشِّرْ، وأَنْذِر، واضْرِبِ الأمثالَ، واعْدُدِ النِّعَم، وآتيتُكَ نَبَأَ القرآن "(٣)، ونحو ذلك ذَكَر مكي وابن كثير.

ثالثا: المراد بها القرآن غير الفاتحة، يقول مكي: " وقيل: المثاني القرآن غيرها [غير الفاتحة]. والمعنى سبع آيات من القرآن الذي هو مثاني، أي تُثْنَى فيه القِصصُ والمواعظُ والأخبارُ، دل على ذلك قولُه: ﴿ مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ﴾(٤)، فالمعنى: ولقد أعطيناك يا محمد سبع آيات، وهي الحمد، من المثاني، أي من القرآن "(٥).

رابعا: المراد بها القرآن الكريم كله، يقول الطبري: " الواجب أن تكون المثاني مرادا بها القرآن كله، فيكون معنى الكلام: ولقد آتيناك سبع آيات مما يَثْنِي بعضُ آيِهِ بعضًا، وإذا كان ذلك كذلك كانت المثاني جَمْعَ مَثْناة، وتكون آيُ القرآن موصوفة بذلك لأن بعضَها يَثْنِي بعضا، وبعضَها يتلو بعضًا بفُصولٍ تَفْصِل بينها، فيُعرَف انقضاءُ الآيةِ

(١)الهداية الى بلوغ النهاية ٣٩٢٤/٦، وينظر: تفسير الطبري ١١٦/١٤، معاني القرآن للزجاج ١٨٦/٣، البحر المحيط ٤٥٢/٥، تفسير ابن كثير ٥٤٦/٤، فتح الباري لابن حجر ٣٨٢/٨.

(٢)تفسير الطبري ١١٦/١٤، وينظر: معاني القرآن للزجاج ١٨٦/٣، البحر المحيط ٤٥٢/٥، تفسير ابن كثير ٥٤٦/٤، فتح الباري لابن حجر ٣٨٢/٨.

(٣) تفسير الطبري ١١٦/١٤، وينظر: الهداية لمكي ٣٩٢٥/٦، تفسير ابن كثير ٥٤٦/٤.

(٤) الزمر /٢٣.

(٥) الهداية لمكي ٣٩٢٥/٦.

وابتداءُ التي تليها، كما وصفها به– تعالى ذِكْرُه– فقال: ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾(١)"(٢).

خامسا: المراد بالسبع المثاني سورة الفاتحة، وهذا ما عليه أكثر أهل التفسير(٣) – كما سيتضح فيما يأتي– إن شاء الله–.

وقد حاول ابن كثير التوفيق بين وَصْف الفاتحة وغيرِها بالسبع المثاني فقال: "ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطِّوال بذلك؛ لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضا، كما قال– تعالى–: ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني ﴾(٤) فهو مثاني من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم"(٥).

وقد اتفقوا على أنها سميت سبعا لأنها سبع آيات، لكنهم اختلفوا في علة إطلاق (المثاني) عليها، فتعددت أقوالهم على ما يلي:

الأول: أنها سميت بذلك أخذا من التثنية، وهي الإعادة والتكرار، يقول الطبري: "وأما وصفُ النبيِّ– صلى الله عليه وسلم– آياتِها السبعَ بأنهن مَثانٍ– فلأنها تُثْنَى قراءتُها في كل صلاة تطوُّع ومكتوبة. وكذلك كان الحسن البصري يتأوّل ذلك "(٦)، ورواية الحسن هذه ذكرها الطبري في موضع آخر فروى: " عن أبي رجاء، قال: سألت الحسن عن قوله: ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ﴾ قال: هي فاتحة الكتاب، ثم سُئِل عنها– وأنا أسمع– فقرأها ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ حتى أتى على آخرها، فقال: تُثَنَّى في كل قراءة، أو قال: في كل صلاة "(٧)، ويقول الزجاج: "وإنما قيل لها المثاني لأنها يُثَنَّى بها في كل ركعة من ركعات الصلاة، ويُثَنَّى بها مع ما يُقْرأ من القرآن "(٨)، ويقول الواحدي: " سُمِّيَتِ الفاتحة السبع المثاني؛ لأنها سبع آيات،

(١) الزمر /٢٣.
(٢) تفسير الطبري ١٢٥/١٤.
(٣) ذَكَر الطبري طائفة من أقوال السلف بأسانيدها على أن المراد بالسبع المثاني سورةُ الفاتحة، ينظر تفسير الطبري ١١٣/١٤.
(٤) الزمر /٢٣.
(٥) تفسير ابن كثير ٥٤٧/٤.
(٦) تفسير الطبري ١٠٧/١.
(٧) تفسير الطبري ١٠٧/١.
(٨) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج ١٨٥/٣.

وهي تُثَنَّى في كل صلاة بإعادتها في كل ركعة "(١)، فالفاتحة تُثَنَّى قراءتُها وتعاد وتُكررَّ في كل ركعات الصلاة.

الثاني: أنها مستثناة للرسول- صلى الله عليه وسلم-، خُصَّ بها دون سائر الأنبياء، يقول مكي: " وعن ابن عباس أن سورة الحمدُ هي المثاني، وإنما سميت مثاني لأن الله- جلّ ذكره- استثناها لمحمد- صلى الله عليه وسلم- دون سائر الأنبياء، فادخرها له. وعن ابن عباس: أخرجها لكم وما أخرجها لأحد كان قبلكم "(٢)، ويقول السيوطي: " ويحتمل أن يكون من الثُّنْيَا (٣) ؛ لأن الله استثناها لهذه الأمة "(٤).

الثالث: أنها سميت بذلك لما فيها من الثناء على الله وحَمْدِه، والإقرارِ له بالربوبية، وملك يوم الدِّين، يقول الزجاج: " ويجوز- والله أعلم- أن يكون من المثاني، أي مما أُثْنِي به على الله؛ لأن فيها حَمْدَ الله، وتوحيدَه وذِكْرَ ملائكتِه ومُلْكِه يوم الدِّين "(٥)، وعلَّق عليه الواحدي بقوله: " المعنى: ولقد آتيناك سبع آيات من جملة الآيات التي يُثْنَى بها على الله "(٦).

الرابع: أنها سميت بذلك لنزولها مرتين، يقول الفخر الرازي: " سميت مثاني لأن الله أنزلها مرتين"(٧)، وفي هذا يقول ابن كثير: " ويقال: نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة(٨) ... وحكى أبو الليث السمرقندي أن نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة، وهو غريب جدا، نقله القرطبي(٩) عنه"(١٠).

وبعد، فقد تبيَّن- مما سبق- أن أكثر العلماء على الفاتحة هي السبع المثاني، وقد أوردت أظهر أقوالهم في تعليل ذلك.

---

(١) الوسيط في التفسير، للواحدي ٥٢/٣، تفسير ابن كثير ١٠٢/١، جمال القراء ١٨٣/١، التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ٢٩٧/٣.

(٢) الهداية ٣٩٢٥/٦، وينظر جمال القراء ١٨٣/١.

(٣) "الثُّنْيَا والثُّنْوَى: مَا اسْتَثْنَيْتَهُ " اللسان (ثنى).

(٤) الإتقان ٣٥٣/٢.

(٥) معاني القرآن ١٨٥/٣، وينظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية ١٧٣/٣، جمال القراء ١٨٣/١، الإتقان ٣٥٣/٢.

(٦) التفسير الوسيط، للواحدي ٥٢/٣.

(٧) تفسير الفخر الرازي ١٥٨/١، وينظر: الإتقان ٣٥٣/٢.

(٨) ينظر جمال القراء ١٨٣/١.

(٩) ينظر تفسير القرطبي ١١٥/١.

(١٠) تفسير ابن كثير ١٠١/١.

بقي الإشارة إلى ما في آية سورة الحجر من عطف القرآن العظيم على السبع المثاني في قوله– تعالى–: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾(١)، إذ كيف يُعطَف القرآن على الفاتحة وهي منه؟

والجواب عن ذلك أن هذا من ذِكْر العام بعد الخاص وعطفه عليه، وهو كثير في اللغة، كما في قول الله– تعالى–: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾(٢)، وقوله: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ ﴾(٣)، فالمؤمنون والمؤمنات في الآية الأولى معطوفون على (نوح ووالديه ومن دخل بيته مؤمنا) وهؤلاء جميعا من المؤمنين، وفي الآية الثانية ذَكَرَ النبيين عامة بعد أن خَصَّ بعضَهم بالذِّكْر، فعطف العامَّ على الخاص.

أما وجْهُ إفراد الفاتحة بالذكر أولا، ثم عطفُ القرآن العظيم عليها– وهي منه– فذلك لبيان فضلها، وعظيم قدرها، يقول الواحدي: " وهذه الآية تدل على فضيلة الفاتحة؛ لأن الله– تعالى– امْتَنَّ على رسوله بهذه السورة كما امتنَّ عليه بجميع القرآن، حيث فَصَلَ هذا من القرآن بالذِّكْر، ثم ذَكَر القرآنَ بعده "(٤).

(ظلم) الظُّلْم

عن عبد الله– رضي الله عنه– قال: لما نزلت ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾(٥) قلنا: يا رسول الله، أَيُّنا لا يظلم نَفْسَه؟ قال: (ليس كما تقولون، ﴿ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ بِشِرْك، أَوَلَمْ تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(٦))(٧).

وفي رواية أخرى عنه– أيضا– قال: لما نزلت ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾(٨) شَقَّ ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله، أَيُّنا لا يظلم نَفْسَه ؟ قال: (ليس

(١) الحجر /٨٧.
(٢) نوح /٢٨.
(٣) البقرة/١٣٦.
(٤) التفسير الوسيط ٣ /٥٢.
(٥) الأنعام / ٨٢.
(٦) لقمان / ١٣.
(٧) صحيح البخاري، حديث /٣١٨١.
(٨) الأنعام / ٨٢.

ذلك، إنما هو الشِّرْكُ، أَلَمْ تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(١))(٢).

لما نزلت آية الأنعام شقَّ ذلك على المسلمين، فما من أحد إلا يقترف من الظلم ما لا يعلمه إلا الله؛ فشكوا ذلك للنبي– صلى الله عليه وسلم– فبيَّن لهم أن المراد بالظلم في هذا الآية ليس ما يظنون من أن الظلم هو المعاصي التي لا يسلم امرؤ من ارتكابها، إنما هو الشرك بالله، واستدل لهم على ذلك بقول الله– تعالى– على لسان لقمان يعظ ابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾.

يقول ابن رجب: " معنى هذا أن الظلم يختلف: فيه ظلمٌ ينقل عن الملة، كقوله – تعالى–: ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(٣) فإن الظلم وَضْعُ الشيءِ في غير موضعه، وأعظم ذلك أن يوضع المخلوقُ في مقام الخالق ويُجْعَلَ شريكا له في الربوبية وفي الإلهية، سبحانه وتعالى عما يشركون. وأكثر ما يَرِدُ في القرآن وعيدُ الظالمين يراد به الكفارُ، كقوله تعالى–: ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُون ﴾(٤) الآيات، وقوله: ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾(٥). ويراد بالظلم: ما لا ينقل عن الملة، كقوله– تعالى–: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾(٦)"(٧)، فهؤلاء الثلاثة (الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات) هم المصطفَوْنَ من عباد الله الذين أُورِثوا الكتاب، فليس منهم أحد مشرك بربه، بدليل قوله قبلها: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾، فالجميع مسلمون موحِّدون.

وهذان المعنيان اللذان ذكرهما ابن رجب في بيان أنواع الظلم يرجعان إلى الأصل اللغوي لتركيب (ظلم)، يقول ابن فارس: " الظاء واللام والميم أصلان صحيحان: أحدهما: خلاف الضياء والنور. والآخر: وَضْعُ الشيءِ غيرَ موضعه تعدِّيًا. ... والأصل الآخر: ظَلَمَه يظلِمه ظُلْمًا. والأصل: وَضْعُ الشيءِ في غير موضعه ؛ ألا

---

(١) لقمان / ١٣.

(٢) صحيح البخاري، حديث /٣٢٤٦، وورد الحديث ثلاث مرات أخرى بألفاظ قريب بعضها من بعض، بأرقام (٤٤٩٨، ٦٥٢٠، ٦٥٣٨) .

(٣) البقرة / ٢٥٤.

(٤) إبراهيم / ٤٢.

(٥) الشورى / ٤٤.

(٦) فاطر / ٣٢.

(٧) فتح الباري لابن رجب ١/ ١٤٥.

تراهم يقولون: (من أَشْبَهَ أباه فما ظَلَمَ)(١)، أي ما وَضَعَ الشَّبَهَ غيرَ موضعه "(٢)، ويقول الراغب: والظُّلْمُ عند أهل اللّغة وكثير من العلماء: وَضْعُ الشيءِ في غير موضعه المختصّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدول عن وقته أو مكانه، ومن هذا يقال: ظَلَمْتُ السِّقَاءَ: إذا تناولتَه في غير وقته، ويسمّى ذلك اللّبنُ الظَّلِيمَ. وظَلَمْتُ الأرضَ: حفرتَها ولم تكن موضعا للحفر، وتلك الأرض يقال لها المظْلُومَةُ، والتّراب الّذي يخرج منها ظَلِيمٌ. والظُّلْمُ يقال في مجاوزة الحقّ الذي يجري مجرى نقطة الدّائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقلّ من التّجاوز، ولهذا يستعمل في الذّنب الكبير، وفي الذّنب الصّغير، ولذلك قيل لآدم في تعدّيه ظالم، وفي إبليس ظالم، وإن كان بين الظُّلْمَيْنِ بَوْنٌ بعيد "(٣)، وبهذا يكون الظلم عامًّا في كلِّ تجاوزٍ للحق، ووَضْعٍ للأمور في غير موضعها، سواء أكان التجاوز في حق الله، وهو ما يكون شِرْكًا أو عصيانا بارتكاب أي مخالفة شرعية، أم كان في حق العباد، أم كان في حق النفس، فكل ذلك ظلمٌ بوضع الأمور في غير موضعها، وتجاوُزِ الحق الذي ينبغي التزامه.

والصحابة– رضي الله عنهم– حين نزلت الآية الكريمة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾(٤)– فهموا الظلم بحسب المعنى الغالب عليه، الشائع عند الناس، وهو تجاوز الحق بالاعتداء على الناس أو النفس ونحو ذلك، وهذه أمور قَلَّ أن يَسلَم منها بَشَرٌ، فشقَّ ذلك عليهم؛ ما جعلهم يشكون إلى النبي– صلى الله عليه وسلم– (أَيُّنا لا يظلم نَفْسَه؟) وإنما اتَّجه فَهْمُ الصحابة إلى هذا المعنى العام من المعاصي والآثام ولم يتَّجه إلى الشرك بالله لأن الشرك أعظم في نفوسهم من أن يكون مجرد ظلم، يقول ابن الأثير: " كان الشركُ عند الصحابة أكبرَ من أن يُلَقَّبَ بالظلم "(٥).

وقد بيَّن لهم النبي– صلى الله عليه وسلم– من الأمر ما طابت به قلوبهم، وهو كون الظلم في الآية غير ما فهموه من معناه العام مطلقا، وهو وضع الأمور في غير موضعها، إنما يراد به هنا نوع خاص من الظلم، وهو ظُلْمُ الإنسان نفسَه باتخاذه مع الله شريكا، مستدلا لهم بقول الله– تعالى– على لسان لقمان يخاطب ابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ لا

(١) هذا مَثَلٌ، والمعنى أن الذي يُشْبِهُ أباه– كما يقول الميداني–: " لم يَضَعِ الشَّبَهَ في غير موضعه؛ لأنه ليس أحدٌ أولى به منه بأن يشبهه، ويجوز أن يراد فما ظلم الأَبُ، أي لم يظلم حين وضع زَرْعَه حيث أدَّى إليه الشبه، وكلا القولين حسن ". مجمع الأمثال للميداني ٢/٣٠٠.

(٢) المقاييس (ظلم).

(٣) المفردات (ظلم).

(٤) الأنعام / ٨٢.

(٥) النهاية (ظلم).

تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(١)، وهذا المعنى لا يخرج- أيضا- عن حقيقة الظلم اللغوية التي هي (وضْعُ الشيء في غير موضعه)، فهذا الذي أشرك بربه إنما ظلم نفسه حين جعل مع ربه شريكا ونِدًّا؛ فوضَعَ العبادة- التي ينبغي أن تكون خالصة لله- في غير موضعها الذي يجب أن تكون فيه، وهذه دلالة شرعية متطورة عن الأصل اللغوي.

(قرر) مُسْتَقَرُّ الشمس

عن أبي ذر- رضي الله عنه- قال: قال النبي- صلى الله عليه وسلم- لأبي ذر حين غربت الشمس: (تدري أين تذهب؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذنَ فيُؤْذَنَ لها، ويُوشِكُ أن تَسْجُدَ فلا يُقْبَلَ منها، وتستأذنَ فلا يُؤْذَنَ لها، يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله- تعالى- : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢)﴾)(٣).

بيَّن النبي- صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث المراد من جريان الشمس لمستقرِّها، وهذا بيان من النبي – صلى الله عليه وسلم- لهذا اللفظ القرآني دون سؤال.

وقد ورد الحديث بعبارة أخرى بعد سؤالٍ من أبي ذرٍّ- رضي الله عنه- حيث قال: سألت النبي- صلى الله عليه وسلم- عن قوله: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾(٤) قال: (مُسْتَقَرُّها تحت العرش)(٥).

وقد تناول هذا الحديثُ آيةً من آيات الله في الكون، وهي حركة نجم الشمس وجريانه، من أين يأتي هذا النجم؟ وإلى أين يذهب؟ وظاهر الحديث يَشِي بأن هناك تعارضا بين ما هو مذكور في الحديث وما توصل إليه العلم الحديث من حركة الشمس ودورانها حول نفسها، ودورانِ الأرض حولها، وطبيعةِ هذه الحركة وهذا الدوران، وإن كانت هذه القضية لا علاقة لها بطبيعة هذه الدراسة، إلا أنها ينبغي الإشارة إليها، والإلماح لها، فلا يصلح إغماض العين عنها، وذلك من خلال أمرين:

الأول: أنه لا تعارض بين الأمرين، فما توصل إليه العلم الحديث من تحديد لطبيعة الشمس وحركتها ودورانها هو الصورة الظاهرة المرئية التي استطاعت أجهزةُ الرصد

---

(١) لقمان / ١٣.

(٢) يس /٣٨.

(٣) صحيح البخاري، حديث/٣٠٢٧، وينظر الحديث برقم /٢٥٨١، ورقم /٦٩٨٨، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٤) يس /٣٨.

(٥) صحيح البخاري، حديث/٤٥٢٥، ٦٩٩٦.

والتصوير والمختبراتُ الوقوفَ عليها وتحديدَها. أما ما ذكره النبي– صلى الله عليه وسلم– فأمر آخر يعلو فوق علم البشر بأجهزتهم ومراصدهم ومختبراتهم، وعِلمُهم قاصر عن الوصول لهذا الأمر وإدراكه، فهو أمر غيبي لو أدركه الخلق لأدركوا معه الكرسي والعرش وغير ذلك مما هو مستحيل عليهم في الدنيا، فهذا الذي توصَّلوا إليه إنما هو القَدْر الذي أذن الله لهم في معرفته وإدراكه، يقول البدر العيني: " فإن قلتَ: قال الله– تعالى–: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(١)، أي: يَدُورُون. قلتُ: دوران الشمس في فَلَكها لا يستلزم مَنْعَ سجودِها في أي موضع أراده الله– تعالى–"(٢)، ثم يقول: " فإن قلتَ: روى مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله– صلى الله عليه وسلم– عن قول الله– تعالى–: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾(٣)، قال: (مُسْتَقَرُّها تحت العرش)– قلتُ: لا يُنْكَرُ أن يكون لها استقرارٌ تحت العرش من حيث لا ندركه ولا نشاهده، وإنما أَخْبَرَ عن غيب فلا نُكذِّبه ولا نُكيِّفه، إنَّ علْمَنا لا يُحيط به "(٤).

وقد أشار الدكتور زغلول النجار إلى هذا الحديث في لقاء مصوَّر (٥)، وبيَّن أنه من الأمور الغيبيَّة غيبا مطلقا، لا دَخْلَ للإنسان بها، وأن هذا خارج عن نطاق الإعجاز العلمي للقرآن الكريم؛ لأن الإعجاز يكون في الأمور الخارقة لما يعرفه الناس، أما هذا الحديث فهو غيب، تقف قدرة الإنسان عن إدراكه، وما عَلِمَه الإنسانُ من حقائق الكون إنما هو شيء محدود ضئيل بالنسبة للكَوْنِ الفسيح الذي لا يحيط بعلمه إلا الله– تعالى–.

الآخر: أن ما جاء في الحديث إنما هو إخبار ممن لا ينطق عن الهوى– صلى الله عليه وسلم– ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾(٦) من عالم الغيب والشهادة، خالق السماوات والأرض وما فيهن من شمس وقمر ونجوم وكواكب وغيرها من مخلوقاته في كونه، من مدبِّر ذلك كله. وما دام الخبر جاء من جهته فهو الفصل الذي ليس بعده قول، ولا قيمة حينئذ لما يقوله علماء الفلك والفضاء وغيرهم، إنما القول ما قال الله– تعالى– وقال رسوله– صلى الله عليه وسلم–، يقول البدر العيني: " فإن قلتَ: أصحاب

(١) يس /٤٠.

(٢)عمدة القاري شرح صحيح البخاري ١١٩/١٥.

(٣) يس /٣٨.

(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ١٢٠/١٥.

(٥) رابط حديث د. زغلول النجار على الشبكة العنكبوتية:

https://www.youtube.com/watch?v=zoKqdX٤cPdU

(٦) النجم /٤.

الهيئة(١) قالوا: الشمس مُرَصَّعة في الفَلَك؛ فإنه يقتضي أن الذي يسير هو الفَلَكُ، وظاهر الحديث أنها هي التي تسير وتجري؟ قلتُ: أمَّا أوَّلًا فلا اعتبار لقول أهل الهيئة عند مصادمة كلام الرسول- صلى الله عليه وسلم-، وكلامُ الرسول- صلى الله عليه وسلم- هو الحق، لا مرية فيه، وكلامهم حدس وتخمين، ولا مانع في قدرة الله- تعالى- أن تخرج الشمس من مجراها وتذهب إلى تحت العرش فتسجد ثم ترجع ... وقال ابن العربي: وقد أنكر قوم سجودَ الشمس، وهو صحيح ممكن. قلتُ: هؤلاء قوم من الملاحدة؛ لأنهم أنكروا ما أخبر به النبي- صلى الله عليه وسلم- وثبت عنه بوجه صحيح، ولا مانع من قدرة الله- تعالى- أن يُمَكِّن كلَّ شيء من الحيوان والجمادات أن يسجد له "(٢).

نعود إلى الحديث، وفيه بيان لعبارة قرآنية قد اختلفت كلمة المفسرين في تحديد المراد بها، وأسوق هنا كلام أبي حيان؛ حيث أتى على معظم ما قال المفسرون في هذه الآية فقال: " ومستقر الشمس بين يدي العرش، تسجد فيه كل ليلة بعد غروبها كما جاء في حديث أبي ذر (ويقال لها: اطلعي من حيث طلعت، فإذا كان طلوعها من مغربها يقال لها: اطلعي من حيث غربت، فذلك حين ﴿ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْرًا ﴾(٣). وقال ابن عباس: إذا غربت وانتهت إلى الموضع الذي لا تتجاوزه استوت تحت العرش إلى أن تطلع. وقال الحسن: للشمس في السنة ثلاثمائة وستون مطلعا، تنزل كل يوم مطلعا، ثم لا تنزل إلى الحول، وهي تجري في فلك المنازل، أو يوم القيامة، أو غيبوبتها؛ لأنها تجري كل وقت إلى حد محدد تغرب فيه، أو أحد مطالعها في المنقلبَيْنِ؛ لأنهما نهايتا مطالعها، فإذا استقر وصولها كَرَّتْ راجعة، وإلا فهي لا تستقر عن حركتها طرفة عين- ونحا إلى هذا ابن قتيبة-، أو وقوفها عند الزوال كل يوم، ودليل استقرارها وقوف ذلك الظلام حينئذ. وقال

(١) يقول التهانوي: " علم الهيئة: هو من أصول الرياضي، وهو علم يُبْحَث فيه عن أحوال الأجرام البسيطة العلويّة والسفليّة من حيث الكميّة والكيفية والوضع والحركة اللازمة لها وما يلزم منها. فالكمية إمّا منفصلة كأعداد الأفلاك، وبعض الكواكب دون أعداد العناصر، فإنها مأخوذة من الطبعيات، وإمّا متّصلة كمقادير الأجرام والأبعاد واليوم وأجزائه، وما يتركّب منها. وأمّا الكيفية فكالشّكل، إذ تتبين فيه استدارةُ هذه الأجسام، وكلون الكواكب وضوئها. وأمّا الوضع فكقُرْب الكواكب وبُعْدها عن دائرة معينة، وانتصاب دائرةٍ وميلانها بالنسبة إلى سمت رءوس سكان الأقاليم، وحيلولة الأرض بين النَّيِّرَيْنِ، والقمرِ بين الشمس والإبصار ونحو ذلك. وأما الحركة فالمبحوث عنه في هذا الفن منها هو قدرها وجهتها. وأمّا البحث عن أصل الحركة وإثباتها للأفلاك فمن الطبعيات. والمراد باللازمة الدائمة على زعمهم، وهي حركات الأفلاك والكواكب ". كشاف اصطلاحات الفنون ٦١/١.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ١١٩/١٥.

(٣) الأنعام /١٥٨.

الزمخشري: بمستقر لها:(١) لِحَدٍّ لها مؤقت مقدر تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة. شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره، أو كمنتهى لها من المشاق والمغارب لأنها تَتَقَصَّاها مشرقا مشرقا، ومغربا مغربا، حتى تبلغ أقصاها، ثم ترجع فذلك حدها ومستقرها؛ لأنها تعدوه، أو لحَدٍّ لها (٢) من مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب. وقيل: مستقرها: محلها الذي أقر الله عليه أمرها في جريها فاستقرت عليه، وهو آخر السنة. وقيل: الوقت الذي تستقر فيه وينقطع جريها، وهو يوم القيامة. وقال أبو عبد الله الرازي: ما ملخصه(٣): في المستقر وجوه في الزمان وفي المكان، ففي الزمان الليل، أو السنة، أو يوم القيامة. وفي المكان: غاية ارتفاعها في الصيف، وانخفاضها في الشتاء، ويجري إلى ذلك الموضع فترجع، أو غاية مشارقها، فلها في كل يوم مشرق إلى ستة أشهر، ثم تعود على تلك المقنطرات، وهذا هو ما تقدم في الارتفاع، فإن اختلاف المشارق سبب اختلاف الارتفاع، أو وصولها إلى بيتها في الأسد أو الدائرة التي عليها حركتها حيث لا تميل عن منطقة البروج على مرور الشمس. ويحتمل أن يقال: تجري مجرى مستقرها فإن أصحاب الهيئة قالوا: الشمس في فلك، والفلك يدور فيُدير الشمس، فالشمس تجري مجرى مستقرها. انتهى"(٤).

وكما اختلفت كلمة أهل التفسير في بيان المراد بمستقر الشمس– اختلفت كلمة شراح الحديث، وأسوق– هنا– كلام أبي سليمان الخطابي حيث يقول: " قلت: قال أهل التفسير وأصحاب المعاني فيه قولين: قال بعضهم: معناه أن الشمس تجري لمستقر لها، أي: لِأَجَلٍ أَجَلٍ أُجِّلَ لها، وقَدَرٍ قُدِّرَ لها، يعني انقطاع مدة بقاء العالم. وقال بعضهم: مستقرها: غاية ما تنتهي إليه في صعودها وارتفاعها لأطول يوم في الصيف، ثم تأخذ في النزول حتى تنتهي إلى أقصى مشارق الشتاء لأقصر يوم في السنة. وأما قوله: (مستقرها تحت العرش) فلا يُنْكَر أن يكون لها استقرار تحت العرش من حيث لا ندركه ولا نشاهده، وإنما هو خبر عن غيب، فلا نكذِّب به ولا نُكَيِّفُه؛ لأن علمنا لا يحيط به. ويحتمل أن يكون المعنى أن علْمَ ما سألتَ عنه من مستقرها تحت العرش في كتاب كُتِبَ فيه مبادئُ أمور العالم ونهاياتُها، والوقت الذي ينتهي إليه مدتها، فينقطع

(١) في الكشاف: " لمستقر لها "، وينظر كلام الزمخشري فيه، ١٦/٤.

(٢) في البحر المحيط " فلذلك حدها ومستقرها لأنها تعدوه أو لا يعدلها "، والتصويب من الكشاف ١٦/٤.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب ٧١/٢٦.

(٤) البحر المحيط ٣٢١/٧. وينظر تفسير الطبري ٥١٦/٢٠، تفسير ابن عطية ٤٥٤/٤، تفسير القرطبي ٢٧/١٥، تفسير ابن كثير ٥٧٦/٦، التحرير والتنوير ١٩/٢٣.

دوران الشمس وتستقر عند ذلك، فيبطل فعلها، وهو اللوح المحفوظ الذي يُبَيَّن فيه أحوالُ الخلق والخليقة وآجالهم ومآل أمورهم، والله أعلم بذلك "(١).

ثم يقول: " وفي هذا إخبار عن سجود الشمس تحت العرش، فلا ينكر أن يكون ذلك عند محاذاتها العرش في مسيرها، والخبر عن سجود الشمس والقمر لله- عز وجل- قد جاء في الكتاب، قال- سبحانه-: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ ﴾(٢) الآية، وليس في هذا إلا التصديق والتسليم، وليس في سجودها لربها تحت العرش ما يعوقها عن الدَّأْب في سيرها، والتصرف لما سخرت له. سبحان الذي أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، وتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين "(٣).

والعجب كل العجب أن نجد اختلافا بين المفسرين في بيان معنى جريان الشمس لمستقرها، بل الأعجب منه اختلاف شراح الحديث؛ ذلك أن المفسرين قد يغيب عن بعضهم بعضُ ما ذكره النبي- صلى الله عليه وسلم- في هذا المعنى- وإن كان الأمر بعيدا-، أما شراح الحديث فأنى لهم الاختلاف وهم يشرحون النص النبوي ؟! وهل بعد كلام النبي- صلى الله عليه وسلم- وبيانه كلام أو بيان ؟!

وغاية ما في الأمر أن للشمس مستقَرَّيْنِ: مستقَرًّا مكانيًّا وهو تحت العرش، ومستقَرًّا زمانيا وهو يوميٌّ، حيث تذهب الشمس فتسجد تحت عرش الرحمن- تعالى-، وصيغة (مُسْتَقَرٌّ)صالحة لأن تكون اسم مكان وتكون اسم زمان(٤)، وكلاهما من الفعل السداسي (استقرَّ) بمعنى (قَرَّ في المكان وثبت)، يقول الراغب: " قَرَّ في مكانه يَقِرُّ قَرَاراً، إذا ثبت ثبوتا جامدا، وأصله من القُرِّ، وهو البرد، وهو يقتضي السُّكونَ، والحرُّ يقتضي الحركة ... واسْتَقَرَّ فلان: إذا تحرَّى الْقَرَارَ، وقد يُستعمل في معنى قَرَّ، كاستجاب وأجاب "(٥)، و(استقر) هنا بمعنى الثلاثي (قَرَّ)، ومجيء (استفعل) بمعنى (فَعَلَ) هو من المعاني التي تأتي عليها هذه الصيغة الدالة على الطلب غالبا، يقول ابن الحاجب: "(استفعل) للسؤال غَالِبا، إِمَّا صَرِيحًا نَحْو اسْتَكْتَبْتُهُ،

(١)أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) ١٨٩٢/٣.

(٢) الحج /١٨.

(٣) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) ١٨٩٤/٣، وينظر: إكمال المعلم٤٧٦/١، الكواكب الدراري ٦٢/١٨، ١٩/٢٣، فتح الباري لابن حجر ٢٩٩/٦، ٥٤١/٨، عمدة القاري ١١٩/١٥، إرشاد السارس ٢٥٩/٥، ٣١٢/٧، فيض الباري للكشميري ٤٠٦/٤، ٣٦٨/٥.

(٤) ينظر معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر ١٧٩٦/٣.

(٥) المفردات (قرر).

أَو تَقْديرا نَحْو استخرجته، وللتحوُّل نَحْو استحجر الطينُ ... وبمعنى (فَعَلَ)، نَحْو قَرَّ واسْتَقَرَّ "(١).

(ثبت) القول الثابت

عن البراء بن عازب أن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– قال: (المسلمُ إذا سُئلَ في القَبْرِ يَشْهَدُ أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمَنوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ في الحياةِ الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ ﴾(٢))(٣).

في هذا الحديث يبيِّن النبي– صلى الله عليه وسلم– أن المراد بالقول الثابت في الآية الكريمة إجابةُ المسلمِ للمَلَك في القبر بالشهادتين، وهذا من المعاني الإسلامية المرتبطة بعقيدة التوحيد، والبيان هنا كان من النبي– صلى الله عليه وسلم– دون سؤال أو طلب من أحد، وهو بيان تركيبي (صفة وموصوف)، فليس البيان للقول وحده، ولا للثابت وحده، وإنما البيان لتركيبهما معا (القول الثابت).

ويكاد المفسرون يُجْمِعون على تفسر (القول الثابت) بشهادة التوحيد، سواء جمعوا معها الشهادة بالرسالة أم أفردوا شهادة التوحيد بالذكر، وإن اختلفوا في المراد بالحياة الدنيا، أيكون ذلك قبل الموت أم بعده في القبر ؟

واختلافهم هذا عجيب، وأعجب منه ما ورد عند بعضهم من ذكر معنى آخر للقول الثابت، يقول الماوردي: " وفي قوله: (بالقول الثابت) وجهان: أحدهما: أنه الشهادتان، وهو قول ابن جرير. الثاني: أنه العمل الصالح. ويحتمل ثالثا: أنه القرآن "(٤)، فجعل القول الثابتَ العملَ الصالحَ أو القرآنَ.

وجعله الطاهر ابن عاشور الكلامَ الصادقَ، وهو القرآن فقال: " والقول: الكلام. والثابت: الصادق الذي لا شك فيه. والمراد به أقوال القرآن؛ لأنها صادقة المعاني واضحة الدليل، فالتعريف في القول لاستغراق الأقوال الثابتة. والباء في (بالقول) للسببية. ومعنى تثبيت الذين آمنوا بها أن الله يسر لهم فَهْمَ (٥) الأقوال الإلهية على

(١) الشافية في علم التصريف ٢١/٢.

(٢) إبراهيم /٢٧.

(٣) صحيح البخاري، حديث /٤٤٢٢.

(٤) النكت والعيون، للماوردي ١٣٥/٣، وينظر تفسير العز بن عبد السلام ١٦٥/٢.

(٥) في الأصل (فيهم).

وجهها، وإدراكَ دلائلها؛ حتى اطمأنت إليها قلوبهم، ولم يخامرهم فيها شك، فأصبحوا ثابتين في إيمانهم غير مزعزعين، وعاملين بها غير مترددين"(١).

فهنا نجد ثلاثة تفسيرات (العمل الصالح- القرآن- الكلام الصادق(٢))، وهي تفسيرات تصلح في غير هذا الموضع؛ ذلك أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قضى في هذا اللفظ وحكم في معناه، وليس بعد كلام النبي- صلى الله عليه وسلم- كلام، فالقول الثابت في الآية هو الشهادتان، والمراد بالحياة الدنيا القبرُ عند السؤال.

(قوم) إقامة الوزن

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: (إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العظيمُ السَّمِينُ يومَ القيامة لا يَزِنُ عند الله جَنَاحَ بَعُوضَة). وقال: اقْرَؤُوا إِن شِئْتُمْ ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْنًا ﴾(٣))(٤).

في هذا الحديث يفسِّر النبي- صلى الله عليه وسلم- قول الله تعالى- : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْنًا ﴾ من خلال صورة تمثيلية لمشهد من مشاهد يوم القيامة، ذلك أن الرجل الضخم العظيم السمين يأتي يوم القيامة وقد كفر بآيات الله ولقائه، فإذا به تافهٌ حقير القدر، لا يَزِنُ عند الله- تعالى- جناح بعوضة، وفي هذا بيان لإقامة الوزن، وهو بيان شرعي لهذه العبارة القرآنية.

وفي تفسير الآية يقول ابن عطية: " وقوله: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْنًا ﴾ يُحتمَل أن يريد أنه لا حسنة لهم تُوزن في موازين القيامة، ومَنْ لا حسنة له فهو في النار لا محالة. ويُحتمَل أن يريد المجاز والاستعارة، كأنه قال: فلا قدر لهم عندنا يومئذ، فهذا معنى الآية عندي، وروى أبو هريرة عن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: (يُؤْتَى بِالْأَكُولِ الشَّرُوبِ الطَّوِيلِ فلا يَزِنُ بَعُوضَةً) ثم قرأ ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْنًا ﴾(٥)، ونحو هذا ذكر القرطبي.

وقد ورد النص القرآني في سياق بيان حُبوط أعمال الكافرين بآيات الله ولقائه، يقول الله- تعالى-: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٦/١٣.

(٢) الكلام الصادق هو القرآن أيضا، لكني أفردته بالذكر وجعلته قولا ثالثا أخذا من ألفاظ الشيخ ابن عاشور.

(٣) الكهف /١٠٥.

(٤) صحيح البخاري، حديث/٤٤٥٢.

(٥) المحرر الوجيز ٥٤٥/٣، وينظر تفسير القرطبي ٦٦/١١. ورواية الحديث هذه في الجامع لشعب الإيمان للبيهقي (حديث /٥٢٨٢) بلفظ: (ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكول الشروب، فلا يزن عند الله- عز وجل- جناح بعوضة، اقْرَؤُوا إن شِئْتُمْ ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْنًا ﴾ ٤٦١/٧.

الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾(١)، وهذا السياق يحتمل المعنيين اللذين ذكرهما ابن عطية والقرطبي، لكن النبي– صلى الله عليه وسلم– وَجَّه المعنى إلى واحد منهما، وهو أنه لا قَدْرَ لهؤلاء الكافرين بآيات ربهم ولقائه، ولا قيمة لهم في الآخرة، وإن كان الوحد منهم أكولا شروبا، ضخم الجثة سمينا، عظيم الجاه والمكانة عند الناس، وما دام النبي– صلى الله عليه وسلم– بيَّن المراد على هذا النحو فلا محلَّ ولا احتمال للمعنى الأول الذي ذكره ابن عطية والقرطبي، وهو (أنه لا حسنة لهم تُوزن في موازينهم)، والقول ما قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–.

ويُعلِّق الطيبي على الحديث فيقول: " قوله: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ فإن قلت: كيف وَجْهُ صحةِ الاستشهاد بالآية، فإن المراد بالوزن في الحديث وزن الجثة ومقداره لقوله: (العظيم السمين)، وفي الآية: إما وزن الأعمال لقوله تعالى: ﴿فحبطت أعمالهم ﴾، وإما مقدارهم، والمعنى نزدري بهم ولا يكون لهم عندنا وزن ومقدار؟ قلت: الحديث من الوجه الثاني على سبيل الكناية، وذِكْرُ الجثة والعظَم لا ينافي إرادة مقداره وتفخيمه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ (٢) ﴾(٣).

ويقول يحيى بن هُبَيْرة في تعليقه على الحديث: " اعلم أن أوزان القيامة إنما تثقل بالمعاني لا بالصُّوَر؛ فإذا كان صاحبَ جثة وليس فيه من معاني الإيمان ما يُثْقِلُ الميزان لم يكن له وزن "(٤)، ويقول الكوراني: "(لا يزن عند الله جناح بعوضة) كناية عن عدم الاعتداد به، والظاهر أنَّه أراد السِّمَنَ حقيقة، ويجوز أن يكون مجازًا عن الرفعة والجاه "(٥)، وهذا الكلام يتماشى مع الاستعمال العربي، يقول الأزهري: " قال الله– جل وعز–: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ قال أبو العباس: قال ابن الأعرابي: العرب تقول: ما لِفُلانٍ عندنا وَزْنٌ، أي: قَدْرٌ؛ لِخِسَّتِه. وقال غيره: معناه: خِفَّةُ موازينهم من الحسنات "(٦).

---

(١) الكهف /١٠٣ : ١٠٥.

(٢) المنافقون /٤.

(٣) شرح المشكاة للطيبي ١١/ ٣٥٠٣.

(٤) الإفصاح عن معاني الصحاح ٦/ ٣٠٥.

(٥) الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري ٨/ ١٨٦.

(٦) التهذيب (وزن).

(كثر) **الكَوْثَر**

عن أنس- رضي الله عنه- قال: لما عُرِجَ بالنَّبيِّ- صلى الله عليه وسلم- إلى السماء قال: (أَتَيْتُ على نَهَرٍ حافَتَاهُ قِبابُ اللؤْلُؤِ مَجوَّفًا، فقلتُ: ما هذا يا جبريل ؟ قال: هذا الكَوْثَرُ)(١).

حدثنا أبو الوليد حدثنا همام عن قتادة عن أنس عن النبي- صلى الله عليه وسلم-، وحدثنا هدبة بن خالد حدثنا همام حدثنا قتادة حدثنا أنس بن مالك: عن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: (بَيْنَمَا أنا أَسِيرُ في الجَنَّة إذا أنا بنَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ المجَوَّف، قلت: ما هذا يا جبريل ؟ قال: هذا الكَوْثَرُ الذي أَعْطَاكَ رَبُّكَ، فإذا طِينُهُ أَوْ طِيبُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ). شَكَّ هُدْبَةُ (٢).

في هذا الحديث يبيِّن النبي- صلى الله عليه وسلم- أن المراد بالكوثر المذكور في قول الله- تعالى-: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾(٣)- نهر من أنهار الجنة، ويصفه في الرواية الأولى بأن حافَتَيْه من قباب اللؤلؤ المجوَّف، وفي الرواية الثانية يصفه بأن حافَتَيْه من قباب الدُّرِّ المجوَّف، وأن طينه أو طيبه (الشك من الراوي هُدْبة بن خالد) مسك أذْفَر بلغ الغاية في الجودة.

وإذا رجعنا إلى أصل الاستعمال اللغوي وجدنا الكوثر تدل على الكثرة عموما، يقول ابن سيده: " الكوثر: الكثير من كل شيء "(٤)، ويقول أبو البقاء الكفوي: " الْكَوْثَر : كل شيء كثيرٍ في العَدَد أو كبيرٍ في القَدْر والخَطَر فإن العرب تُسَمِّيه كَوْثَرًا "(٥). فأصل الكلمة (كثر) الواو فيها زائدة للإلحاق، يقول ابن يعيش: " واعلم أن الزيادة على ثلاثة أضرب: زيادة معنى، وزيادة إلحاق بناء ببناء، وزيادة بناء فقط لا يراد بها شيء مما تقدم ... وأمّا زيادةُ إلحاق فنحو الواو في (كَوْثَرٍ)، و(جَوْهَرٍ)، أَلْحَقَتِ الواوُ الكلمةَ بـــ (جَعْفَرٍ)، و(دَحْرَجَ)"(٦)، لكن ابن فارس جعل الواو زائدة للمبالغة في الوصف فقال: " الكاف والثاء والراء أصل صحيح يدل خلاف القِلَّة. من ذلك الشيء الكثير، وقد كَثُرَ. ثم يُزاد فيه للزيادة في النعت فيقال: الكوثر: الرجل المعطاء. وهو

(١) صحيح البخاري، حديث/٤٦٨٠.
(٢) صحيح البخاري، حديث/٦٢١٠.
(٣) الكوثر /١.
(٤) المحكم (كثر).
(٥) الكليات /٧٤٢.
(٦) شرح المفصل للزمخشري، لابن يعيش ٣١٧/٥.

فَوْعَلٌ من الكثرة "(١)،ويقول الزمخشري: " والكَوْثَر: فَوْعَلٌ من الكَثْرَة، وهو المفْرِطُ الكَثْرَة "(٢)، فمع زيادتاها للإلحاق أفادت معنى زائدا على الأصل وهو الزيادة في النعت، أي المبالغة فيه، فالغالب في زيادة الإلحاق عدمُ زيادة المعنى، لكن ذلك غير مطَّرِد في جميعه؛ إذ قد يُفيد الإلحاق زيادة في المعنى كما ذكر الرضيُّ إذ يقول: "وفائدة الإلحاق أنه ربما يُحتاج في تلك الكلمة إلى مثل ذلك التركيب في شِعْرٍ أو سجع، ولا نُحتِّم بعدم تَغَيُّرِ المعنى بزيادة الإلحاق على ما يُتَوَهَّمُ، كيف وإن معنى حَوْقَلَ مخالفٌ لمعنى حَقِلَ، وشَمْلَلَ مخالفٌ لشَمِلَ معنى، وكذا كَوْثَرٌ ليس بمعنى كَثُرَ؟ بل يكفي أن لا تكون تلك الزيادة في مثل ذلك الموضع مطردة في إفادة معنى "(٣)، فجعل الفيصل في الإلحاق عدمَ اطرادِ الزيادة في هذا الموضع، وليس عدمَ إفادة المعنى.

وإذا رجعنا إلى المراد بالكوثر في قول الله– تعالى–:﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾(٤)– وجدنا عند كثير من المفسرين وشرَّاح الحديث وأصحاب المعاجم معاني متعددة لهذه اللفظة القرآنية؛ ذلك أن الكلمة– كما سبق في نص الكفوي– تُستعمَل في (كل شيء كثيرٍ في العَدَد أو كبيرٍ في القَدْر والخَطَر)، يقول الأزهري: " قال الفراء: قال ابن عباس: الكوثر هو الخير الكثير. قلت: وقد روى ابن عمر وأنس بن مالك عن النبي– صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (الكوثر: نهر في الجنة أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل على حافتيه قباب الدر المجوف)(٥)، والكوثر: فَوْعَلٌ من الكثرة، ومعناه الخير الكثير، وجاء في التفسير أن الكوثر الإسلام، والنبوة، وجميع ما جاء في تفسير الكوثر قد أُعطي النبيُّ– صلى الله عليه وسلم– أُعطي النبوة، وإظهار الدين الذي بعث به على كل دين، والنصر على أعدائه، والشفاعة لأمته، وما لا يحصى من الخير، وقد أُعطي من الجنة على قدر فضله على أهل الجنة. أبو عبيد عن الفراء : الكوثر: الرجل الكثير العطاء والخير ... وقال أبو عبيدة: قال عبد الكريم أبو أمية: قالت عجوز: قدم فلان بكَوْثَرٍ كَثيرٍ، وهو فَوْعَلٌ من الكَثْرة، ويقال للغبار إذا سطع وكثر: كَوْثَرٌ "(٦)، فهذه

(١) المقاييس (كثر).
(٢) تفسير الزمخشري ٨٠٦/٤.
(٣) شرح الشافية ٥٢/١.
(٤) الكوثر /١.
(٥) الحديث عند أحمد برقم /٥٣٥٥، ولفظه: " عن ابن عمر قال: قال لنا رسول الله– صلي الله عليه وسلم– : (الكوثر نهر في الجنة، حافتَاه من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل)".
(٦) التهذيب (كثر)، وينظر التركيب في المحكم، اللسان، التاج.

معان متعدد للفظ (الكوثر)، وكلها ترجع إلى الأصل اللغوي لتركيب (كثر)، وهو "زيادة عدد أفراد الشيء بالنسبة للمعتاد أو المتوقَّع. وهي الكثرة ضد القلة "(١).

أما أهل التفسير فتعددت كلماتهم في بيان معنى الكوثر في الآية، وأسوق- هنا- كلام القرطبي الذي جمع ستة عشر قولا في بيان المراد به، حتى يكاد يكون أتى على ما قيل فيه، فقال: " واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطيه النبي- صلى الله عليه وسلم- على ستة عشر قولا: الأول: أنه نهر في الجنة، رواه البخاري عن أنس والترمذي أيضا ... الثاني: أنه حوض النبي- صلى الله عليه وسلم- في الموقف، قاله عطاء. وفي صحيح مسلم (٢)... والأخبار في حوضه في الموقف كثيرة ... ثم يجوز أن يُسَمَّى ذلك النهر أو الحوض كوثرا لكثرة الواردة والشاربة من أمة محمد- عليه السلام- هناك. ويُسَمَّى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير. الثالث: أن الكوثر النبوة والكتاب، قاله عكرمة. الرابع: القرآن، قاله الحسن. الخامس: الإسلام، حكاه المغيرة. السادس: تَيْسِيرُ القرآن وتخفيف الشرائع، قاله الحسين بن الفضل. السابع: هو كثرة الأصحاب والأمة والأشياع، قاله أبو بكر بن عياش ويمان ابن رئاب. الثامن: أنه الإيثار، قاله ابن كيسان. التاسع: أنه رفعة الذكر. حكاه الماوردي. العاشر: أنه نور في قلبك دَلَّكَ عليَّ، وقطعك عما سواي. وعنه: هو الشفاعة، وهو الحادي عشر. وقيل: معجزات الرَّبِّ، هُدِيَ بها أهلُ الإجابة لدعوتك، حكاه الثعلبي، وهو الثاني عشر. الثالث عشر: قال هلال بن يساف: هو لا إله إلا الله محمد رسول الله. وقيل: الفقه في الدين. وقيل: الصلوات الخمس، وهما الرابع عشر والخامس عشر. وقال ابن إسحاق: هو العظيم من الأمر، [وهذا هو السادس عشر] ... قلت: أصحُّ هذه الأقوال الأولُ والثاني؛ لأنه ثابت عن النبي- صلى الله عليه وسلم- نَصٌّ في الكوثر ... وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أُعْطِيَهُ رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم- زيادة على حوضه، صلى

(١) المعجم الاشتقاقي (كثر).

(٢) الحديث في صحيح مسلم برقم /٤٠٠، ولفظه : عن أنس، قال: بينا رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم- ذات يوم بين أَظْهُرِنَا إذ أَغْفَى إِغْفَاءَةً، ثم رفع رأسه متبسما، فقلنا: ما أَضْحَكَكَ يا رسول الله؟ قال: (أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سورةٌ، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾، ثم قال: أَتَدْرُونَ ما الكَوْثَرُ ؟)، فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنه نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي- عَزَّ وجَلَّ-، عليه خَيْرٌ كثيرٌ، هو حَوْضٌ تَرِدُ عليه أُمَّتِي يوم القيامة، آنِيَتُهُ عَدَدُ النجوم، فَيُخْتَلَجُ العَبْدُ منهم، فأقول: رَبِّ، إنه من أُمَّتِي، فيقول: ما تَدْرِي ما أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ).

الله عليه وسلم تسليما كثيرا "(١)، وذكر غير واحد من شراح الحديث هذه المعاني أو بعضها، كابن الجوزي وابن حجر والبدر العيني والقسطلاني (٢).

وأختم بتفسير ابن عباس الذي رواه البخاري حيث قال: " حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْمٌ، حدثنا أبو بِشْرٍ عن سعيد بن جُبَيْرٍ عن ابن عباس– رضي الله عنهما– أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة ؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه "(٣)، فهذه الرواية عن ابن عباس– رضي الله عنهما– لا تخصُّ الكوثر بالنهر الذي في الجنة، وإنما تجعله داخلا فيما أُعْطِي النبي– صلى الله عليه وسلم–.

وفي مقابل رواية ابن عباس هذه نجد رواية أم المؤمنين السيدة عائشة– رضي الله عنها– التي أخرجها البخاري– أيضا– " عن أبي عبيدة عن عائشة– رضي الله عنها– قال: سألتُها عن قوله– تعالى–: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾(٤). قالت: نهر أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُم – صلى الله عليه وسلم–،شاطِئاهُ عليه دُرٌّ مُجَوَّفٌ، آنِيَتُهُ كعَدَدِ النُّجُومِ "(٥)، فهذ الرواية عن أم المؤمنين– رضي الله عنها– ترجع بنا إلى حديث الباب، وأنه نهر في الجنة.

وقد حاول ابن حجر التوفيق بين رواية أم المؤمنين وابن عباس– رضي الله عنهم– وتعليق ابن جبير فقال: " هذا تأويل من سعيد بن جبير، جمع به بين حديثي عائشة وابن عباس، وكأن الناس الذين عناهم أبو بشر أبو إسحاق وقتادةُ ونحوُهما ممن روى ذلك صريحا أن الكوثر هو النهر ... وحاصل ما قاله سعيد بن جبير أن قول ابن عباس: إنه الخير الكثير– لا يخالف قول غيره إن المراد به نهر في الجنة؛ لأن النهر فرد من أفراد الخير الكثير، ولعل سعيدا أَوْمَأَ إلى أن تأويل ابن عباس أولى لعمومه "(٦)، وقريبا من هذا قال البدر العيني والقسطلاني(٧).

---

(١) تفسير القرطبي ٢١٦/٢٠، وينظر تفسير الطبري ٦٤٥/٢٤، الكشف والبيان للثعلبي ٣٠٨/١٠، الهداية لمكي ٤٤٦٧/١٢، الوسيط للواحدي ٥٦٠/٤، المحرر الوجيز ٥٢٩/٥، تفسير العز بن عبد السلام ٤٩٦/٣.

(٢) ينظر على الترتيب: كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي ٤١٣/٢، فتح الباري لابن حجر ٧٣١/٨، عمدة القاري للعيني ٣/٢٠، إرشاد الساري للقسطلاني ٤٣٥/٧.

(٣) صحيح البخاري، حديث/٤٦٨٢، وحديث /٦٢٠٧.

(٤) الكوثر /١.

(٥) صحيح البخاري، حديث/٤٦٨١.

(٦) فتح الباري ٧٣٢/٨.

(٧) عمدة القاري للعيني ٤/٢٠، إرشاد الساري للقسطلاني ٤٣٥/٧.

بعد عرض هذه الأقوال في الكوثر نستطيع أن نقطع بأن المراد به في سورة الكوثر – النهر الموصوف في حديث الباب، وذلك لأسباب:

الأول: أنه نَصٌّ من النبي– صلى الله عليه وسلم–، فلا ينبغي الذهاب إلى غيره، وإن كان اللفظ يحتمله.

الثاني: أن هذا الحديث ليس الوحيد الذي ورد عن النبي– صلى الله عليه وسلم– في الدلالة على أنه نهر في الجنة؛ فقد روى البخاري في قصة المعراج من حديث أنس بن مالك– رضي الله عنه– ذاكرا بعض ما رأى النبي– صلى الله عليه وسلم– ومعه جبريل– عليه السلام– في السماء الدنيا، قال أنس: " ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قَصْرٌ من لؤلؤ وزبرجد، فَضَرَبَ يَدَهُ فإذا هو مِسْكٌ أَذْفَرُ، قال: (ما هذا يا جبريل ؟) قال: هذا الكوثر الذي خَبَأَ لَكَ رَبُّكَ "(١).فهذه الرواية نصٌّ من جبريل – عليه السلام– أنه نهر في الجنة.

الثالث: ما رواه أنس بن مالك وعبد الله بن عمر– رضي الله عنهم– من ربط بين نزول سورة الكوثر وبيان النبي– صلى الله عليه وسلم– للمراد به، أما حديث أنس فقد روى عنه أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه– واللفظ له أنه قال: " بينا رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم– ذات يوم بين أَظْهُرِنَا إذ أَغْفَى إِغْفَاءةً، ثم رفع رأسه متبسما، فقلنا: ما أَضْحَكَكَ يا رسول الله؟ قال: (أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سورةٌ، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾، ثم قال: أَتَدْرُونَ ما الكَوْثَرُ ؟)، فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنه نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي– عَزَّ وجَلَّ–، عليه خَيْرٌ كثيرٌ، هو حَوْضٌ تَرِدُ عليه أُمَّتِي يوم القيامة، آنِيَتُهُ عَدَدُ النجوم، فَيُخْتَلَجُ العَبْدُ منهم، فأقول: رَبِّ، إنه من أُمَّتِي، فيقول: ما تَدْرِي ما أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ)"(٢).

وأما حديث ابن عمر فقد أخرج أحمد في مسنده قال: " حَدَّثَنَا مُؤَمَّلٌ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ يَعْنِي ابْنَ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ قَالَ: قَالَ لِي مُحَارِبُ بْنُ دِثَارٍ: مَا سَمِعْتَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يَذْكُرُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْكَوْثَرِ؟ فَقُلْتُ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا الْخَيْرُ الْكَثِيرُ، فَقَالَ مُحَارِبٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَقَلَّ مَا يَسْقُطُ لِابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلٌ، سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: لَمَّا أُنْزِلَتْ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– : (هُوَ نَهَرٌ فِي الْجَنَّةِ، حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، يَجْرِي عَلَى جَنَادِلِ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، شَرَابُهُ أَحْلَى

(١) صحيح البخاري، حديث/٧٠٧٩.

(٢)صحيح مسلم، حديث/٤٠٠، ومسند أحمد، حديث/١١٩٩٦.

مِنَ الْعَسَلِ، وَأَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ) قَالَ: صَدَقَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَذَا وَاللَّهِ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ "(١)، فهذه الرواية وإن كانت تُقِرُّ تفسير ابن عباس– رضي الله عنهما– إلا أنها شاهد على الربط بين نزول سورة الكوثر وبيان النبي– صلى الله عليه وسلم– له بأنه نهر في الجنة.

الرابع: ما مضى من تفسير أم المؤمنين السيدة عائشة– رضي الله عنها– وقد سُئِلت عن الكوثر فقالت: " نهر أُعْطِيَهُ نَبِيُّكم– صلى الله عليه وسلم–".

الخامس: ما ورد من أقوال لأهل التفسير وشراح الحديث تختار أنه نهر بالجنة؛ لأن النصوص أثبتت هذا، من ذلك ما يلي:

١– قول الطبري: " وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي، قول من قال: هو اسم النهر الذي أُعْطِيَهُ رسولُ الله– صلى الله عليه وسلم– في الجنة، وَصَفَهُ اللهُ بالكثرة لعظم قدره. وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك لتتابع الأخبار عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بأن ذلك كذلك"(٢).

٢– قول ابن الجوزي: " ولا ينبغي أن يعتمد إلا على القول الأول [النهر]؛ لأنه إذا صح الحديث عن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– لم يبق لقائل قول "(٣).

٣– قول القرطبي: " قلت: أصحُّ هذه الأقوال الأولُ والثاني [النهر والحوض]؛ لأنه ثابت عن النبي– صلى الله عليه وسلم– نَصٌّ في الكوثر ... وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أُعْطِيَهُ رسولُ الله– صلى الله عليه وسلم– زيادة على حوضه، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا "(٤).

٤– قول ابن حجر: " وحاصل ما قاله سعيد بن جبير أن قول بن عباس إنه الخير الكثير لا يخالف قول غيره إن المراد به نهر في الجنة؛ لأن النهر فرد من أفراد الخير الكثير، ولعل سعيدا أومأ إلى أن تأويل ابن عباس أولى لعمومه، لكن ثبت تخصيصه بالنهر من لفظ النبي– صلى الله عليه وسلم– فلا معدل عنه "(٥).

٥– قول القسطلاني: " وهذا تأويل من سعيد جمع به بين حديثي عائشة وابن عباس –رضي الله عنهم– فلا تنافي بينهما؛ لأن النهر فرد من أفراد الخير الكثير. نعم

(١)مسند أحمد، حديث/٥٩١٣.

(٢)تفسير الطبري ٦٤٩/٢٤.

(٣)كشف المشكل من حديث الصحيحين ٢/ ٤١٣.

(٤) تفسير القرطبي ٢١٨/٢٠.

(٥) فتح الباري ٧٣٢/٨.

ثبت التصريح بأنه نهر من لفظ النبي –صلى الله عليه وسلم- ... فالمصير إليه أولى "(١).

فهذه جملة من أقوال الأثبات من أهل التفسير وشراح الحديث تُلزِمنا القطع بأن الكوثر هو النهر الذي وُعِدَهُ النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- في الجنة، وكلام النبي- صلى الله عليه وسلم- على هذا، وكلامه فوق كل كلام.

(وسط) الوَسَط

عن أبي سعيد [الخُدْرِيِّ] قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: (يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللهُ- تَعَالَى-: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لأُمَّتِه: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لاَ، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ- صَلى الله عَلَيه وسَلمَ- وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ- جَلَّ ذِكْرُهُ-: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾(٢)، وَالوَسَطُ: العَدْلُ)(٣).

وفي رواية أخرى عنه- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: (يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ شُهُودُكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ- الله صَلى الله عَلَيه وسَلمَ- ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، قَالَ: عَدْلاً: ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (٤)﴾(٥).

مع الاختلاف في الألفاظ المصوِّرة لهذا المشهد المهيب يوم القيامة فإن الذي يعنينا- هنا- بيانُ النبي- صلى الله عليه وسلم- للمراد بالوصف بالوسطية في قول الله- تعالى-: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، حيث ذكر أن الوسط هو العدل، وفي هذا شهادة من الله- تعالى- لأمته- صلى الله عليه وسلم- بالعدالة، وهو وصف يستلزمه موقفُ القضاء والشهادة في الدنيا، فما البال بالآخرة.

وإذا جئنا لأصل الاستعمال اللغوي وجدنا العدل معنى أصيلا للوصف بالوسطية، يقول ابن فارس: " الواو والسين والطاء بناء صحيح يدل على العدل والنِّصف. وأَعْدَلُ

---

(١) إرشاد الساري ٧/ ٤٣٥.

(٢) البقرة /١٤٣.

(٣) صحيح البخاري، حديث /٣١٦١، ورد الحديث مرة أخرى برقم /٤٢١٧، مع اختلاف في بعض الألفاظ لا يؤثر على المقصد من إيراده.

(٤) البقرة /١٤٣.

(٥) صحيح البخاري، حديث /٤٢١٧.

الشيءِ: أَوْسَطُه ووَسَطُه "(١)، ويقول الدكتور جبل مبينا المعنى المحوري لتركيب (وسط): " المعنى المحوري كونُ الشيءِ مُكْتَنَفًا من حَوَالَيْهِ أو آخذًا منهما بالتساوي امتدادًا أو قدرًا ... ومن هذا استعمالُ التركيب في ما بين الغايتين ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾(٢)، الوَسَطِيَّة هنا قيل: في القَدْر، وقيل: في الصِنف، وقيل: فيهما ... ومن ذلك الأصل استُعملت في التعبير عن خير ما في الشيء، فوسَط الشيء هو أَصْوَنُه وأَبْعَدُه عن الابتذال، وهو أيضًا لُبّ الشيء. وتحققت هذه الملاحظ في ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾(٣) عدولًا– أخذًا من التوازن بين الناحيتين، خيارًا كما قال– تعالى–: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ(٤)﴾"(٥).

فالوسط ما يكون مُكْتَنَفًا بين طرفين بالتساوي بينهما، فليس إلى أحد الجانبين يميل، فكلٌّ واحد من الجانبين كالعِدْل(٦)، تساوَى مع صاحبه، يقول أبو هلال العسكري: "والوَسَط يقتضي اعتدال الأطراف إليه؛ ولهذا قيل: الوَسَطُ العَدْلُ في قوله– تعالى–: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ "(٧)، ويقول أبو علي القالي: " والوَسَط من الناس وغيرهم ومن كل شيء أَعدَلُه وأفضله، ليس بالغالي ولا المقصِّر "(٨)، فهو وَسَطٌ بين طرفَي المعادلة، لا يميل لأحدهما، يقول الزمخشري: " الوسط: عَدْلٌ بين الأطراف، ليس إلى بعضها أقرب من بعض "(٩)، وقد ذهب كثير من المعجميين(١٠) إلى أن الوسط معناه العَدْل، وأن هذا هو المراد به في وصف الأمة بالوسطية في الآية الكريمة.

فإذا ما جئنا إلى أهل التفسير وشراح الحديث وجدنا كثيرا منهم فسَّر الوسط في الآية بالعدل، واستند بعضهم في تحديد هذا المعنى بحديث الباب، من هؤلاء مجاهد ومقاتل بن سليمان وسفيان الثوري والطبري ومكي بن أبي طالب والقرطبي وغيرهم،

---

(١) المقاييس (وسط).

(٢) المائدة /٨٩.

(٣) البقرة /١٤٣.

(٤) آل عمران /١١٠.

(٥) المعجم الاشتقاقي (وسط).

(٦) العِدْل واحد العِدْلين، وهما حِمْلا الدابة، سُمِّيا بذلك لتساويهما. ينظر المقاييس (عدل).

(٧) الفروق اللغوي /٣٠٨.

(٨) البارع في اللغة (وسط).

(٩) الكشاف ١٩٩/١.

(١٠) ينظر تركيب (وسط) في التهذيب والبارع والصحاح والمحكم واللسان والقاموس والتاج.

يقول مقاتل: " ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾؛ وذلك أن اليهود منهم مرحبٌ ورافعٌ وربيعةُ قالوا لمعاذ: ما ترك محمد قِبْلَتَنا إلا حَسَدًا، وإن قِبْلَتَنا قِبْلَةُ الأنبياء، ولقد عَلِمَ محمدٌ أَنّا عَدْلٌ بين الناس. فقال معاذ: إنَّا على حَقٍّ وعَدْلٍ، فأنزل اللَّه- عَزَّ وَجَلّ- في قول معاذ ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ يعني وهكذا ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ يعني عدلا، نظيرها في (ن والقلم) قوله- سبحانه-: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾(١) يعني أعدلهم، وقوله- سبحانه-: ﴿ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾(٢) يعني أعدل، فقول اللَّه: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾، يعني أمة محمد تشهد بالعدل في الآخرة بين الْأَنْبِيَاء وَبَيْنَ أممهم "(٣).

وقد جمع إلى الوصف بالعدل الوصفَ بالخيرية غيرُ واحد من المفسرين وشراح الحديث، يقول الثعلبي: " ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾: عدلا خيارا. تقول العرب: انزل وسط الوادي: أي تخيّر موضعا فيه، ويقال لرسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- هو وسط قريش نسبا: أي خيرهم: قال الله تعالى-: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾، أي أخيرهم وأعدلهم، وأصله هو أنّ خير الأشياء أوسطها ... وقال الكلبي: يعني متوسطة، أهل دين وسط بين الغلو والتقصير؛ لأنّهما مذمومان في الدّين "(٤).

وقد حاول الزجاج التوفيق بين الوصفين (الخيرية والعدل) فقال: " وفي ﴿ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ قولان: قال بعضهم: وسطا: عدلا. وقال بعضهم: أخيارا، واللفظان مختلفان والمعنى واحد؛ لأن العدل خير، والخير عدل "(٥)، فكل من الصفتين تفضي إلى صاحبتها.

ومع هذه المحاولة من الزجاج للتوفيق بين القولين فإن الواقع البياني لا يرتضيها؛ ذلك أن النبي- صلى الله عليه وسلم- حدد المراد بالوسطية في الآية حين قال مرة : (والوسط العدل) بعد أن قرأ الآية، وفي الرواية الأخرى قطع قراءة الآية فبيَّن معنى الوسط ثم استرسل في إتمام قراءتها فقال: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، قَالَ: عَدْلاً: ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾، وقد صح رفع هذا التفسير إليه- صلى الله عليه وسلم-، يقول ابن حجر: " قوله: (والوسط العدل) هو

(١) القلم /٢٨.

(٢) المائدة /٨٩.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١٤٤، وينظر تفسير مجاهد /٢١٥، تفسير سفيان الثوري /٥٠، تفسير الطبري ١٤٢/٣، الهداية إلى بلوغ النهاية ٤٧٨/١، تفسير القرطبي ١٥٣/٢، ١٥٤، ١٥٥.

(٤) الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٢/ ٨، تفسير الطبري ١٤٢/٣، التفسير الوسيط للواحدي ١٨٢٢٤ الكشاف ٥٩١/٤، إكمال المعلم بفوائد مسلم ٢٩٤/٣، الكوثر الجاري ١٦/٨.

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢١٩/١.

مرفوع من نفس الخبر، وليس بمدرج من قول بعض الرواة كما وهم فيه بعضهم، وسيأتي في الاعتصام بلفظ ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾: عدلا. وأخرج الإسماعيلي من طريق حفص بن غياث عن الأعمش بهذا السند في قوله: (وسطا قال: عدلا)كذا أورده مختصرا مرفوعا، وأخرجه الطبري من هذا الوجه مختصرا مرفوعا، ومن طريق وكيع عن الأعمش بلفظ: (والوسط العدل) مختصرا مرفوعا، ومن طريق أبي معاوية عن الأعمش مثله، وكذا أخرجه الترمذي والنسائي من هذا الوجه، وأخرجه الطبري من طريق جعفر بن عون عن الأعمش مثله، وأخرجه عن جماعة من التابعين كمجاهد وعطاء وقتادة، ومن طريق العوفي عن ابن عباس مثله، قال الطبري: الوسط في كلام العرب الخيار، يقولون: فلان وَسَطٌ في قومه ووَاسِطٌ: إذا أرادوا الرفع في حسبه. قال: والذي أرى أن معنى الوسط في الآية الجزءُ الذي بين الطرفين، والمعنى أنهم وَسَطٌ لتوسطهم في الدين، فلم يغلوا كغلو النصارى، ولم يُقَصِّروا كتقصير اليهود، ولكنهم أهل وسط واعتدال. قلت: لا يلزم من كون الوسط في الآية صالحا لمعنى التوسط أن لا يكون أريد به معناه الآخر كما نص عليه الحديث، فلا مغايرة بين الحديث وبين ما دل عليه معنى الآية. والله أعلم "(١).

ومع هذا الكلام الأخير من ابن حجر وتعليقه على كلام الطبري فإن النص النبوي قاطع في أن المراد بالوسط العدلُ، والسياق الذي وردت فيه الكلمة يقضي بذلك؛ ذلك أن الموقف موقف قضاء بين الأنبياء– عليهم السلام– وأممهم التي تُصِرُّ على التكذيب والعناد وادعاء عدمِ تبليغِ رسلِهم إليهم شرائعَ ربهم، فاستدعى الأمر شهادةً على أن هؤلاء الرسل– عليهم السلام– قد بلَّغوا، فاستشهد الرسل بأمة الإسلام، فالموقف موقف قضاء وشهادة، والشهادة تستلزم العدالة، فكان هذا أوفق لتفسير الوسط بالعدل؛ لأنه الأنسب لمشهد القضاء والشهادة. وليس بعد بيان النبي– صلى الله عليه وسلم– بيان.

ثانيا: الألفاظ والعبارات الحديثية

(أذن – رضي) الإِذْن – الرِّضا

عن أبي سلمة أن أبا هريرة– رضي الله عنه– حدثهم أن النبي– صلى الله عليه وسلم– قال: (لا تُنْكَحُ الأَيِّمُ حتى تُسْتَأْمَرَ، ولا تُنْكَحُ البِكْرُ حتى تُسْتَأْذَنَ). قالوا: يا

(١) فتح الباري ١٧٢/٨، وينظر إرشاد الساري للقسطلاني ٣٢٨/٥ ، ١٦/٧.

رسول الله، وكيف إذنها ؟ قال: (أن تَسْكُتَ)(١)، وفي رواية عنه أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: (إذا سكتت)(٢).

وفي حديث عائشة- رضي الله عنها- قالت: قلت: يا رسول الله، يُسْتَأْمَرُ النساءُ في أَبْضَاعِهِنَّ ؟ قال: (نعم). قلت: فإن البِكْرَ تُسْتَأْمَرُ فَتَسْتَحِي فَتَسْكُتُ ؟ قال (سُكاتُها إِذْنُها)(٣).

وفي رواية عنها- رضي الله عنها- قالت:قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: (البِكْرُ تُسْتَأْذَنُ). قلت: إن البِكْرَ تَسْتَحْيِي ؟ قال: (إِذْنُها صُماتُها)(٤).

في هذا الحديث بيَّن الرسول- صلى الله عليه وسلم- المراد باستِئْذان البِكْر في شأن نكاحها، وجاء التعبير مرة بـــ (إذا سكتت)، ومرة بالمصدر المؤول (أن تسكت)، وثالثة بالمصدر الصريح (سُكات)(٥)، وأخيرة بالمصدر الصريح (صُمات)(٦)، وهذه التعبيرات كلها فيها دلالات غير لغوية؛ فالسُّكات والصُّمات ينعدم فيهما الكلام.

والأصل في الإذن الإعلام، يقول ابن فارس: " الهمزة والذال والنون أصلان متقاربان في المعنى، متباعدان في اللفظ، أحدهما: أُذُنُ كلِّ ذِي أُذُنٍ، والآخر: العلم. وعنهما يتفرع الباب كله. فأما التقارب فبالأُذُن يقع علْمُ كل مسموع ... والأصل الآخر العِلْمُ والإِعْلام "(٧)، ويقول الراغب: " والإِذنُ في الشيء: إعلام بإجازته والرخصة فيه، نحو ﴿ وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾(٨) أي: بإرادته وأمره"(٩)، وبهذا المعنى استُعمِل الإِذْن في غالب آيات القرآن، فقد جاء " بمعنى الإباحة أو القَبُول

(١) صحيح البخاري، حديث /٤٨٤٣، وحديث /٦٥٦٩.

(٢) صحيح البخاري، حديث /٦٥٦٧.

(٣) صحيح البخاري، حديث /٦٥٤٧.

(٤) صحيح البخاري، حديث /٦٥٧٠.

(٥) السُّكات مصدر كالسُّكوت، يقول ابن منظور: " السَّكْتُ والسُّكُوتُ: خلافُ النُّطْقِ؛ وقَدْ سَكَتَ يَسْكُتُ سَكْتًا وسُكاتًا وسُكوتًا" اللسان (سكت).

(٦)الصُّمات مصدر للفعل صَمَتَ، يقول ابن منظور: " صَمَتَ يَصْمُتُ صَمْتًا وصُمْتًا وصُمُوتًا وصُماتًا، وأَصْمَتَ: أَطالَ السكوتَ" اللسان (صمت).

(٧) الصُّمات مصدر للفعل صَمَتَ، يقول ابن منظور: " صَمَتَ يَصْمُتُ صَمْتًا وصُمْتًا وصُمُوتًا وصُماتًا، وأَصْمَتَ: أَطالَ السكوتَ" اللسان (صمت).

(٨) النساء/٦٤.

(٩) المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني (أذن).

والتمكين، مع العلم بقدْرِ ما مُكِّن فيه، وبه جاء كلُّ (أَذِنَ) ومضارعُها وأمرُها (عدا آيتي الانشقاق وآية البقرة ٢٧٩)(١)، وكلُّ (استأذن) ومضارعُها، وكلُّ (إِذْنٍ)"(٢).

وعليه فمدار استعمال الإذْن على الإعلام بإجازة الأمر وإباحته والترخيص به وقبوله، وكل ذلك يقع بصور متعددة، الأصل فيها أن تكون قولا يُفهِم القبولَ والرضا، ويمكن أن يكون إشارةً بالرأس، أو إيماءً بالعين، أو استبشارًا في الوجه، ونحو ذلك مما جرت عادة الناس فيه العلمُ بالقبول، بل قد يكون القبول بالضحك، يقول البدر العيني: "والضحك رضًا دلالة؛ فَإِنَّهُ عَلَامَة السرُور والفرح بِمَا سَمِعَتْ. وَقيل: إِذا ضحِكت كالمستهزئة لم يكن رضًا، بِخِلَاف مَا إِذا بَكت فَإِنَّهُ دَلِيل السخط والكراهية"(٣).

وفي هذا الحديث نجد الرسول الكريم– – صلى الله عليه وسلم– قد راعى حال البِكر وما تكون عليه من حياء يمنعها– غالبا– أن تُقرَّ بقبول الزواج أو التكلُّم في شأنه بأي صورة من الصور السابقة، خاصة إذا كان ذلك بحضرة أحد من رجالها؛ يقول ابن حجر: " والإذن دائر بين القول والسكوت، بخلاف الأمر فإنه صريح في القول، وإنما جعل السكوت إذنا في حق البكر لأنها قد تستحي أن تُفصح "(٤)، وهذا ما جرت به عادة الناس؛ حيث تتبادر على ألسنتهم في هذا الموقف وأمثاله – مقولتُهم المشهورة: (السكوت علامة الرضا).

وينبغي هنا أن نقف مع رواية أخرى للحديث، استعملت الرضا بدل الإذن، فعن أم المؤمنين عائشة– رضي الله عنها– أنها قالت: يا رسول الله إن البكر تستحي ؟ قال (رضاها صمتها)(٥).

والرضا درجة فوق الإذن؛ ذلك أن الإذن– كما مضى– إعلام بالإجازة والرخصة في الشيء، أما الرضا فهو حالة داخلية قلبية، يكون معها سكينة في النفْس، وطمأنينة في القلب، وصَفْوٌ في الفكر، ففيه إذن مع طيب نفس واختيار، يقول المناوي: " الرضا: طيب النفس بما يُصيبُه ويَفُوتُه مع عدم التَّغَيُّرِ. وقول الفقهاء: يُشْهِدُ على رضاها، أي إذنها، جعلوا الإذن رضًا لدلالته عليه "(٦)، يقول ابن بطال: " وقال ابن حبيب: وقد

(١) آيتا الانشقاق قول الله– تعالى–: ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ والآيتان(٢ ، ٥)، وآية البقرة قول الله– تعالى–: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾(١٧٩).

(٢) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د. محمد حسن جبل (أذن).

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للبدر الدين العيني ١٢٩/٢٠.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني ١٩٢/٩.

(٥) صحيح البخاري، حديث /٤٨٤٤.

(٦)التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي /١٧٨.

ساوَى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بين البكر والثيب في مشاورتهما في أنفسهما، ولم يفرق بينهما إلا في الجواب بالرضا، فإنه جعل جواب البكر بالرضا في صماتها لاستحيائها، وجعل جوابها بالكراهة لذلك في الكلام؛ لأنه لا حياء عليها في كراهيتها كما يكون الحياء في رضاها "(١).

وبهذا يتأكَّد ما مضى من قول الناس: (السكوت علامة الرضا)، وتكون دلالتا الإذْن والرضا دلالتين عُرْفِيَّتين اجتماعيَّتين، ويكون النبي- صلى الله عليه وسلم- قد راعى أحوال الناس وأعرافهم في هذين الاستعمالين.

وعلى هذا تكون دلالة الصمت والسكوت على الإذن أو الرضا داخلة في الدلالات غير اللفظية، وتحديدا في دلالة النِّصْبة (الحال)، يقول الجاحظ: " وأما النِّصْبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونامٍ، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص، فالدلالة التي في المَوات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء مُعْرِبَةٌ من جهة البرهان؛ ولذلك قال الأول: سَلِ الأرضَ فَقُلْ: من أجرى أنهارك؟ وغرس أشجارك؟ وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حِوارًا أجابتك اعتبارا "(٢).

(أمم) أُمُّ القرآن

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- (أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم)(٣).

أم القرآن لفظ مُرَكَّبٌ تركيبَ إضافة، صار علَمًا من أعلام علوم القرآن، فهو من الألفاظ الإسلامية لفظا ومعنى.

والحديث- هنا- سمَّى الفاتحة أمَّ القرآن، والسبعَ المثانيَ، وقد رأيت اختلافات في بيان المراد بالسبع المثاني، ولا أرى لذلك كله وجها؛ ذلك أن النبي- صلى الله عليه وسلم- أطلق هذين الاسمين عليها؛ فليس لنا أن نزيد في ذلك أو ننقص، إنما غاية ما لنا أن نبحث عن علة هاتين التسميتين، وسأذكر هنا (أم القرآن)، أما إطلاق اسم (السبع المثاني) فقد مضى الحديث عنه في الألفاظ القرآنية.

---

(١)شرح صحيح البخاري لابن بطال ٧/ ٢٥٣.

(٢) البيان والتبيين ٨١/١.

(٣) صحيح البخاري، حديث /٤٤٢٧.

تناول المفسرون والمحدّثون وشُرَّاح الحديث واللغويون بيانَ علَّةِ إطلاق اسم (أم القرآن) على الفاتحة، من ذلك ما ذكره البخاري في أول كتاب التفسير، حيث قال: "بابٌ: ما جاء في فاتحة الكتاب. وسُمِّيَتْ أُمَّ الكتاب أنه يُبْدَأ بكتابتها في المصاحف، ويُبْدَأ بقراءتها في الصلاة "(١)، وقد علَّق ابن حجر على كلام البخاري هذا بقوله: "قوله: وسميت أم الكتاب أنه– بفتح الهمزة– يُبدأ بكتابتها في المصاحف، ويُبدأ بقراءتها في الصلاة– هو كلام أبي عبيدة في أول مجاز القرآن، لكنَّ لَفْظَهُ: (ولِسُوَرِ القرآن أسماء، منها: أن ﴿ الحمد لله ﴾ تُسمى أمَّ الكتاب؛ لأنه يُبدأ بها في أول القرآن، وتُعاد قراءتها فيُقرأ بها في كل ركعة قبل السورة. ويقال لها: فاتحة الكتاب؛ لأنه يُفتتَح بها في المصاحف فتُكتب قبل الجميع)(٢) انتهى. وبهذا تبين المراد مما اختصره المصنف، وقال غيره: سميت أم الكتاب لأن أمَّ الشيء ابتداؤه وأصله، ومنه سميت مكة أم القرى؛ لأن الأرض دُحِيَت من تحتها. وقال بعض الشراح: التعليل بأنها يبدأ بها يناسب تسميتها فاتحة الكتاب لا أم الكتاب. والجواب أنه يَتَّجِه ما قال بالنظر إلى أن الأم مبدأ الولد. وقيل: سميت أم القرآن لاشتمالها على المعاني التي في القرآن من الثناء على الله – تعالى– والتعبد بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وعلى ما فيها من ذكر الذات والصفات والفعل، واشتمالها على ذكر المبدأ والمعاد والمعاش. ونقل السهيلي عن الحسن وابن سيرين ووافقهما بقي بن مخلد كراهية تسمية الفاتحة أم الكتاب، وتعقبه السهيلي. قلت: وسيأتي في حديث الباب تسميتها بذلك، ويأتي في تفسير الحجر حديث أبي هريرة مرفوعا (أم القرآن هي السبع المثاني) ولا فرق بين تسميتها بأم القرآن وأم الكتاب، ولعل الذي كره ذلك وقف عند لفظ الأم، وإذا ثبت النص طاح ما دونه"(٣)، وزاد الطبري والزركشي والسيوطي بعض التعليلات(٤)، وهي ترجع إلى ما ذُكر قبل.

وهذ التعليلات موافقة لاستعمال الأم في اللغة، يقول ابن فارس: " وأما الهمزة والميم فأصل واحد، يتفرع منه أربعة أبواب، وهي الأصل والمرجع والجماعة والدِّين،

---

(١) صحيح البخاري ١٦٢٣/٤.

(٢)مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي /٥.

(٣)فتح الباري لابن حجر ١٥٦/٨، وينظر ذلك أو بعضه مفرّقا أو مجموعا في: فتح الباري لابن رجب ٢٢٢/١، عمدة القاري ٣٣/٦، ٢٣١/٧، ٨٠/١٨، ١٢/١٩، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني ٤/٧، الكواكب الدراري للكرماني ١٧٤/١٧، تفسير القرطبي ١١٢/١، تفسير ابن كثير ١٠٥/١. جمال القراء للسخاوي ١٨٣/١، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ٩٩١/١.

(٤)ينظر: تفسير الطبري ١٠٧/١، البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٦/١، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٣٥٠/٢.

وهذه الأربعة متقاربة "(١)، فالفاتحة أصل القرآن، ومرجعه، وجماع ما فيه من المعاني والأحكام، فكل ما في القرآن يرجع إليها، ويقول الخليل: " اعلم أنّ كلّ شيء يُضَمُّ إليه سائر ما يليه فإن العرب تُسمِّي ذلك الشَّيْء أُمًّا، فمن ذلك: أمّ الرأس وهو: الدّماغ ... وفي الحديث: إنّ أمّ الكتاب هي فاتحة الكتاب؛ لأنّها هي المتقدّمة أمامَ كلّ سُورةٍ في جميع الصّلوات "(٢).

وأتوقف هنا عند عبارة ابن حجر " وإذا ثبت النص طاح ما دونه "، فما دام ثبت في الصحيح أن النبي– صلى الله عليه وسلم– قد سمَّاها (أم القرآن) فليس لنا أن نرده أو نتوقف في قبوله، وغاية ما لنا– كما ذكرت في أول الحديث– أن نبحث عن علة التسمية، لا عن صحتها، فصحتها ثابتة لا مرية فيها.

(أمن) الإيمان

عن أبي جمرة قال: كنت أقعد مع ابن عباس يُجلسني على سريره فقال: أَقِمْ عندي حتى أجعل لك سهما من مالي، فأقمت معه شهرين، ثم قال: إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي– صلى الله عليه وسلم– قال: (مَنِ القومُ) أو (مَنِ الوَفْدُ) ؟ قالوا: ربيعة. قال: (مَرْحَبًا بِالقَوْمِ، أَوْ بِالوَفْدِ، غَيْرَ خَزَايَا، وَلاَ نَدَامَى) فقالوا: يا رسول الله إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحيُّ من كفار مضر، فمُرْنا بأمرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ به مَنْ وراءنا، ونَدْخُلْ به الجنةَ. وسألوه عن الأشربة، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع، أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: (أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ المَغْنَمِ الخُمُسَ). ونهاهم عن أربع: عن الحَنْتَم والدُّبَّاء والنَّقِير والمزَفَّت. وربما قال: المقَيَّر . وقال: (احْفَظُوهُنَّ، وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ)(٣).

تكرر ورود هذا الحديث بألفاظ متقاربة، بزيادة بعضِ ألفاظ ونَقْص بعضها، وهذا النصُّ أوفاها؛ حيث نص على الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام وخمس المغنم (٤)، وبعضها لم ينص على الشهادة للرسول– صلى الله عليه وسلم– (٥)، وبعضها لم يذكر

(١)المقاييس (أمم).
(٢)العين (أمم).
(٣) صحيح البخاري، حديث /٥٣.
(٤) صحيح البخاري، أحاديث/٥٣، ٨٧، ٦٨٣٨.
(٥) صحيح البخاري، أحاديث /٢٩٢٨، ٤١١٠،

الصيام (١)، وبعضها لم ينص عليهما معا (٢)، وبعضها ذكر الصيام ولم ينص على الشهادتين(٣)، وقد تعرض شراح الحديث للتوفيق بين هذه الروايات من جانب، وذِكْرِ أربعة أوامر أو خمسة من جانب آخر، وليس هذا موضع بيانه (٤).

ويلاحَظ أن الحديث– برواياته المتكررة– قد خلا من ذِكْر الحج، ويجيب عن هذا ابن بطَّال بقوله:" وإنما لم يأمرهم بالحج لأنه لم يكن نزل حينئذ فَرْضُ الحج "(٥).

يوجد خلاف عقدي في تحديد مفهوم الإيمان، أهو أمر قلبي، أم يتعدى القلبَ إلى عمل الجوارح، واكتساب الحواس؟

وينبغي– هنا– أن نقف أولا على المعنى اللغوي للإيمان، حيث نجد اللغويين يذهبون إلى أن الأصل في ذلك التصديق، وهذا أمر يتوقف عند الاعتقاد القلبي، ولا يتعداه إلى نُطْق اللسان، أو عَمَلِ الجوارح، يقول ابن فارس: " الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان، أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر: التصديق. والمعنيان كما قلنا متدانيان "(٦)، وجعل الدكتور جبل تركيب (أمن) يدل على " وثاقة في الباطن. كالناقة الوثيقة الخَلْق، وكقُوَى الحبل الأمينة القوية. وآمَنُ المالِ وآمَنُ الدواءِ: خالصُه: لُبُّه المتمكّنُ في باطنه. ومن ذلك الأَمْن ضد الخوف، كأن الآمن تمكّن في حِصْن، أو امتلأ قلبه امتلاءً شديدًا بما يُطَمْئنه ... ومن ذلك آمن بالشيء: صدّق (قَبِلَ الكلام ووَثِقَ به فتمكن من قلبه). وفي [ق] (٧) :الإيمان: الثقة، وإظهار الخضوع، وقبول الشريعة (٨). أي الإيمان بدين أو عقيدة (قبول العقيدة وتمكُّنها في القلب وامتلاؤه بها)"(٩)، وإلى هذا الأصل ذهب كثير من اللغويين، يقول

(١) صحيح البخاري، حديث /٥٠٠.

(٢) صحيح البخاري، أحاديث /١٣٣٤، ٣٣١٩، ٤١١١، ٧١١٧.

(٣) صحيح البخاري، حديث /٢٩٢٨، ٤١١٠، ٥٨٢٢.

(٤) ينظر فتح الباري لابن حجر ١٣٢/١.

(٥) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢٥٧/٥.

(٦) المقاييس (أمن).

(٧) [ق] ترمز إلى القاموس المحيط. ينظر هذا الرمز وغيره في: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، د. محمد حسن حسن جبل ٤٧/١.

(٨) القاموس (أمن).

(٩)المعجم الاشتقاقي، د. جبل (أمن).

الخليل: " والإيمان: التّصديق نفسه، وقوله- تعالى-: ﴿ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا ﴾(١)، أي: بمُصَدِّق "(٢).

هذا هو الأصل اللغوي، لكن (الإيمان) من الكلمات التي أصابها تطور دلالي في العصر الإسلامي؛ حيث نجد اختلافا عقديا في تحديد مفهومه، وتعيين حقيقته، يقول البدر العيني مبينا أن الإيمان أنواع: الأول في معناه اللغوي- على ما سبق بيانه من التصديق- والثاني " في معناه باعتبار عرف الشرع، فقد اختلف أهل القبلة في مسمى الإيمان في عرف الشرع على أربع فرق: فرقة قالوا: الإيمان فِعْلُ القلب فقط ... والفرقة الثانية قالوا: إن الإيمان عَمَلٌ باللسان فقط ... والفرقة الثالثة قالوا: إن الإيمان عَمَلُ القلب واللسان معا ... والفرقة الرابعة قالوا: إن الإيمان فِعْلُ القلبِ واللسان مع سائر الجوارح، وهم أصحاب الحديث ومالك والشافعي وأحمد والأوزاعي، وقال الإمام: وهو مذهب المعتزلة والخوارج والزيدية "(٣).هذه جملة الأقوال على اختلاف في تفصيلاتها وافتراق في شروط كل فرقة وضوابطها، ليس هذا موضع التفصيل فيها.

ولا أجد لهذا الاختلاف وجها يُقبَل؛ حيث إن النبي- صلى الله عليه وسلم- قضى فيه قضاء فَصْل، لا يدع لأحد بعده قضاء؛ فجمع للإيمان- الذي هو في الأصل تصديق القلب- معنيين آخرين، هما إقرار اللسان بشهادة التوحيد، وعَمَلُ الجوارح بمقتضى هذه الشهادة ولوازمها من صلاة وزكاة وصيام وأداء خُمُسِ المغنم، وليس بعد بيان النبي – صلى الله عليه وسلم- بيانٌ.

ويكفينا في دلالة الإيمان على الأمور الثلاثة قولُ الله- تعالى-: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾(٤)، فالذي أُنْزِل إلى الرسول- صلى الله عليه وسلم- يشمل الدِّين كلَّه، بما فيه من تصديق القلب، ونُطْقِ اللسان، وعَمَلِ الجوارح، وكلُّ ذلك آمنَ به الرسولُ الكريم- صلى الله عليه وسلم- والمؤمنون.

وقد أصاب البخاري- رحمه الله- حين ترجم للباب الأول من كتاب الإيمان بقوله: " باب الإيمان وقول النبي- صلى الله عليه وسلم-: (بُنْيَ الإسلامُ على خمس)"، ثم قال: " وهو قَوْلٌ وفِعْلٌ، ويزيد وينقص ... والحب في الله والبغض في الله من الإيمان. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عَدِيٍّ بن عَدِيٍّ: إن للإيمان فرائضَ وشرائعَ وحدودًا

(١)يوسف /١٧.

(٢)العين (أمن)، وينظر التركيب في التهذيب، اللسان، التاج.

(٣)عمدة القاري ١٠٢/١، وينظر بعض ذلك في فتح الباري لابن حجر ٤٦/١.

(٤)البقرة /٢٨٥.

وسُنَنًا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أَعِشْ فسأُبَيِّنَها لكم حتى تعملوا بها، وإن أَمُتْ فما أنا على صحبتكم بحريص ... وقال ابن مسعود: اليقينُ الإيمانُ كله. وقال ابن عمر: لا يبلغ العبدُ حقيقةَ التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر " ثم فسَّر قوله– تعالى–: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعاؤُكُمْ ﴾(١)، فقال: ومعنى الدعاء في اللغة الإيمان "(٢)، فالحب والبغض من عمل القلوب، واستكمال الفرائض والشرائع والحدود والسنن من عمل الجوارح، والدعاء من عمل اللسان. وقد أَتْبَع البخاريُّ ذلك بعدد من الأبواب يتناوبها التصديقُ بالقلب، والنطقُ باللسان، والعملُ بالجوارح.

وبهذه المعاني يكون الإيمان من الألفاظ الإسلامية التي تطورت دلاليا بتعميم دلالتها، وتوسيع مجال استعمالها، لتشمل القلب واللسان والجوارح جميعا.

(برك) بركات الأرض

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: (إِنَّ أَكْثَرَ ما أَخافُ عليكم ما يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ بَرَكاتِ الأَرْضِ). قيل: وما بركات الأرض ؟ قال: (زَهْرَةُ الدُّنْيَا)(٣).

البركة ترجع في أصل استعمالها إلى معنى الثبوت واللزوم، يقول الراغب: " أصل البَرْك صدرُ البعير وإن استعمل في غيره، ويقال له: بِرْكَةٌ، وبَرَكَ البعير: ألقى رُكَبَهُ، واعتُبر منه معنى اللزوم فقيل: ابْتَرَكُوا في الحرب، أي: ثبتوا ولازموا موضع الحرب ... والبَرَكَةُ: ثبوت الخير الإلهي في الشيء. قال تعالى: ﴿ لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ﴾(٤)، وسُمّي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوتَ الماءِ في البِرْكَة "(٥). وقد جعل ابن فارس الثبات معنى أصليا لتركيب (برك) فقال: " الباء والراء والكاف أصل واحد، وهو ثبات الشيء، ثم يتفرع فروعا يُقارِب بعضُها بعضا "(٦)، وزاد الدكتور جبل على ذلك قيدا فقال: " المعنى المحوري هو: ثباتٌ واستمرارٌ مع لُطْفٍ: كالماء الكثير (وهو لطيف) يخرج ويبقى أو يستمر في البِرْكة، وصدر البعير يعتمد عليه

(١)الفرقان /٧٧.
(٢)صحيح البخاري ١/١١.
(٣) صحيح البخاري، حديث /٦٠٦٣.
(٤)الأعراف /٩٦.
(٥)المفردات (برك) .
(٦)المقاييس (برك).

البعير في بروكه وقيامه؛ فهو من الثبات. ومنه: بارَكَ على التجارة (وعلى الشيء): واظَبَ ... ومن ذلك البَرَكة- محركة-: النماء والزيادة (في الشيء والحال، بحيث يبقى وتدوم منفعته أطول مدة فلا ينفد سريعًا؛ فهي من الثبات)"(١).

وإذا جئنا إلى الحديث الذي معنا وجدنا النبي- صلى الله عليه وسلم- حين سئل عن المراد بـــ (بركات الأرض) بيَّن أنها زهرة الدنيا، وهذا معنى مجازي؛ إذ المراد " بالزَّهْرة: الزينة والبهجة، مأخوذ من زَهْرة الشجرة، وهو نَوْرها- بفتح النون-، والمراد ما فيها من أنواع المتاع والعين والثياب والزروع وغيرها مما يغتر الناس بحسنه مع قلة البقاء "(٢)، وهذا المعنى هو ما عليه أهل اللغة في تفسيرهم لزهرة الدنيا، يقول الخليل: " الزَّهْرةُ: نَوْرُ كلِّ نَبات. وزَهرةُ الدّنيا: حُسْنُها وبَهْجَتهُا"(٣)، وجعل ابن فارس التركيب يدور حول هذا المعنى فقال: " الزاء والهاء والراء أصل واحد يدل على حُسْنٍ وضياء وصفاء ... وزهرة الدنيا: حُسْنها "(٤)، ونحو ذلك ذكر الدكتور جبل مع زيادة قيد الاستطابة والاستطراف مع الرقة والإشراق فقال: " المعنى المحوري بياضٌ يُستطاب ويُستطرَف يكون في الشيء أو منه مع رقة وإشراق. كزَهْرِ النبت في بياضه ورقته، وضوءِ القمر مع رقته، وكذا بياض اللبن ورقته، وبريقِ الدُرَّة وصفائها ورقتها، وضوءِ النار والسراج مع لطف لهَبِهما، أي كونه ليس مادة كثيفة"(٥).

ثم علَّل للتعبير عن حُسْن الدنيا بالزهرة فقال: " ولملحظ الاستطابة مع الرقة والإشراق في الأصل عُبِّر بزهرة الدنيا عن حُسْنها وبهجتها وغضارتها. ﴿ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾(٦)، ولهذا قيل: قضيتُ من الأمر زِهْرَتي – بالكسر- أي وَطَرى، (كأن المعنى: ما اشتهته نفسي منه. وهذا الاشتهاء استطابة)"(٧).

وبالتنبُّه لملحظ الاستطابة والاستطراف والاشتهاء يظهر لنا بيانُ النبي- صلى الله عليه وسلم- لبركات الأرض بأنها زهرة الدنيا؛ حيث يستطرِف الناسُ هذه البركاتِ، ويستطيبونها، ويزداد اشتهاؤهم لها؛ فتتمكَّن من قلوبهم، وتستولي على عقولهم؛

---

(١)المعجم الاشتقاقي (برك).

(٢)عمدة القاري ٢٣/٤٠.

(٣)العين (زهر)، وينظر التركيب في التهذيب، المقاييس، الصحاح، المحكم.

(٤)المقاييس (زهر).

(٥)المعجم الاشتقاقي (زهر).

(٦)طه /١٣١.

(٧)المعجم الاشتقاقي (زهر).

فيركنون إليها، ويغترُّون بما فيها من خيرات ونِعَمٍ، ويعيشون فيها كأنهم بالدنيا مُخَلَّدون، وعن الآخرة مُبْعَدون؛ فيَصْحَبون النعمةَ، وينسون المنعِمَ، ويبيعون الآخرةَ بالأولى، وهذا ما يخافه النبي– صلى الله عليه وسلم– على أمَّته.

ونجد بيانَ هذا في بقية حديثنا كما ذكر أبو سعيد الخدري– رضي الله عنه–: "فقال له رجلٌ: هل يأتي الخيرُ بالشرِّ ؟ فصَمَتَ النبيُّ– صلى الله عليه وسلم– حتى ظننتُ أنه يُنْزَل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه فقال: (أين السائل؟). قال: أنا. قال أبو سعيد: لقد حَمِدْناه حين طلع لذلك. قال: (لا يأتي الخيرُ إلا بالخيرِ، إن هذا المال خَضِرةٌ حُلْوَةٌ، وإنَّ كلَّ ما أنبتَ الربيعُ يَقتلُ حَبَطًا أو يُلِمُّ إلا آكلةَ الخَضِرِ، أكلتْ حتى إذا امتدَّتْ خاصرَتاها استقبلتِ الشمسَ فاجْتَرَّتْ وثَلَطَتْ وبالَتْ، ثم عادتْ فأكلتْ. وإن هذا المال حُلْوَةٌ، من أخذه بحقه ووضعه في حقه فَنِعْمَ المعونةُ هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع"(١).

يقول ابن بطال في شرحه للحديث: " يعنى: المال إذا كُسِبَ من وجهه، وفُعِلَ به ما أمرهم الله، ثم ضرب لهم مثلاً بقوله: (وإن مما يُنْبِتُ الربيعُ يَقتلُ أو يُلِمُّ) يعنى أن الاستكثار من المال والخروجَ من حَدِّ الاقتصاد فيه ضارٌّ، كما أن الاستكثار من المأكل مُسْقِمٌ، ضرب هذا مثلاً للحريص على جمع المال، المانع له من حقه، والربيع تَنْبُت فيه أحرارُ العُشْبِ التي تَحْلَوْلِيهَا الماشيةُ فتستكثرُ منها حتى تنتفخ بطونُها فتَهْلِك. وقوله: (أو يُلِمُّ) يعنى يقرب من الهلاك، ... وقوله: (إلا آكلة الخَضِرِ) يعني التي تُخْرِجُ مما جَمَعَتْ منه ورَعَتْ ما ينفعها إخراجُه من البُرازِ والبَوْلِ، فهذا لا يقتلها ما رَعَتْ، فضرب هذا– صلى الله عليه وسلم– مثلاً لمن تَصَدَّقَ وأخرَج من ماله ما ينفعُه إخراجُه، مما لو أمسكَه لَضَرَّهُ إثْمُه كما يضر التي رَعَتْ لو أمسكتِ البولَ والغائطَ ولم تُخْرِجْه"(٢)، وقد علَّق الأزهري على الحديث بقوله: " قلت: وإنما تقصَّيْتُ روايةَ هذا الخبر لأنه إذا بُتِرَ استغلق معناه، وفيه مَثَلانِ: ضرب أحدَهما للمفرط في جَمْعِ الدنيا ومَنْعِ ما جَمَعَ من حقه، والمثلُ الآخرُ ضربه للمقتصد في جمع المال وبذله في حقه"(٣).

وعلى كلٍّ فهذا البيان يتفق مع وَصْف الله– تعالى– للدنيا بقوله: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا

(١) صحيح البخاري، حديث /٦٠٦٣.

(٢)شرح صحيح البخاري لابن بطال ٤٨٨/٣.

(٣)التهذيب (حبط).

أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

وبهذا البيان يكون التعبير عن بركات الأرض بزهرة الحياة الدنيا- تعبير لغويا مجازيا باعتبار ما تؤول إليه حال هذه البركات من تزيينها للناس واغترارهم ببهجتها وحُسْنها.

(بشر) المبشِّرات

حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري حدثني سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يقول:(لم يَبْقَ من النُّبُوَّةِ إلا المبشِّرات). قالوا: وما المبشرات ؟ قال (الرؤيا الصالحة)(٢).

في هذا الحديث فسَّر النبي- صلى الله عليه وسلم- المبشِّرات بالرُّؤيا الصالحة، وهذه الدلالة من الدلالات المتطورة والمعاني الإسلامية التي لم تكن معروفة عند العرب قبل الإسلام؛ وعليه ففي الحديث تطور دلالي.

وأصل البِشارة ما يظهر على البَشَرة من انبساط وسرور حين يبلغُ الإنسانَ أمرٌ يُفرحه، يقول الأزهري: " وقال الزجاج: معنى يَبْشُرك يَسُرُّك ويُفْرِحُك. بَشَرْتُ الرجلَ أَبْشُرُه، إذا فَرَّحْتَه، وبَشِرَ يَبْشَر، إذا فَرِح. قال: ومعنى يَبْشُرُكَ من البِشارة. قال: وأصل هذا كله أن بَشَرَةَ الإنسان تنبسط عند السرور، ومن هذا قولهم: فلان يلقاني ببِشْرٍ، أي بوجه منبسط عند السرور "(٣)، ويقول ابن فارس: " الباء والشين والراء أصل واحد: ظهور الشيء مع حُسْنٍ وجمال. فالبَشَرَةُ ظاهرُ جِلْدِ الإنسان "(٤)، والرياح المبشِّرات في قول الله- تعالى-: ﴿ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾(٥): هي التي " تُبَشِّرُ بالمطر والرحمةِ "(٦).

ويقول الهروي: " قال ابن عرفة: سميت البِشارةُ بِشارةً لأنها تَبِينُ في بَشَرَةِ مَنْ بُشِّرَ به، ويقال: وَجْهٌ بَشِيرٌ، إذا كان حسناً، بَيِّنُ البَشارة، بفتح الباء "(٧).

---

(١)يونس /٢٤.

(٢) صحيح البخاري، حديث /٦٥٨٩.

(٣)التهذيب (بشر)، وينظر التركيب في المحكم واللسان.

(٤)المقاييس (بشر).

(٥)الروم /٤٦.

(٦)المخصص ٤١٨/٢، وينظر أساس البلاغة (بشر).

(٧)الغريبين في القرآن والحديث، للهروي ١٨٠/١.

والمبشِّرات في حديثنا- كما يقول البخاري-: " جَمْعُ مُبَشِّرَة، من التبشير، وهو إدخال السرور والفرح على المبَشَّر "(١)، وقد جعلها الأمير الصنعاني صفة لموصوف محذوف فقال: "المبشِّرات جمع مبشِّرة، صفة موصوف محذوف، أي الرؤيا المبشرة، من البِشارة، وهي أول خبر سارٍّ "(٢)، ونحو هذا قال الكوراني (٣).

والعلاقة بين المبشِّرات والمعنى الذي ذكره النبي- صلى الله عليه وسلم- واضحة؛ فالرؤيا الصالحة يراها العبد في منامه فيصبح مسرور القلب، منبسط الوجه، طَلْق النفس، من أثر وقعها عليه، وفرحه بها، بحيث يظهر أثر ذلك في بَشَرته.

(جوز) جائزة الضيف

عن أبي شريح العدوي قال: سمعتْ أُذُنايَ وأَبْصَرَتْ عَيْنايَ حين تكلم النبي- صلى الله عليه وسلم- فقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فَلْيُكْرِمْ جارَه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهَ جائِزَتَهُ). قال: وما جائزته يا رسول الله ؟ قال: (يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فَلْيَقُلْ خيرا أو لِيَصْمُتْ)(٤).

وفي رواية أخرى عن أبي شريح الكعبي: أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهَ جائِزَتَهُ، يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يَحِلُّ له أن يَثْوِيَ عنده حتى يُحْرِجَهُ)(٥).

وفي رواية ثالثة عن أبي شريح الخزاعي قال: سمع أُذُنايَ ووَعَاهُ قَلْبِي النبيَّ- صلى الله عليه وسلم- يقول: (الضيافة ثلاثةُ أيام، جائزتَه). قيل: ما جائزته ؟ قال (يوم وليلة، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت)(٦).

أجمعت الروايات الثلاث على تفسير جائزة الضيف بيوم وليلة، وجاء التفسير في الأولى والثالثة بعد سؤال موجَّه للنبي- صلى الله عليه وسلم-، أما الثانية فجاء البيان فيها دون سؤال، واللفظ- هنا- مركب إضافي (جائزة الضيف).

---

(١)صحيح البخاري ٢٥٦٤/٦.

(٢)التنوير شرح الجامع الصغير ٤٦٧/٣.

(٣)الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري للكوراني ٤٧١/١٠.

(٤) صحيح البخاري، حديث /٥٦٧٣.

(٥) صحيح البخاري، حديث /٥٧٨٤.

(٦) صحيح البخاري، حديث /٦١١١.

ونلحظ هنا أن التفسير جاء ببيان مدة الجائزة وأنها تكون يوما وليلة، ولم يبيِّن لِمَنْ تكون؟ ولا حقيقتها، وهذا ما اختلف فيه العلماء، فذهب بعضهم إلى أنها تكون للمسافر، والضيافة تكون للمقيم ثلاثة أيام، وذهب بعضهم إلى أن الضيافة تكون ثلاثة أيام، والجائزة منها؛ حيث يتكلَّف المضيف للضيف فيُعِدُّ له أفضل ما يستطيع في يوم الجائزة، وذهب بعضهم إلى أن الجائزة زائدة عن الأيام الضيافة؛ حيث يُعَدُّ للضيف ما يجوز به يوما وليلة بعد رحيله.

وأكتفي- هنا- بنص ابن حجر؛ حيث يكاد يكون مفصِّلا الأقوال جميعا فقال: "قوله في حديث أبي شريح: (جائزته يوم وليلة)- قال السهيلي: رُوي (جائزتُه) بالرفع على الابتداء وهو واضح، وبالنصب على بدل الاشتمال، أي يُكْرَم جائزتَه يومًا وليلةً. قوله: (والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة) قال ابن بطال: سئل عنه مالك فقال: يكرمه ويُتْحِفُه يومًا وليلةً، وثلاثةُ أيام ضيافة.(١). قلت: واختلفوا: هل الثلاث غير الأوَّلِ أو يُعَدُّ منها؟ فقال أبو عبيد: يتكلف له في اليوم الأول بالبِرِّ والإلطاف، وفي الثاني والثالث يُقَدِّم له ما حضره ولا يزيده على عادته، ثم يعطيه ما يجوز به مسافة يوم وليلة، وتسمى الجيزة، وهي قدر ما يجوز به المسافر من منهل إلى منهل، ومنه الحديث الآخر (أَجيزوا الوَفْدَ بِنَحْوِ ما كُنْتُ أُجيزُهُمْ)(٢). وقال الخطابي: معناه أنه إذا نزل به الضيف أن يتحفه ويزيده في البر على ما بحضرته يوما وليلة، وفي اليومين الأخيرين يقدم له ما يحضره، فإذا مضى الثلاث فقد قضى حقه، فما زاد عليها مما يُقَدِّمُه له يكون صدقة(٣). وقد وقع في رواية عبد الحميد بن جعفر عن سعيد المقبري عن أبي شريح عند أحمد ومسلم بلفظ: (الضيافة ثلاثة أيام، وجائزته يوم وليلة)(٤)، وهذا يدل على المغايرة، ويؤيده ما قال أبو عبيد. وأجاب الطيبي بأنها جملة مستأنفةٌ بيانٌ للجملة الأولى، كأنه قيل: كيف يكرمه؟ قال: جائزته. ولا بد من تقدير مضاف، أي زمان جائزته، أي بِرِّه، والضيافة يوم وليلة، فهذه الرواية محمولة على اليوم الأول، ورواية عبد الحميد على اليوم الأخير، أي قدرُ ما يجوز به المسافر ما يكفيه- يومٌ وليلةٌ، فينبغي أن يُحمل على هذا عملا بالروايتين. انتهى. ويحتمل أن يكون المراد

(١)شرح صحيح البخاري لابن بطال ٣٠٩/٩، غريب الحديث للخطابي ٣٥٣/١، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٤٢/٢١.

(٢)صحيح البخاري، حديث /٢٨٨٨، وصحيح مسلم، حديث /١٦٣٧.

(٣)ينظر: غريب الحديث للخطابي ٣٥٣/١.

(٤)مسند الإمام أحمد، حديث /١٦٣٧١، وصحيح مسلم، كتاب اللقطة، باب الضيافة ونحوها.

بقوله: (وجائزته) بيانا لحالة أخرى، وهي أن المسافر تارة يقيم عند من ينزل عليه، فهذا لا يزاد على الثلاث بتفاصيلها. وتارة لا يقيم، فهذا يعطى ما يجوز به قدر كفايته يوما وليلة. ولعل هذا أعدل الأوجه، والله أعلم "(١)

وجميع ما مضى من معان واختلافات تدور بين حالين:

الأولى:- وهي ما ورد في آخر كلام ابن حجر- حيث فرَّق بين الجائزة والضيافة بحسب حال الضيف، فإذا كان مسافرا غير مقيم فله الجائزة، وهي مئونة تكفيه يوما وليلة، وإذا كان مقيما فله الضيافة ثلاثة أيام بلياليها، أو أن الجائزة تُعَدُّ للضيف عند سفره يحملها معه، وعلى هذا لا علاقة للجائزة بالضيافة، فهي في الأمرين خاصة بالسفر دون النظر لوجود الإقامة من عدمها.

والأصل في هذا المعنى السَّقْيُ، حيث ذكر الأزهري عن " الحراني عن ابن السكيت، قال: الجواز السَّقْيُ، يقال: أجيزونا أي اسقونا، والمستجير: المستقي ... وقال: وحكى ابن الأعرابي عن بعض الأعراب: لكل جابة جَوْزِةٌ ثم يُؤَذَّن (٢)، أي لكل من وَرَدَ علينا سَقْيَةٌ، ثم يُمنَع من الماء"(٣)، وفسَّر أبو بكر الأنباري الجائزة على هذا الأصل فقال: " أصل الجائزة: أن يُعطِيَ الرجلُ الرجلَ ماء، ويُجيزه ليذهب لوجهه. فيقول الرجل إذا ورد الماءَ لِقَيِّمِ الماءِ: أَجِزْنِي، أي: أعطني ماء حتى أذهب لوجهي وأَجُوزَ عنك. ثم كثُر هذا في كلامهم حتى سموا العطية: جائزة "(٤).

الثانية: أن الجائزة داخلة في الضيافة، فهي بعض الأيام الثلاثة وجزء منها، وإنما هي احتفاءٌ بالضيف وإتحافٌ وإلطافٌ وزيادة تكلُّف له.

والأصل في ذلك الجائزةُ التي يعطيها الأمير ونحوه لغيرهم، يقول ابن دريد: "والجوائز من العطاء: معروفة، واحدها جائزة. وزعم بعض أهل اللغة أنها كلمة إسلامية محدثة، وأصلها أن أميرا من أمراء الجيوش واقَفَ العدوَّ وبينه وبينهم نهرٌ،

(١)فتح الباري لابن حجر ٥٣٣/١٠، وينظر: جامع العلوم والحكم ٣٥٥/١، الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم ٧٦/١٩، غريب الحديث لابن الجوزي ١٨٠/١، شرح صحيح مسلم للقاضي عياض المسمى إكمال المعلم بفوائد مسلم ٢١/٦، شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن ٢٨٦٥/٩، معالم السنن ٢٣٨/٤، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٢٦/٩، ٨٢، ٢٧٣، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري ٩/٢٢.

(٢)المثل في مجمع الأمثال للميداني ٢٠١/٢

(٣)التهذيب (جأز)، وينظر الجذر (جوز) في المحكم، أساس البلاغة، اللسان.

(٤)الزاهر في معاني كلمات الناس لأبي بكر الأنباري ١٣/٢، وينظر التهذيب (جأز).

فقال: من جاز هذا النهر فله كذا وكذا، فكان كلٌّ من جازه أخذ مالًا، فيقال: أخذ فلان جائزة؛ فسميت جوائز "(١).

(حبب – كره) حُبُّ لقاء الله – كُرْهُ لقاء الله

عن عبادة بن الصامت: عن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: (مَن أَحَبَّ لِقاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقاءَهُ، ومَن كَرِهَ لِقاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقاءَهُ). قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لَنَكْرَهُ الموتَ. قال: (ليس ذاك، ولكنَّ المؤمنَ إذا حَضَرَهُ الموتُ بُشِّرَ بِرِضْوانِ الله وكَرامَتِه؛ فَلَيْسَ شيءٌ أَحَبَّ إليه مما أَمامَهُ؛ فَأَحَبَّ لقاءَ الله وأَحَبَّ اللهُ لقاءَهُ. وإن الكافرَ إذا حُضِرَ بُشِّرَ بعَذابِ اللهِ وعُقُوبَتِه؛ فليس شيءٌ أَكْرَهَ إليه مما أمامَهُ؛ فَكَرِهَ لقاءَ اللهِ وكَرِهَ اللهُ لِقاءَهُ)(٢).

لما ذكر النبي- صلى الله عليه وسلم- حُبَّ لقاء الله وكُرْهَ لقائه- ظَنَّتْ أم المؤمنين السيدة عائشة أو بعض أمهات المؤمنين- رضي الله عنهن جمعاوات- أن المقصود بلقاء الله الموت، فعقَّبت بأن الجميع يكره الموت، وبذلك يكون الجميع كارهين لقاءَ الله- نعوذ بالله من ذلك.

وهنا بيَّن النبي- صلى الله عليه وسلم- أن حُب لقاء الله وكُرْهَهُ ليس المقصود به الموت مباشرة، وإنما ذلك مرتبط بما يكون عليه حال الإنسان عند الاحتضار؛ حيث يُبَشَّر المؤمن بما أعد الله له وما ينتظره من الرحمة والرضوان والنعيم فيستبشر ويفرح ويتعجل، فذلك حُبُّ لقاء الله.

وعلى خلاف ذلك يكون كُرْهُ لقاء الله، حيث يُبَشَّر الكافر بما أعد الله له وما ينتظره من العذاب والعقوبة والسخط فيشتدُّ هَمُّهُ وكربه، ويخشى اللقاء ويكرهه.

وواضح من بيان النبي- صلى الله عليه وسلم- لمعنى هاتين العبارتين أنه معنى إسلامي، مرتبط بجوانب غير لغوية في الأصل، لكنها غير بعيدة عنها.

فالموت يعني خروج الروح من الجسد وانتهاء الأجل، وذلك يترتَّب عليه لقاء الله، لكن الموت يُلازمه تبشير بالحال التي سيُقبِل عليها المحْتَضَر من نعيم ورضا أو عذاب وسخط؛ فيستلزم ذلك حُبَّ لقاء الله في الأول، وكُرْهَ لقائه في الأخير، يقول النووي: "هذا الحديث يفسر آخرُه أولَه، ويبين المراد بباقي الأحاديث المطلقة: (من أحب لقاء الله، ومن كره لقاء الله). ومعنى الحديث أن الكراهة المعتبرة هي التي تكون عند

---

(١)الجمهرة (جوز)، وينظر هذا الأصل أو ما يوافقه في تعليل التسمية في الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري /١٧٢، المخصص ٤٢٠/٣، المزهر ٢٩٣/١، الصحاح (جوز)، اللسان (جوز).

(٢) صحيح البخاري، حديث/٦١٤٢.

النزع في حالة لا تُقْبَل توبتُه ولا غيرُها، فحينئذ يُبَشَّرُ كل إنسان بما هو صائر إليه، وما أُعِدَّ له، ويُكْشَف له عن ذلك، فأهل السعادة يحبون الموت ولقاء الله لينتقلوا إلى ما أُعِدَّ لهم، ويحب الله لقاءهم: أي فيُجْزِل لهم العطاء والكرامة. وأهل الشقاوة يكرهون لقاءه لما علموا من سوء ما ينتقلون إليه، ويكره الله لقاءهم: أي يُبْعِدُهم عن رحمته وكرامته ولا يريد ذلك بهم. وهذا معنى كراهته– سبحانه– لقاءهم، وليس معنى الحديث أن سببَ كراهة الله– تعالى– لقاءهم كراهتُهم ذلك، ولا أن حبَّه لقاء الآخرين حبُّهم ذلك، بل هو صفة لهم"(١).

فهذا معنى حب لقاء الله وكُرهِ لقائه، وما ظنته أم المؤمنين– رضي الله عنها– من أن المراد في الحديث الموتُ– أَمْرٌ بعيد، ذلك أن كراهية الموت ثابتة للعباد: مُحسنِهم ومُسيئهم، قطع بذلك الحديثُ القدسيُّ، حيث يقول الله– عز وجل–: (وما تَرَدَّدْتُ عن شيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المؤمنِ؛ يَكْرَهُ الموتَ وأنا أَكْرَهُ مَساءَتَهُ)(٢).

وينبغي التنبُّه إلى أن السيدة عائشةَ– رضي الله عنها– قد استقرَّ هذا المعنى الأخير عندها بعد بيان النبي– صلى الله عليه وسلم– لها، يدل على ذلك تفسيرها هذا الحديث لشريح بن هانئ حين سمعه من أبي هريرة– رضي الله عنه–، ففي صحيح مسلم " عن شريح بن هانئ، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه)، قال: فأتيت عائشة، فقلت: يا أم المؤمنين، سمعت أبا هريرة يذكر عن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– حديثا، إن كان كذلك فقد هَلَكْنا، فقالت: إن الهالكَ مَن هَلَكَ بقول رسول الله– صلى الله عليه وسلم–، وما ذاك؟ قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه)، وليس منا أحدٌ إلا وهو يكره الموتَ، فقالت: قد قاله رسول الله– صلى الله عليه وسلم–، وليس بالذي تذهب إليه، ولكن إذا شَخَصَ البصرُ، وحَشْرَجَ الصدرُ، واقْشَعَرَّ الجِلْدُ، وتَشَنَّجَتِ الأصابعُ، فعند ذلك، من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه "(٣)، فعند هذه الحال يكون كلُّ أحد قد بُشِّر بما هو مقبِلٌ عليه من نعيم أو عذاب؛ فيترتَّبُ على ذلك حبُّ اللقاء أو كُرْهُهُ.

(١)شرح صحيح مسلم. ٩/١٧، وينظر: تفسير الكشاف، للزمخشري ٤٤٤/٣، إكمال المعلم بفوائد مسلم ١٨٢/٨، شرح المشكاة للطيبي ١٣٦٣/٤، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٩٢/٢٣، التنوير شرح الجامع الصغير ٥٨٩/٧.

(٢) صحيح البخاري، حديث /٦١٣٧.

(٣) صحيح مسلم، حديث /٢٦٨٥.

(حشر – محو) الحاشر والماحي

حدثنا إبراهيم بن المنذر، قال: حدثني معن عن مالك عن ابن شهاب عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم– : (لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمدُ، وأنا الماحِي الذي يمحو اللهُ بي الكُفْرَ، وأنا الحاشر الذي يُحْشَرُ الناسُ على قَدَمِي، وأنا العاقب)(١).

وفي رواية أخرى عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه– رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله– صلى الله عليه وسلم– يقول: (إن لي أسماءً: أنا محمد، وأنا أحمد، ... الحديث)(٢).

في هذا الحديث يبيِّن الرسول– صلى الله عليه وسلم– المراد باسمين من أسمائه الشريفة، دون سؤال من أحد، هذان الاسمان هما الحاشر والماحي، والدلالة– هنا– دلالة إسلامية وفيما يلي بيان ذلك.

الاسم الأول الحاشر: بيَّن الرسول– صلى الله عليه وسلم– أن المراد به الذي يُحْشَرُ الناسُ على قَدَمه، وهذه دلالة إسلامية متطورة عن الأصل اللغوي؛ ذلك أن أصل الحشر يرجع إلى معنى الجمع مع سَوْقٍ، يقول ابن فارس: " الحاء والشين وما بعدها معتل أصل واحد، وربما هُمِز فيكون المعنيان متقاربين أيضا. وهو أن يُودِعَ الشيءَ وعاءً باستقصاء "(٣)، ثم قال: " الحاء والشين والراء قريب المعنى من الذي قبله، وفيه زيادة معنىً، وهو السَّوْقُ والبَعْثُ والانبعاث. وأهل اللغة يقولون: الحَشْرُ: الجَمْعُ مع سَوْقٍ، وكلُّ جَمْعٍ حَشْرٌ. والعرب تقول: حَشَرَتْ مالَ بني فلان السَّنَةُ، كأنها جَمَعَتْهُ، ذهبتْ به وأَتَتْ عليه "(٤)، ويقول الراغب: " الحشر: إخراج الجماعة عن مَقَرِّهِم وإزعاجُهم عنه إلى الحرب ونحوها "(٥).

والدلالة المذكورة في الحديث لا تُخالف هذا الأصل اللغوي، بل تتوافق معه، وإن اختُلف في تعيين المراد بها، وسبب ذلك اختلافهم في بيان المراد بقوله في الحديث: (على قَدَمي)، يقول الخطابي: " فيه قولان: أحدهما: أنه أول من يُحْشَر من الخلق ثم يُحْشَر الناس على قَدَمِه: أي على أَثَرِه. ويدل على هذا المعنى روايةُ أبي خَيْثَمة عن

(١) صحيح البخاري، حديث /٣٣٣٩.
(٢) صحيح البخاري، حديث /٤٦١٤.
(٣) المقاييس (حشو/ي).
(٤) المقاييس (حشر).
(٥) المفردات (حشر).

سفيان عن الزهري عن محمد بن جبير عن أبيه أنه قال: (وأنا الحاشر الذي يُحشَر الناس على عَقِبي)(١). والآخر: أن يكون أراد بقَدَمِه عَهْدَهُ وزمانه. قال بعض أهل اللغة: يقال: كان ذلك على رِجْلِ فلانٍ وعلى قَدَمِ فلانٍ وعلى حَيِّ فلانٍ، أي في عهده وزمانه. وحكي عن الأصمعي قال: قال سعيد بن المسيب ذات يوم: إني رأيت في المنام موسى يمشي على البحر حتى صعد إلى قصر، ثم أخذ برِجْلِ شيطان فألقاه على البحر، وإني لا أعلم نبيا هلك على رِجْلِه من الجبابرة ما هلك على رِجْلِ موسى، وأظن هذا قد هلك، يعني عبد الملك بن مروان، فجاء نَعِيُّهُ بعد أربع. قال الأصمعي: قوله: على رِجْلِ موسى، أي في زمانه. والمعنى أن شريعته [أي سيدنا محمد– صلى الله عليه وسلم–] لا تُنْسَخُ إلى يوم القيامة "(٢)، وهذا المعنى يؤيده تفسير (العاقب) في رواية مسلم والترمذي واللفظ له: (وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي)(٣).

وقد جمع القاضي عياض عددا من الأقوال في الحديث فقال: " وفي الحديث (وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي) قيل: معناه على عهدي وزمني، أي ليس بعدي نبي إلى يوم القيامة والحشر، وقيل: يحشر الناس أمامي وقُدَّامِي، أي يجتمعون إليَّ يوم القيامة، وقيل: بَعْدِي، أي ليس ورائي إلا الساعة، وقيل، بعدي وأنا أول من يُبْعَث يوم القيامة وتُشَقُّ عنه الأرضُ "(٤)، وقال أبو موسى الأصفهاني: " أي يقدمهم وهم خلفه. وقيل: لأن الناس يحشرون بعد ملَّته دون ملَّة غيره "(٥)، وقال ابن الأثير: " أي الذي يُحْشَر الناس خلفه وعلى ملَّته دون ملَّة غيره "(٦).

الاسم الثاني الماحي: بيَّن الرسول– صلى الله عليه وسلم– أن المراد به الذي يمحو اللهُ به الكُفْرَ، وهذه– أيضا– دلالة إسلامية متطورة عن الأصل اللغوي؛ ذلك أن أصل المحو يرجع إلى معنى إزالة أثر الشيء وذهابه، يقول ابن فارس: " الميم والحاء والحرف المعتل أصل صحيح يدل على الذهاب بالشيء"(٧)، ويقول الراغب: " المحْو: إزالة الأثر، ومنه قيل للشَّمال مَحْوَةٌ؛ لأنها تمحو السحاب والأثر"(٨).

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده بهذا الإسناد وهذه الرواية، حديث /٧٣٩٥.

(٢)غريب الحديث للخطابي ١/ ٤٢٥.

(٣)صحيح مسلم، حديث /٢٣٥٤، سنن الترمذي، حديث /٢٨٤٠.

(٤)مشارق الأنوار على صحاح الآثار ٢١٣/١، وينظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم ٣٢١/٧، فتح الباري لابن حجر ٥٥٧/٦.

(٥)المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، لأبي موسى الأصفهاني ١/ ٤٥٢.

(٦)النهاية (حشر).

(٧)المقاييس (محو).

(٨)المفردات (محو).

والدلالة المذكورة في الحديث لا تُخالف هذا الأصل اللغوي، بل تتوافق معه وتسير على هديه وسَمْتِه، بالرغم مما بين العلماء من اختلاف في تحديد المراد بمحْو الكفرِ، والأصلُ اللغوي للتركيب يؤيد ما ذهبوا إليه، يقول النووي:" قال العلماء: المراد محو الكفر من مكة والمدينة وسائر بلاد العرب وما زُوِيَ له- صلى الله عليه وسلم- من الأرض وَوُعِدَ أن يبلغه ملك أمته(١). قالوا: ويحتمل أن المراد المحو العام، بمعنى الظهور بالحجة والغلبة(٢)،كما قال- تعالى-: ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾(٣). وجاء في حديث آخر تفسير الماحي بأنه الذي مُحِيت به سيئاتُ من اتبعه(٤)، فقد يكون المراد بمحو الكفر هذا، ويكون كقوله- تعالى-: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾(٥) والحديث الصحيح (الإسلام يهدم ما كان قبله)(٦)"(٧).

(دخن) **الدَّخَن**

حدثنا يحيى بن موسى، حدثنا الوليد قال: حدثني ابن جابر قال: حدثني بسر بن عبيد الله الحضرمي قال: حدثني أبو إدريس الخَوْلَانِيُّ أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله- صلى الله عليه وسلم- عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يُدْرِكَنِي، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشَرٍّ فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال: (نعم). قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال: (نعم، وفيه دَخَنٌ). قلت: وما دَخَنُهُ ؟ قال: (قوم يَهْدُونَ بغير هَدْيِي، تَعْرِفُ منهم وتُنْكِرُ). قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال: (نعم، دُعاةٌ إلى أبواب جهنم، مَنْ أَجابَهُمْ إليها قَذَفُوهُ فيها). قلت: يا رسول الله صِفْهُم لنا ؟ فقال: (هم من جِلْدَتِنَا ويتكلمون بألسنتنا). قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال: (تَلْزَمُ جماعةَ المسلمين

---

(١)ينظر: التنوير شرح الجامع الصغير ٤/ ٩٨.

(٢)ينظر: المنتقى شرح الموطأ لأبي الوليد سليمان الباجي ٧/ ٣٢٨.

(٣)التوبة /٣٣، الفتح /٢٨، الصف /٩.

(٤)روى البيهقي أن نافع بن جبير بن مطعم دخل على عبد الملك بن مروان، " فقال له عبد الملك: أتحصي أسماء رسول الله- صلى الله عليه وسلم- التي كان جبير بن مطعم يَعُدُّها؟ قال: " نعم، هي ستة محمد، وأحمد، وخاتم، وحاشر، وعاقب، وماحي فأما الحاشر: فبُعِثَ مع الساعة نذيرا لكم بين يدي عذاب شديد، وأما عاقب: فإنه عقب الأنبياء، وأما ماحي: فإن الله تعالى محا به سيئاتِ من اتبعه ". دلائل النبوة، للبيهقي ١٥٦/١.

(٥)الأنفال /٣٨.

(٦)روى مسلم في قصة إسلام عمرو بن العاص- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال له: (أما علمتَ أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله). صحيح مسلم، حديث/١٩٢.

(٧)صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ١٠٤، وينظر إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض ٧/ ٣٢١.

وإمامَهُم). قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال: (فاعتزل تلك الفِرَقَ كلَّها، ولو أن تَعَضَّ بأصل شجرة حتى يُدْرِكَكَ الموتُ وأنت على ذلك)(١).

أورد الإمام مسلم هذا الحديث في كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر(٢)، وأورده البخاري مرتين: الأولى: في كتاب المناقب، باب علامات النبوة، والأخرى: في كتاب الفتتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، وقد ذكر النبي– صلى الله عليه وسلم– في هذا الحديث بعض الأمور التي تحدُث بعد لحاقه بالرفيق الأعلى؛ حيث أخبر– هنا– أنه يأتي بعد الشرِّ خيرٌ، وفيه (دَخَنٌ)، وهنا يسأله حذيفة بن اليمان– رضي الله عنه– عن الدَّخَن فيجيبه– صلى الله عليه وسلم– بقوله: (قوم يَهْدُونَ بغير هَدْيِي، تَعْرِفُ منهم وتُنْكِرُ)، وهذه دلالة إسلامية متطورة عن الأصل اللغوي؛ ذلك أن " الدال والخاء والنون أصل واحد، وهو الذي يكون عن الوقود، ثم يُشَبَّهُ به كلُّ شيء يُشْبِهُهُ من عداوة ونظيرها. فالدخان معروف، وجمعه دواخن على غير قياس. ويقال دَخَنَتِ النارُ تَدخُن، إذا ارتفع دُخانها، ودَخِنَتْ تَدْخَن، إذا أُلقيت عليها حطبا فأفسدتها حتى يهيج لذلك دُخَانٌ، وكذلك دَخِنَ الطعامُ يَدْخَنُ. ويقال: دَخَنَ الغُبارُ: ارتفع. فأما الحديث: (هُدْنَةٌ على دَخَنٍ)(٣)، فهو استقرار على أمور مكروهة. والدُّخْنَة من الألوان: كُدْرَةٌ في سَواد "(٤)، ويقول الخليل: " وفي الحديث: (هُدنة على دَخَنٍ)، أي صلح واستقرار على أمورٍ مكروهة. وليلة دَخْنانةٌ: كأنما يغشاها دُخان من شدة حَرِّها وغَمِّها "(٥)، ويقول أبو عبيد: " قوله: (هدنة على دَخَنٍ) تفسيره في الحديث: لا ترجع قلوب قوم على ما كانت... وأصل الدَّخَن أن يكون في لون الدابة أو الثوب أو غير ذلك كُدُورة إلى سواد ... قوله: دَخَنٌ، يعني الكدورة وهو السواد، ولا أحسب الدَّخَن أُخِذَ إلا من الدخان، وهو شبيه بلون الحديد، فوجهه أنه

(١) صحيح البخاري، حديث /٣٤١١، وحديث /٦٦٧٣، وفيه (دعاة على أبواب جهنم) بدل (دعاة إلى أبواب جهنم).
(٢)صحيح مسلم ١٤٧٥/٣، حديث /١٨٤٧.
(٣) جزء من رواية الترمذي لحديث حذيفة– رضي الله عنه–، وفيه "إني قلتُ: يا رسولَ الله، أرأيتَ هذا الخيرَ الذي أعطانا الله أيكونُ بعدَهُ شرٌّ كما كان قبلَه؟ قال: (نعم). قلتُ: فما العِصْمَةُ من ذلك؟ قال: (السيفُ) –قال قتيبة في حديثه– قلت: وهل للسيف يعني من بقيّة؟ قال: (نعم)، قال: قلتُ: ماذا؟ قال: (هُدْنَةٌ على دَخَنٍ) ..." الحديث رقم ٤٢٤٤، سنن الترمذي.
(٤) المقاييس (دخن)، وينظر الجذر (دخن) في الجمهرة، التهذيب، الصحاح، الأساس، المصباح، اللسان، التاج.
(٥) العين (دخن).

يقول: تكون القلوب هكذا لا يصفو بعضها لبعض، ولا ينصع حبها كما كانت، وإن لم تكن فيهم فتنة "(١).

فهذه الأقوال والاستعمالات تبيِّن أن الدَّخن في أصل استعمال اللغة مأخوذ من الدخان، وفيه كُدرة وعدم صفاء، والمعنى الذي ذكره النبي- صلى الله عليه وسلم- يتناسب مع هذا الأصل اللغوي؛ ذلك أنه أخبر بحصول الخير بعد الشر، لكن هذا الخير فيه (دَخَنٌ)، وفسَّره بقوله: (قوم يَهْدُونَ بغير هَدْيِي، تَعْرِفُ منهم وتُنْكِرُ)، فالزمان زمان خير، لكن فيه ما يُعَكِّر صَفْوَ هذا الخير ويُكَدِّره، وهو هؤلاء القوم الذين يهدون بغير هديه من أهل البِدَع والزيغ، ففيهم جانب من الخير اختلط به جانب من الشر فعكَّر صفوه، ويدل على وجود الخير فيهم وصفهم بأنهم (تعرف منهم وتُنكر)، وبذلك لم يَصْفُ خيرُهم فصار كالدخن، فلا فهو أبيض ناص، ولا هو أسود فاحم، إنما هو خليط بينهما، يقول الطيبي: "(تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ)، أي ترى فيهم ما تعرفه أنه من ديني، وترى منهم أيضا ما تنكر أنه من ديني ... تعرف منهم المنكرَ بأن يصدر المنكر عنهم، وتُنْكِرُهم خبرٌ بمعنى الأمر، أي أَنْكِرْ عليهم صدورَ المنكر عنهم. أقول: الوجه الأول راجع إلى معنى قوله: (نعم، وفيه دخن) أي تعرف فيهم الخيرَ فتَقْبَلُ، والشرَّ فَتُنْكِرُ، فهو من المقابلة المعنوية. والوجه الثاني راجع إلى قوله: (يَسْتَنُّونَ [بغير](٢) سُنَّتِي)(٣)، فالوجه أن يكون المعطوف والمعطوف عليه كلاهما في معنى الأمر. أي اعرِفْ منهم ذلك وأَنْكِرْ "(٤)، وذكر القسطلاني عن القاضي عياض قوله: " المراد بالشر الأول الفتن التي وقعت بعد عثمان، وبالخير الذي بعده ما وقع في خلافة عمر بن عبد العزيز، وبالذين تعرف منهم وتنكر الأمراءُ بعده، فكان فيهم من يتمسك بالسُّنّة والعدل، وفيهم من يدعو إلى البدعة ويعمل بالجور "(٥)، فهذا الذي يتمسك بالعدل هو المراد بقوله (تعرف)، وهذا الذي يدعو إلى البدعة ويعمل بالجور هو المراد بقوله (تُنْكِر).

---

(١)غريب الحديث لأبي عبيد لقاسم بن سلام ٢/ ٢٦٢، وينظر: الفائق في غريب الحديث ٤/ ٩٥، مشارق الأنوار على صحاح الآثار ١/ ٢٥٥، غريب الحديث لابن الجوزي ١/ ٣٢٩، النهاية في غريب الحديث والأثر (دخن).

(٢) في الأصل (يستنون بسنتي) وهو غير موافق لنص الحديث ولا للمعنى الوارد في كلام الطيبي، وبالتصويب يستقيم الكلام.

(٣)في رواية لمسلم: " قلت: فهل وراء ذلك الخير شرٌّ؟ قال: (نعم)، قلت: كيف؟ قال: (يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهُدَاي، ولا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس)". صحيح مسلم، حديث /١٨٤٧.

(٤) شرح المشكاة للطيبي ١١/ ٣٤٠٤، وينظر: فتح الباري لابن حجر ٣٦/١٣، عمدة القاري لابن رجب ١٤٠١/١٦، ١٩٤/٢٤.

(٥) إرشاد الساري ١٨٣/١٠.

(رضي) الرِّضا

سبق الحديث عنه عند الحديث عن الإذن

(روح) مُسْتَرِيحٌ – مُسْتَرَاحٌ منه

عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري أنه كان يحدث أن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– مُرَّ عليه بجنازة فقال: (مُسْتَرِيحٌ ومُسْتَرَاحٌ منه). قالوا يا رسول الله ما المستريح والمستراح منه ؟ قال (العبد المؤمن يَسْتَرِيحُ من نَصَبِ الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يَسْتَرِيحُ منه العبادُ والبلادُ والشجرُ والدوابُّ)(١).

في هذا الحديث سُئل النبي– صلى الله عليه وسلم– عن المراد بـــ (المستريح والمستَراح منه)، فبيَّن أن المستريح هو العبد المؤمن الذي يستريح بالموت من نصَبِ الدنيا وأذاها؛ ذلك أنه انتقل إلى رحمة الله– تعالي– ورضوانه.

أما المستراح منه فذلك العبد الفاجر الذي يستريح العباد والبلاد والشجر والداب من سوئه وأذاه.

والواو في قوله: (مستريح ومستراح منه) ليست للجمع، وإنما هي للتنويع، فالميت أحد اثنين: مستريح أو مستراح منه، يقول ابن حجر: " قوله: (مستريح ومستراح منه) الواو فيه بمعنى أو، وهي للتقسيم على ما صرَّح بمقتضاه في جواب سؤالهم "(٢)، ويقول مُلّا علي القاري: " أو للتنويع، أو للترديد، واقتصر ابن حجر على الأول، أي: لا يخلو الميت عن أن يكون من أحد هذين القسمين، فعلى الأول يراد بالميت الجنس استطرادا، وعلى الثاني الحاضر "(٣)، فلفظ المستريح للمؤمن، ولفظ المستراح منه للفاجر، ومعلوم أن الميت لا يكون الاثنين معا، فهو إما مؤمن وإما فاجر.

وأذكر هنا تعليق علي القاري على الحديث لما فيه من بسط وتوضيح، حيث قال: "قال الطيبي: استراح الرجل وأراح إذا رجعت إليه نفسه بعد الإعياء. فقالوا: يا رسول الله، ما المستريح؟ وما المستراح منه؟ أي: ما معناها، أو (ما) بمعنى مَنْ. فقال: (العبد المؤمن يستريح) أي: يجد الراحة بالموت (من نَصَبِ الدنيا) أي: تعبها بالأعمال التكليفية والأحوال الكونية التقديرية.(وأذاها) أي: من الحر والبرد، أو أذى أهلها.(إلى رحمة الله) أي: ذاهبا واصلا إليها، ومن ثَمَّ قال مسروق: ما غبطت شيئا

(١) صحيح البخاري، حديث /٦١٤٧.

(٢)فتح الباري، لابن حجر ٣٦٤/١١.

(٣)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري ٦٩/٤.

بشيء كمؤمن في لَحْدِه ; أَمنَ من عذاب الله، واستراح من الدنيا. قال أبو الدرداء: أُحِبُّ الموتَ اشتياقا إلى ربي، وأُحِبُّ المرضَ تكفيرا لخطيئتي، وأُحِبُّ الفقرَ تواضعا لربي. (والعبد الفاجر) وهو أعم من الكافر.(يستريح منه) أي: من شره.(العبادُ) من جهة أنه حين فعل منكرًا: إن منعوه آذاهم وعاداهم، وإن سكتوا عنه أَضَرَّ بدينهم ودنياهم. (والبلادُ) من العمارات والفلوات.(والشجرُ) أي: النباتات.(والدوابُ) أي: الحيوانات. قال الطيبي: استراح البلادُ والأشجارُ؛ لأن الله– تعالى– بفَقْدِه يُرسل السماء مدرارا، ويُحيي به الأرضَ بعد ما حَبَسَ لشؤمِه الأمطارَ "(١).

وهذان المعنيان اللذان ذُكِرا في الحديث معنيان إسلاميان يتفقان مع البناء الصرفي والأصل اللغوي.

أما البناء الصرفي، فالأول: (مستريح) اسم فاعل من الفعل (استراح)، والألف والسين والتاء للطلب، فكأن الميت المؤمن طلب بالموت الراحة من نصَبِ الدنيا وأذاها؛ ذلك أنه انتقل إلى رحمة الله– تعالي– ورضوانه.

والثاني: (مستراح منه) اسم مفعول من الفعل نفسه، ولكن المعنى غير راجع إلى الميت ذاته، إنما يرجع إلى الكون من حوله، من عباد وبلاد وشجر ودواب، فكأن الكون كله يطلب الراحة بموته.

وأما الأصل اللغوي فذكر ابن فارس أن " الراء والواو والحاء أصل كبير مطرد، يدل على سعة وفسحة واطراد "(٢)، وذكر الدكتور جبل أن المعنى المحوري للتركيب (روح) فيه "انبساطٌ أو اتساع وانتشار مع شمول ولطف ما استواء أو نحوه "(٣)، ثم قال: " ومن الأصل الراحة ضد التعب (من انبساط النفس وسَعَتِها وخِفَّتِها)، أراحَ وارْتاح واسْتَراح. والرَوَاح: العودة للراحة في المُراح عَشِيًّا، من هذا، أو من العَوْد إلى المقر، وهو انبساطٌ وحُلول "(٤)، واستعمالات التركيب تدل على ما ذكرا من معنى جامع، من ذلك قول الخليل: " والراحة: وِجْدَانُك رَوْحًا بعد مشقة، تقول: أَرِحْنِي إراحة فأستريح ... والترويحة للصلاة سميت به لاستراحة القوم بين كل أربع ركعات "(٥)، ويقول ابن فارس:" ويقال للميت إذا قضى: قد أراح. ويقال أراح الرجل، إذا رجعت

(١)السابق.
(٢)المقاييس (روح).
(٣)المعجم الاشتقاقي (روح).
(٤)السابق.
(٥)العين (روح).

إليه نَفْسُه بعد الإعياء "(١)، ويقول ابن سيده: " والرَّوَاحُ والراحةُ والمرايَحَةُ والرَّويحةُ والرَّواحةُ: وِجْدَانُك الفُرْجَة بعد الْكُرْبَة ... والراحة: ضد التعب، وأراح الرجلُ والبعيرُ وغيرهما. وقد أَراحَنِي ورَوَّحَ عنِّي فاسترحت. وقال اللحياني: أراح الرجل: استراح، وأراح الرجل: مات، كأنه استراح "(٢)، ويقول الزمخشري: " وأرحتُه من التعب فاستراح. واسْتَرْوَحْتُ إلى حديثه. وتقول: أراحَ فأراحَ، أي مات فاستُرِيحَ منه "(٣).

فهذه الاستعمالات وغيرها تؤكد توافُقَ المعنى الوارد في الحديث الشريف لكلمتي (مستراح ومستراح منه) مع معطيات المعني اللغوي لتركيب (روح)، ومعطيات البناء الصرفي كذلك.

(سكن) المِسْكِين

حدثنا إسماعيل بن عبد الله قال: حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة – رضي الله عنه– أن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– قال: (ليس المسكينُ الذي يطوف على الناس تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتانِ والتَّمْرَةُ والتَّمْرَتانِ، ولكنِ المسكينُ الذي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيه، ولا يُفْطَنُ به فيُتَصَدَّقَ عليه، ولا يقومُ فيَسْأَلَ الناسَ).(٤)

حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا شعبة، أخبرني محمد بن زياد قال: سمعت أبا هريرة– رضي الله عنه– عن النبي– صلى الله عليه وسلم– قال: (ليس المسكين الذي تَرُدُّهُ الأُكْلَةُ والأُكْلَتَانِ، ولكنِ المسكينُ الذي ليس له غِنًى ويَسْتَحْيِي، أو لا يَسْأَلُ الناسَ إِلْحَافًا).(٥)

حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر، قال: حدثني شريك بن أبي نمر أن عطاء بن يسار وعبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري قالا: سمعنا أبا هريرة– رضي الله عنه– يقول: قال النبي– صلى الله عليه وسلم–: (ليس المسْكِينُ الذي تَرُدُّه التَّمْرَةُ والتَّمْرَتَانِ، ولا اللُّقْمَةُ ولا اللُّقْمَتانِ، إنما المسْكِينُ الذي يَتَعَفَّفُ. واقْرَؤُوا إن شِئْتُمْ). يعني قوله: ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحافًا (٦)﴾.(٧)

(١)المقاييس (روح).
(٢)المحكم (روح)،
(٣)أساس البلاغة (روح).
(٤) صحيح البخاري، حديث /١٤٠٩.
(٥) صحيح البخاري، حديث /١٤٠٧.
(٦) البقرة /٢٧٣.
(٧) صحيح البخاري، حديث /٤٢٦٥.

هذه أحاديث ثلاثة بيَّن النبي- صلى الله عليه وسلم- فيها المراد بالمسكين، وقد اختلفت عباراته- صلى الله عليه وسلم- في الدلالة على المعنى المراد طولا وقِصَرا، تفصيلا وإجمالا، وإن كان الحديث الأول أوفاها؛ حيث يتحقق في وصف المسكين أمور ثلاثة:

الأول: أنه لا يجدُ ما يُغْنِيه.

الثاني: أنه متعفِّفٌ عن السؤال، لا يطلب من الناس شيئا.

الثالث: أنه مستور الحال بسبب تعفُّفه؛ بحيث لا يُفْطَنُ له، فهو متخفٍّ لا يعلم الناس حاله، تحقَّق فيه قول الله- تعالى-: ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾.(١)

وهذه المعاني متوافقة مع أصل الاستعمال اللغوي لتركيب (سكن)، يقول ابن فارس: " السين والكاف والنون أصل واحد مطرد، يدل على خلاف الاضطراب والحركة. يقال سكن الشيء يسكن سكونا فهو ساكن "(٢)، فجعل أصل التركيب خلاف الحركة والاضطراب، وهذا متحقق في المسكين؛ ذلك أنه قاعد عن الحركة، ممسك عن الطلب وسؤال الناس، عاجز عن الكسب، خاضع مستكين مستسلم راضٍ، غير متضجر ولا ساخط، وهذا هو الأصل في استعمال المسكين، يقول ابن الأثير: " قد تكرر في الحديث ذِكْرُ (المسكين والمساكين والمسْكَنة والتَّمَسْكُن) وكلها يدور معناها على الخضوع والذلة، وقلة المال، والحال السيئة. واستكان إذا خضع "(٣)، ويقول ابن منظور: " السكون ضد الحركة ... والمِسكين والمسْكِين [بفتح الميم] الأخيرة نادرة؛ لأنه ليس في الكلام مَفْعِيلٌ: الذي لا شيء له، وقيل: الذي لا شيء له يكفي عياله، قال أبو إسحق: المسكين الذي أَسْكَنَه الفقرُ، أي قَلَّلَ حركَتَهُ، ... وأصل المسكين في اللغة الخاضع ... قال محمد بن المكرم: وقد استعاذ سيدنا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- من الفقر. قال: وقد يمكن أن يكون من هذا قولُه- سبحانه- حكاية عن الخَضِر- عليه السلام-: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾(٤)، فسماهم مساكين لخضوعهم وذُلِّهم من جَوْرِ الملك الذي يأخذ كل سفينة وجدها في البحر غصبا، وقد يكون المسكين مُقِلًّا ومُكْثِرًا؛ إذ الأصل في المسكين أنه من المسْكَنة، وهو الخضوع

(١) البقرة /٢٧٣.

(٢) المقاييس (سكن).

(٣) النهاية (سكن).

(٤) الكهف /٧٩.

والذل "(١)، ويقول ابن الأنباري: " المسكين في كلام العرب الذي سَكَّنَه الفقرُ، أي قَلَّلَ حَرَكَتَهُ، واشتقاقه من السكون، يقال: قد تَمَسْكَنَ الرجلُ وتَسَكَّنَ، إذا صار مسكينا "(٢)، ويقول الدكتور جبل: " والمسكين فيه سُكونٌ: استكانةٌ وضعفٌ عن المكافحة؛ لعجز أو مرض أو فَقْرٍ مُعْجِزٍ "(٣).

فهذه الاستعمالات– وغيرها كثير– يؤكد توافق المعنى الوارد في الحديث النبوي الشريف لكلمة (المسكين) مع المعنى الأصلي لتركيب (سكن) واستعمالاته في اللغة.

(سلم – هجر) **المسلم – المهاجر**

عن عبد الله بن عمرو– رضي الله عنهما– عن النبي– صلى الله عليه وسلم– قال: (المسلم مَنْ سَلِمَ المسلمون من لِسانِه ويَدِه، والمهاجر مَنْ هَجَرَ ما نَهَى اللهُ عنه)(٤).

في هذا الحديث يبيِّن الرسول– صلى الله عليه وسلم– المراد بكل من المسلم والمهاجر، والكلمتان– هنا– فيهما تطور دلالي؛ حيث اكتسبتا دلالتين متطورتين عن الأصل اللغوي الذي تُستعملان فيه في أصل كلام العرب، شأنهما في ذلك شأن كثير من الألفاظ التي سماها ابن فارس بالأسباب الإسلامية(٥).

أما اللفظ الأول فـــ (المسلم)، وهو اسم فاعل من الرباعي (أسلم) إذا انقاد وخضع، يقول ابن فارس: " السين واللام والميم معظم بابه من الصحة والعافية، ويكون فيه ما يشذ، والشاذ عنه قليل، فالسلامة: أن يَسْلَم الإنسانُ من العاهة والأذى. قال أهل العلم: الله– جل ثناؤه– هو السلام؛ لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء ... ومن الباب أيضا الإسلام، وهو الانقياد؛ لأنه يَسْلَم من الإباء والامتناع "(٦).

ونجد لهذا اللفظ دلالتين إسلاميتين متطورتين عن هذا الأصل اللغوي:

الأول: المسلم: وهو الذي دخل الإسلام وصار من جملة المسلمين، وما أُطلِق عليه هذا الاسم إلا لأنه خضع وانقاد لأمر الله، يقول أبو بكر الأنباري: " وقولهم: رجلٌ مُسْلِمٌ. قال أبو بكر: فيه قولان: قال قوم: المسلم: المخلِص لله العبادةَ. وقالوا: هو مأخوذ من قول العرب:قد سَلِمَ الشيءُ لفلان،إذا خَلَصَ له. قال الله–جل ثناؤه–:

(١) اللسان (سكن).

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ١٨/ ٥٢.

(٣) المعجم الاشتقاقي (فقر).

(٤) صحيح البخاري، حديث /١٠، ٦١١٩.

(٥) ينظر الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها /٧٨.

(٦)المقاييس (سلم).

﴿ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾(١)، معناه: خالصاً لرجل. وقال قوم: المسلم معناه: المستسلم لأمر الله، المتذلل له. واحتجوا بقول الشاعر:

فقلنا أَسْلِموا إنّا أخوكم فقد بَرِئَتْ من الإحَنِ الصدورُ (٢)

أراد: فقلنا استسلموا. قالوا: فالمسلم الذي يعتقد الاستسلام لله والإيمانَ به محمودٌ، والمسلم الذي يستسلم خوفا من القتال مذمومٌ "(٣)، ويقول الأزهري: " فالإسلام: إظهار الخضوع والقبول لما أتى به الرسول- عليه السلام-، وبه يُحْقَنُ الدمُ "(٤)، ويقول الدكتور جبل: " أسلم الشيءَ إليه: دفعه إليه (كلَّه أو سالما). وكذا سلّمه ... وقريب منه معنى الانقياد؛ لأنه تسليم نَفْسٍ، ومنه تسليم النفْس لله ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾(٥): استسلم وانقاد، وهو معنى ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾(٦). وبهذا المعنى كل صيغة (أسلم) ماضيها ومضارعها وأمرها ومصدرها واسم الفاعل منها"(٧).

فهذه الاستعمالات تؤكد توافق المعني الشرعي لكلمة (المسلم) مع المعنى اللغوي.

الثاني: المسلم الوارد في هذا الحديث، وهو (مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده)، وفي هذا المعنى يقول الأزهري: " وروي عن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (المسلم مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده)، قلت: فمعناه: أنه دخل في باب السلامة حتى يُسَلِّم المؤمنين من بوائقه "(٨)، ويقول القاضي عياض: " وقوله: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده): أي الكامل الإسلام والجامع لخصاله من لم يُؤْذِ مسلماً بقولٍ ولا فعلٍ؛ إذ أكثر الأفعال بالأيدي؛ فأضيفت عامتها إليها. وهذا من جامع كلامه، وفصيحه، ومحاسنه، ولا يُفْهَم من هذا أن من ليس بهذه الصفة ليس بمسلم. وهو كما يقالُ: المالُ الإبل، والناسُ العرب، على التفضيل لا على الحصر "(٩)، فجعل المراد

---

(١) الزمر /٢٩.

(٢) البيت في ديوان العباس بن مرداس السلمي /٧٠.

(٣) الزاهر في معاني كلمات الناس ١٠٦/١، وينظر التهذيب (سلم).

(٤)التهذيب (سلم).

(٥) آل عمران / ٨٣.

(٦) آل عمران / ١٩.

(٧)المعجم الاشتقاقي (سلم).

(٨)التهذيب (سلم).

(٩)إكمال المعلم بفوائد مسلم ١/ ٢٧٦.

بالمسلم– هنا– هو المسلم الأفضلُ والكاملُ الإسلامِ؛ فما دام المرءُ قد أسلم فينبغي أن يَسْلَم المسلمون من جميع أذاه، وغالب ذلك يكون باللسان واليد.

وأما اللفظ الثاني فـ (المهاجر)، حيث بيَّن النبي– صلى الله عليه وسلم– أنه (مَنْ هَجَر ما نهى اللهُ عنه)، وهذا المعنى متوافق مع أصل الاستعمال اللغوي لتركيب (هجر)، يقول الخليل: " والهَجْر والهُجْران: تَرْكُ ما يلزمك تَعَهُّدُه، ومنه اشْتُقَّتْ هجرةُ المهاجرين؛ لأنهم هجروا عشائرهم فتقطعوهم في الله "(١)، ويقول الأزهري: " وأَصل المهاجَرة عند العرب: خروج البدوي من باديته إلى المدن. يقال: هاجرَ الرجلُ، إذا فعل ذلك، وكذلك كل مُخْلٍ بِمَسْكَنِه مُنْتَقِلٍ إلى دار قوم آخرين؛ لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم التي بها نشئوا بها لله، ولحقوا بدار قوم ليس لهم بها أهل ولا مال حين هاجروا إلى المدينة، وكذلك الذين هاجروا إلى أرض الحبشة. فكل من فارَقَ رِباعَهُ من بَدَوِيٍّ أو حَضَرِيٍّ وسكَنَ بلدا آخر فهو مُهاجِرٌ، والاسم منه الهِجْرَة "(٢)، وقال ابن سيده: " والهِجْرَة والهَجْرَة: الخروج من أرض إلى أرض. وهاجَرَ: خرج من أرض إلى أخرى. وهاجَرَ أرضَه وقومَه: باعَدَهم ... وهَجَرَ الشيءَ وأَهْجَرَهُ: تَرَكَهُ "(٣)، وذكر ابن دريد وابن فارس أن الهَجْرَ ضدُّ الوصل، يقول ابن فارس: " الهاء والجيم والراء أصلان: يدل أحدهما على قطيعة وقطع، والآخر على شَدِّ شيءٍ ورَبْطِه. فالأول الهَجْرُ: ضد الوصل، وكذلك الهُجران. وهاجر القوم من دار إلى دار: تركوا الأولى للثانية، كما فعل المهاجرون حين هاجروا من مكة إلى المدينة "(٤).

هذه النصوص تبيِّن أن التركيب يدور في فلك معنيين: أحدهما حسي، وهو الانتقال من بلد إلى بلد، والآخر معنوي، وهو القطع والتَّرْك، والمعنيان مرتبطان ارتباطا واضحا؛ فالانتقال من بلد إلى بلد ما هو إلا تَرْكٌ للبلد الأول وقَطْعُ ما بينك وبينه.

وبهذا يصح حَمْل المعنى الوارد في الحديث (والمهاجر مَنْ هَجَر ما نهى اللهُ عنه)، على المهاجر الذي انتقل من بلده إلى بلد آخر، فالأول معنوي، انتقل مما نهى الله عنه إلى ما أمر الله به، والآخَر حسيٌّ، انتقل من بلده إلى بلد آخر.

ويصح حَمْلُه أيضا على المعنى الآخر– القطع والتَّرْك–، وهو أولى؛ فالمهاجر (هَجَرَ ما نهى اللهُ عنه) أي تركه وقطع ما بينه وبين المنهيِّ عنه من صلة.

---

(١)العين (هجر).

(٢)التهذيب (هجر).

(٣)المحكم (هجر).

(٤)المقاييس (هجر)، وينظر (هجر) في الجمهرة والنهاية.

(شدد – صرع) الشديد – الصُّرَعة

عن أبي هريرة- رضي الله عنه-: أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: (ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عند الغَضَبِ)(١).

في هذا الحديث ينفي النبي- صلى الله عليه وسلم- أن يكون المراد بالرجل الشديد ما يعتقده الناس من أنه (الصُّرَعة)، وإنما هو الذي يملك نفسه عند الغضب، وهذا تطور دلالي لكلمة الشديد على ما يأتي بيانه- إن شاء الله-.

وقد أورد البخاري- رحمه الله- رواية أخرى للحديث، جعلت التفسير الوارد في الحديث إنما هو لكلمة (الصُّرَعة) وليس لكلمة الشديد، وذلك في قوله: " باب قول النبي- صلى الله عليه وسلم-: (إنما الْكَرَمُ قَلْبُ المؤْمِنِ)، وقد قال: (إنما المفْلِسُ الذي يُفْلِسُ يومَ القيامة). كقوله: (إنما الصُّرَعَةُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عند الغَضَبِ)(٢).

والصُّرَعَة هو الذي لا يصرَعه الرجالُ، كما جاء بيانُ ذلك في رواية مسلم عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-، وفيه: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: (فما تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فيكم؟) قال: قلنا: الذي لا يَصْرَعُهُ الرِّجالُ، قال: (ليس بذلك، ولكنه الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عند الغَضَبِ)(٣).

وبهذا يكون عندنا كلمتان جاء بيان معنييهما في حديث النبي- صلى الله عليه وسلم- بلفظ واحد، هما (الشديد والصُّرَعَة).

أما الكلمة الأولى فالشديد، وقد نفى الرسول- صلى الله عليه وسلم- أن يكون المراد به المعنى المتبادِر إلى أذهان الناس، وهو الذي لا يَصْرَعُهُ الرِّجالُ، بل يصرعهم هو؛ فهذا هو المعنى الحسي للشِّدَّة، وهو أمر يسير يستطيعه كثير من الناس، خاصة إذا توفَّرَت قوةٌ بدنيَّة تُمَكِّن من مصارعة الرجال والتغلُّب عليهم، وما أكثر هؤلاء!

وإنما الشِّدَّة الحقيقية أمر معنوي، يتمكَّن الإنسان معه من ضبط انفعالاته، والتحكُّم في سلوكياته؛ وامتلاك نفسه والسيطرة عليها عند الغضب؛ بحيث لا يتخطى حدود الله، ولا يتجاوز هدي رسوله- صلى الله عليه وسلم-، ولا يأتي من الأفعال ما يُنْكِرُه عليه العُرْفُ والتقاليد الاجتماعية، وكل ذلك لا يستطيعه إلا قِلَّة من الناس، بل آحادهم؛ ذلك

---

(١) صحيح البخاري، حديث /٥٧٦٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي- صلى الله عليه وسلم- (إنما الكرم قلب المؤمن)، رقم الباب (١٠٢)، ٢٢٨٦/٥.

(٣)صحيح مسلم، حديث /٢٦٠٨.

أن الأمور المعنوية أشد على النفس وأصعب من الأمور الحسية؛ لذلك كان هذا المعنى المرضيَّ عند رسول الله– صلى الله عليه وسلم– حين بيَّن أن المراد بالشديد (الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عند الغَضَبِ).

وهذا المعنى يتناسب مع المعنى اللغوي لتركيب (شدد)، يقول ابن فارس: "الشين والدال أصل واحد يدل على قوة في الشيء، وفروعه ترجع إليه "(١)، ويقول الراغب: " الشَّدُّ: العقد القويّ. يقال: شَدَدْتُ الشّيءَ: قوّيتَ عَقْدَه، ... والشَّدَّةُ تستعمل في العَقْدِ، وفي البَدَن، وفي قوى النّفس، وفي العذاب "(٢)، ويقول الدكتور جبل: " المعنى المحوري [لتركيب (شدد)]: صلابة الشيء لوثاقة أثنائه أو انضغاط بعضها ببعض عَقْدًا أو نحوه مع الجفاف وعدم الرخاوة– كصلابة الحَبّ، وكالشيء الشديد– وإيثاق العُقْدَةِ "(٣)، والشديد الذي يملك نفسه عند الغضب فيه قوة في قلبه، وصلابة في عزمه؛ فلا يبرح ما يُمْليه عليه الشرعُ، ولا يفارق ما يوجِبُه عليه العقلُ من لزوم جانب الحق عند غضبه وثورة انفعالاته، إنما هو مالكٌ نفسَه " فيحكم لجامَها، ويَزُمُّ لسانَه، ويَكُفُّ جوارحَه؛ لأن من لم يملك نفسه عند الغضب، كان في قهر الشيطان وأَسْرِه، ذليلٌ ضعيفٌ، يَطيرُ به الشيطانُ كل مَطار "(٤).

وأما الكلمة الأخرى (الصُّرَعة) فقد فسَّرها النبي– صلى الله عليه وسلم– باللفظ نفسه، وهو (الذي يملك نفسه عند الغضب)، قال ابن الأثير شارحا هذا الحديث: "الصُّرَعة– بضم الصاد وفتح الراء–: المبالِغ في الصراع الذي لا يُغْلَب، فنقَلَه إلى الذي يَغْلِب نَفْسَه عند الغضب ويقهرها، فإنه إذا مَلَكَها كان قد قهر أقوى أعدائه وشَرَّ خصومه، ولذلك قال: (أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك)(٥). وهذا من الألفاظ التي نقلها عن وضعها اللغوي لضرب من التوسع والمجاز، وهو من فصيح الكلام؛ لأنه لما كان الغضبان بحالة شديدة من الغيظ، وقد ثارت عليه شهوةُ الغضب، فقهرها

(١)المقاييس(هجر).

(٢)المفردات (هجر).

(٣)المعجم الاشتقاقي (هجر).

(٤)التنوير شرح الجامع الصغير ٣٦٩/٤.

(٥)يقول الحافظ العراقي: " حديث (أَعْدَى عَدُوِّك نَفْسُك التي بين جَنْبَيْك). أخرجه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوَضّاعين اهـ." المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، للحافظ العراقي /٨٧٨، (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين للغزالي).

بحلمه، وصرعها بثباته، كان كالصُّرَعة الذي يصرَع الرجالَ ولا يَصْرَعونه "(١)، ويقول ابن حجر: " أعدى عَدُوٍّ للشخص شيطانُه ونفسُه، والغضبُ إنما ينشأ عنهما، فمن جاهدهما حتى يغلبهما مع ما في ذلك من شدة المعالجة- كان لقهر نفسه عن الشهوة أيضا أقوى "(٢).

(صرع) الصُّرَعَة

سبق الحديث عنه عند الحديث عن الشديد.

(ضيع) إضاعة الأمانة

عن أبي هريرة قال: بينما النبي- صلى الله عليه وسلم- في مجلس يُحَدِّث القومَ جاءه أعرابيٌّ فقال: متى الساعة ؟ فمضى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يُحَدِّث، فقال بعض القوم: سَمِعَ ما قال فَكَرِهَ ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه قال: (أين- أراه- السائلُ عن الساعة)؟ قال: ها أنا يا رسول الله. قال: (فإذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانتظر الساعة). قال: كيف إضاعتها ؟ قال: (إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة)(٣).

وفي لفظ آخر عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- (إذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانتظر الساعة). قال: كيف إضاعَتُها يا رسول الله ؟ قال: (إذا أُسْنِدَ الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة)(٤).

في هذا الحديث يُسأل النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- عن كيفية إضاعة الأمانة فيبيِّن أن ذلك بكون بتوسيد الأمر إلى غير أهله، وفي الرواية الأخرى يعبِّر عن ذلك بالإسناد بدل التوسيد.

وفي إجابة النبي- صلى الله عليه وسلم- هنا تطور دلالي لمعنى (إضاعة الأمانة)، وهذا من الدلالات الإسلامية، وبيان ذلك أن حقيقة الضياع تدل على فوات الشيء وذهابه وهلاكه، يقول ابن فارس: " الضاد والياء والعين أصل صحيح يدل على فَوْتِ الشيء وذهابه وهلاكه. يقال: ضاع الشيءُ يَضيع ضَياعًا وضَيْعَةً، وأَضَعْتُهُ أنا

---

(١)النهاية (صرع)، وينظر شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢٩٦/٩، لسان العرب (صرع)، شرح المشكاة للطيبي ٣٢٤٣/١٠، فتح الباري لابن حجر ١٠/ ٥١٩.

(٢)فتح الباري ٥٢٠/١٠. وقد جاء ذلك في شرحه لهذا الحديث معلِّقا به على حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رجلا قال للنبي- صلى الله عليه وسلم-: أوصني. قال: (لا تغضب). فردد مرارا. قال: (لا تغضب). صحيح البخاري، حديث /٥٧٦٥.

(٣) صحيح البخاري، حديث /٥٩.

(٤) صحيح البخاري، حديث /٦١٣١.

إِضَاعَةً"(١)، ويقول ابن سيده: " والضَّيْعَة والضَّيَاعُ: الإهمال"(٢)، ويقول ابن منظور: " ضاع الشيءُ يَضيع ضَيْعَةً وضَيَاعًا- بالفتح-: هَلَكَ "(٣)، وإضاعة الأمانة- كما جاء تفسيرها في الحديث بأنها توسيد الأمر وإسناده لغير أهله- ما هو إلا تفويت لحق الأمانة، وإهلاك لها، وذهاب بها إلى غير وجهها الذي أراده الشرع.

والمراد بالأمر- في الحديث- جميعُ ما يتعلق بأحكام الولاية ورعاية مصالح المسلمين، يقول الكرماني: "والمراد من الأمر جنسُ الأمور التي تتعلق بالدين، كالخلافة والقضاء والإفتاء"(٤)، ويقول أيضا: " أُسْنِدَ الأمرُ، أي: فُوِّضُ المناصبُ إلى غير مستحقيها، كتفويض القضاء إلى غير العالم بالأحكام "(٥)،

ويعلِّق ابن بطال على الحديث بقوله: " وقوله: (إذا ضُيِّعَت الأمانةُ فانتظر الساعة) هو كلام مُجْمل، أَحَبَّ الأعرابيُّ السائلُ النبيَّ- عليه السلام- شرحَهُ له فقال له: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: (إذا أُسْنِد الأمرُ إلى غير أهله)، فأجابه- صلى الله عليه وسلم- بجواب عامٍّ، دَخَلَ فيه تضييعُ الأمانة، وما كان في معناها مما لا يجرى على طريق الحق، كاتخاذ العلماءِ الجُهَّالِ عند موت أهل العلم، واتخاذِ وُلاةِ الجَوْرِ وحُكَّامِ الجَوْرِ عند غَلَبَةِ الباطل وأهله "(٦)، ويقول: " وقوله: (إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غير أهله) معناه أن الأئمة قد ائتمنهم الله على عباده، وفرض عليهم النصيحة لهم، لقوله- صلى الله عليه وسلم-: (كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته)(٧)، فينبغي لهم تولية أهل الدين والأمانة للنظر في أمر الأمة، فإذا قَلَّدوا غيرَ أهل الدين، واستعملوا من يُعينهم على الجور والظلم- فقد ضَيَّعوا الأمانة التي فرض الله عليهم. وقد جاء عن النبي- صلى الله عليه وسلم-أنه قال:(لا تقوم الساعة حتى يُؤْتَمَنَ الخائنُ ويُسْتَخْوَنَ الأمينُ)(٨)،وهذا إنما يكون إذا غلب الجهل،وضعف أهل الحق عن القيام به ونصرته "(٩).

---

(١) المقاييس (ضيع).

(٢) المحكم (ضيع).

(٣) اللسان (ضيع).

(٤)الكواكب الدراري للكرماني ٥/٢، وينظر عمدة القاري لابن بطال ٨٣/٢٣.

(٥)الكواكب الدراري للكرماني ١٧/٢٣، وينظر عمدة القاري لابن بطال ٨٣/٢٣.

(٦)شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢٠٦/١٠.

(٧)الحديث رواه البخاري برقم /٨٩٣.

(٨)الحديث رواه أحمد في مسنده برقم /٦٨٧٢، بلفظ (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُخَوَّنَ الْأَمِينُ، ويُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ) .

(٩)شرح صحيح البخاري لابن بطال ١٣٨/١.

(عرض) **عَرْضُ الحساب**

سبق الحديث عنه عند الحديث عن (الحساب اليسير) في الألفاظ القرآنية.

(غمس) **اليمين الغَمُوس**

عن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: جاء أعرابي إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، ما الكبائر ؟ قال: (الإشراك بالله). قال: ثم ماذا ؟ قال: (ثم عقوق الوالدين). قال: ثم ماذا ؟ قال: (اليَمِينُ الغَمُوس). قلت: وما اليمين الغموس ؟ قال: (الذي يقتطع مال امرئ مسلم هو فيها كاذب)(١).

أصل الغمس غَطُّ الشيء في الشيء، يقول ابن فارس: " الغين والميم والسين أصل واحد صحيح يدل على غط الشيء. يقال: غمست الثوبَ واليدَ في الماء، إذا غَطَطْتَه فيه ... ويمين غَمُوسٌ: قال قوم: معناه أنها تغمس صاحبها في الإثم "(٢)، وقد اتجهت نظرة كثير من اللغويين في بيان معناها بالنظر إلى علة تسميتها، في حين نجد الحديث الشريف بيَّن معناها بالنظر إلى حقيقتها وسببها، وتفصي ذلك فيما يلي:

يقول أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحُمِيدي: " اليمين الغموس: التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار بكونه فيها. ويقال: هذا أمر غموس، أي شديد، وكأنه انغماس في الشدة كما ينغمس الإنسان في الماء "(٣)، فبيَّن المعنى بعلة التسمية، وهو أنها تغمس صاحبها في الإثم ونار جهنم، ونحو ذلك ذكر كثير من اللغويين(٤)، ويقول الزمخشري: " ووقعوا في أمر غَمُوسٍ، أي شديد غمسهم في البلاء، ومنه اليمين الغموس: لشدّتها"(٥).

ومنهم من فسَّرها بالنظر إلى حقيقتها وسبب كونها تغمس في الإثم وفي نار جهنم، يقول الخليل: " واليمين الغموس: التي لا استثناء فيها، وقيل التي يقتطع فيها الحق"(٦)، ويقول الأزهري: " وروي عن ابن مسعود أنه قال: أعظم الكبائر اليمين الغموس، وهي أن يحلف الرجل وهو يعلم أنه كاذب ليقتطع بها مال أخيه"(٧)، وقد جمع ابن منظور عددا من الأقوال فقال: " واليمين الغموس: التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار،

---

(١) صحيح البخاري، حديث /٦٥٢٢.

(٢) المقاييس (غمس).

(٣) تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم للحميدي /٤٣٢.

(٤) ينظر الجذر (غمس) في الصحاح، المحكم، أساس البلاغة، اللسان، التاج.

(٥) الأساس (غمس).

(٦) العين (غمس)، وينظر البارع (غمس)

(٧) التهذيب (غمس).

وقيل: هي التي لا استثناء فيها، وقيل: هي اليمين الكاذبة التي تقتطع بها الحقوق، وسميت غموسا لغمسها صاحبها في الإثم ثم في النار. وقال ابن مسعود: أعظم الكبائر اليمين الغموس. وهو أن يحلف الرجل وهو يعلم أنه كاذب ليقتطع بها مال أخيه "(١).

وهذا المعنى الأخير هو الذي ذكره النبي– صلى الله عليه وسلم– للسائل حين قال له: وما اليمين الغموس ؟ فأجابه النبي– صلى الله عليه وسلم– قائلا: (الذي يقتطع مال امرئ مسلمٍ هو فيها كاذب)، أي هو في هذه اليمين كاذب، وعليه فاليمين الغموس تستلزم تحقُّقَ ثلاثة أشياء:

الأول: اليمين الكاذبة، بأن يكون الحالف عالما بأن هذه اليمين كاذبة، وأن الحق خلاف ما حلف عليه.

الثاني: أن يصيب بهذه اليمين مالا أو ما يقوم مقامه بغير حق له فيه.

الثالث: عدم رعايته لحرمة أخيه المسلم، وافتئاته على حقوقه.

والحالف في هذه الحال تجمعت فيه مجموعة من خلال السوء؛ حيث كذب، واقتطع مال مسلم بغير حق، وانتهك حرمته، وأعظم من ذلك أنه استهان بربه حين حلف بالله عالما بأنه كاذب في يمينه، وفي هذا من الجرأة على الله، والتعدي على مقام الألوهية– ما جعل هذه اليمين من الكبائر، وضُمَّت إلى الإشراك بالله وعقوق الوالدين، واستوجبت أن يُغمَس صاحبها في الإثم في الدنيا، وفي نار جهنم يوم القيامة، يقول الطيبي: " من ارتكب هذه الجريمة قد بلغ في الاعتداء الغاية القصوى، حيث انتهك حرمة بعد حرمة، إحداها: اقتطاع المال لم يكن له ذلك. والثانية: الاستحقاق بحرمة وجب عليه رعايتها، وهي حرمة الإسلام وحق الأخوة. والثالثة: الإقدام على اليمين الفاجرة "(٢).

فهذا هو الأصل في اليمين الغموس، وهي خاصة بالحلف كذبا ليقتطع ما مسلم، ثم توسَّعوا فيها فأطلقوها على اليمين الكاذبة التي يعلم صاحبها قبل الحلف أن الحق خلاف ما يحلف عليه، يقول التهانوي: " وبالجملة فاليمين الغموس حَلِفٌ على أمر كاذب بِعِلْمِ كذبه، ماضيا كان أو حالا، وسُمِّيت غموسا لأنّها تغمس صاحبها في النار "(٣).

(١) اللسان (غمس)، وينظر التاج (غمس).

(٢)شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن ٨/ ٢٦٠٩.

(٣)كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ٢/ ١٨١٥.

ويقول ابن بطال: " اليمين الغموس: هو أن يحلف الرجل على الشيء وهو يعلم أنه كاذب؛ ليرضي بذلك أحدًا، أو يقتطع بها مالا، وهى أعظم من أن يكفر، وجمهور العلماء لا يرى فيها الكفارة "(١).

وهو بهذا أدخل في اليمين الغموس كلَّ يمين يعلم صاحبها أنه فيها كاذب، لكن أبا عمر القرطبي يؤكد على أن الأصل فيها إنما هو اليمين الكاذبة التي يقتطع فيها مال أحد، وأن ما عدا ذلك إنما سمي غَمُوسًا على سبيل التقريب لا على سبيل الحقيقة، حيث يقول: " وأجمع العلماء على أن اليمين إذا لم يقتطع بها مال أحد ولم يحلف بها على مال فإنها ليست اليمين الغموس التي ورد فيها الوعيد، والله أعلم. وقد تسمى غموسا على القرب، وليست عندهم كذلك، وإنما هي كذبة ولا كفارة عند أكثرهم فيها إلا الاستغفار "(٢).

وما ذهب إليه أبو عمر القرطبي صحيح؛ لأن فيه اعتمادا على كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم– السابق في الحديث، وانطلاقا منه، وما عدا ذلك مبنيٌّ عليه، مشبَّهٌ به، بجامع اليمين الكاذبة في كلٍّ، لكن له وجها قويا مؤكَّدًا بكلام النبي– صلى الله عليه وسلم–، يقول ملَّا علي القاري: " اليمين الغموس، أي التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار، فَعُولٌ بمعنى فاعِلٍ لصيغة المبالغة، هو الحالف على أمر ماض يتعمد الكذب به؛ لما في صحيح ابن حبان من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (من حَلَفَ على يَمِينٍ وهو فَاجِرٌ لِيَقْتَطِعَ بها مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ حَرَّمَ اللهُ عليه الجَنَّةَ، وأَدْخَلَهُ النَّارَ)(٣). وفي الصحيحين: (لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عليهِ غَضْبَانُ). قلت: رواهما الأربعة وأحمد. قال: وفي سنن أبي داود من حديث عمران بن حصين قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (مَنْ حَلَف على يَمِينٍ مَصْبُورَةٍ كَذِبًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النار)(٤). والمراد بالمصبورة(٥) الملْزَمة بالقضاء والحُكْم، أي

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٦/ ١٣٠.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٢٠/ ٢٦٧.

(٣) الحديث في مسند أحمد /٢٢٢٣٩، بلفظ (مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)، وفي سنن الترمذي /٢٩٩٦ بلفظ (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ).

(٤) الحديث في سنن أبي داود /٣٢٤٢، بلفظ: (من حَلَفَ على يمين مَصبورة كاذباً، فليتبَوَّأ بوجهه مقعدهُ من النَّار)، وفي مسند أحمد /١٩٩١٢، بلفظ (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ مَصْبُورَةٍ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ بِوَجْهِهِ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ).

(٥) " يمين الصَّبْرِ: التي يُمْسِكُ الحَكَمُ عليها حتى تحلف، وقد حلف صبرا ... أو هي التي تَلْزَمُ لصاحبها من جهة الحَكَمِ ويُجْبَرُ عليها حالفُها، بأن يحبسه السلطان عليها حتى يحلف بها، فلو حلف إنسان من غير إحلاف ما قيل: حلف صبرا ... والمصبورة: اليمين، قيل لها: مصبورة، وإن كان صاحبها في الحقيقة هو المصبور؛ لأنه إنما صُبِرَ من أجلها، أي حبس، فوصفت بالصبر، وأضيفت إليه مجازا " التاج (صبر).

المحبوس عليها؛ لأنه مصبور عليها، ولا كفارة فيها إلا التوبة والاستغفار، وهو قول أكثر العلماء "(١)، فقد حُكِمَ على من حلف على يمين كذبا بأن يتبوَّأ مقعده من النار، وهذا يجعل الحكم في المصبورة والغموس يكاد يكون واحدا؛ لما فيهما من الوعيد الشديد والتهديد، وهذا يُسَوِّغ دخول اليمين الكاذبة– مطلقا– التي لا يُقتطَع بها مال أحد مع اليمين الغموس في الاسم والحكم.

(غير) غَيْرةُ الله

عن أبي سلمة أنه سمع أبا هريرة– رضي الله عنه– عن النبي– صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (إن الله يَغَارُ، وغَيْرَةُ الله أن يَأْتِيَ المؤمنُ ما حَرَمَ اللهُ)(٢).

في هذا الحديث يُضيف النبي– صلى الله عليه وسلم– الغَيْرَةَ إلى الله– تعالى–، مبيِّنًا أن المراد بها أن يأتي العبد ما حرَّم اللهُ، وهذا بيانٌ للمعنى بذِكْر سببه الذي استدعاه وأدى إليه، وليس هو الغَيْرَةَ على الحقيقة. وكلُّ كلام يقال في هذا الموضع إنما هو مُقَيَّدٌ بقول الله– تعالى–: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(٣)، فغيرة الله ليست كغيرة العباد.

يقول النووي: " قوله– صلى الله عليه وسلم–: (إِنَّهُ لَغَيُورٌ، وأنا أَغْيَرُ منه)(٤)، وفي الرواية الأخرى (واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللهِ حَرَّمَ الفَواحِشَ، مَا ظَهَرَ منها وما بَطَنَ)(٥) قال العلماء: الغَيْرَةُ– بفتح الغين–، وأَصلها المنع، والرجل غيور على أهله، أي يمنعهم من التَّعَلُّق بأجنبي بنظر أو حديث أو غيره. والغيرة صفة كمال، فأخبر– صلى الله عليه وسلم– بأن سعدا غيور، وأنه أغير منه، وأن الله أغير منه – صلى الله عليه وسلم–، وأنه من أجل ذلك حرم الفواحش، فهذا تفسير لمعنى غيرة

(١)مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٦/ ٢٢٤١.

(٢) صحيح البخاري، حديث /٤٩٢٥.

(٣) الشورى / ١١.

(٤) الحديث في صحيح مسلم /١٤٩٨، عن أبي هريرة، قال: قال سعد بن عبادة: يا رسول الله، لو وجدتُ مع أهلي رجلا لـم أَمَسَّهُ حتى آتي بأربعة شهداء؟ قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: (نعم)، قال: كلا والذي بعثك بالحق، إن كنتُ لَأُعاجِلُهُ بالسَّيْفِ قَبْلَ ذلك، قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: (اسْمَعُوا إلى ما يَقُولُ سَيِّدُكُمْ، إنه لَغَيُورٌ، وأنا أَغْيَرُ مِنْهُ، واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي).

(٥) الحديث في صحيح مسلم /١٤٩٩، ونصه: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصْفَحٍ عنه، فبلغ ذلك رسولَ الله– صلى الله عليه وسلم– فقال: (أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، فَوَاللهِ لَأَنا أَغْيَرُ مِنْهُ، واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللهِ حَرَّمَ الفَواحِشَ، مَا ظَهَرَ منها وما بَطَنَ، ولا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ ... الحديث)، وفي البخاري مع اختلاف في اللفظ برقم /٦٩٨٠.

الله- تعالى-، أي أنها مَنْعُهُ- سبحانه وتعالى- الناسَ من الفواحش، لكن الغيرة في حق الناس يقارنها تَغَيُّرُ حالِ الإنسان وانزعاجُهُ، وهذا مستحيل في غَيْرَةِ الله- تعالى- "(١).

ويقول ابن بطال: " قال المهلب: وهذه الغيرة التي جاءت في هذه الأحاديث في وصف الله- تعالى- ليست منه على حسب ما هي عليه في المخلوقين؛ لأنه لا تجوز عليه صفات النقص تعالى؛ إذ لا تشبه صفاتُه صفاتِ المخلوقين، والغيرة في صفاته بمعنى الزجر عن الفواحش والتحريم لها والمنع منها؛ لأن الغيور هو الذى يَزْجُرُ عما يَغار عليه، وقد بين ذلك بقوله- عليه السلام-: (ومن غَيْرَتِه حَرَّمَ الفواحشَ)، أي زَجَرَ عنها ومَنَعَ منها، وبقوله في حديث أبى هريرة: (وغيرة الله أن لا يأتي(٢) المؤمن ما حرم الله)، وقوله في حديث سعد: (لأنا أغير من سعد، والله أغير منى)، ومعنى ذلك أنه لَزَجُورٌ عن المحارم، وأنا أَزْجَرُ منه، واللهُ أَزْجَرُ من الجميع عما لا يحل "(٣).

وما ورد من كلام عن معنى الغَيْرَةِ- سواء في حق الله أم في حق العباد- يتوافق مع معناها في اللغة، يقول أبو البقاء: " وغِرْتُ على أَهلِي أغار غَيْرَةً ... والغَيْرَة: كَرَاهَةُ الرجلِ اشْتِرَاكَ غَيرِه فيما هو حَقُّهُ "(٤)، ويقول ابن الأثير :" وفي حديث أم سلمة (إِنَّ لي بِنْتًا وأنا غَيُورٌ)(٥)، هو فَعُولٌ، من الغَيْرَة، وهي الحَمِيَّة والأَنَفَة. يقال: رجل غَيُورٌ وامرأة غَيُورٌ بلا هاء؛ لأن فَعُولًا يشترك فيه الذكر والأنثى "(٦).

(فأل) الفَأْل

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال النبي- صلى الله عليه وسلم-: (لا طِيَرَةَ، وخَيْرُها الْفَأْلُ). قالوا: وما الفأل يا رسول الله ؟ قال: (الكلمة الصالحة يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ)(٧).

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٠/ ١٣٢.

(٢) يقول البدر العيني: " قوله: (أن يأتي) قال الغساني: في جميع النسخ: أن لا يأتي، والصواب أن يأتي. قال الكرماني: لا شك أنه ليس معناه أن غيرة الله هو نفس الإتيان أو عدمه، فلا بد من تقدير نحو أن لا يأتي، أي: غيرة الله على النهي عن الإتيان، أو على عدم إتيان المؤمن به، وهو الموافق لما تقدم حيث قال: ومن ذلك حرم الفواحش، فيكون ما في النسخ صوابا، ثم نقول: إن كان المعنى لا يصح مع (لا) فذلك قرينة لكونها زائدة، نحو: ﴿ ما مَنَعَكَ أَن لَّا تَسْجُدَ ﴾ (الأعراف /٢١) قال الطيبي: هو مبتدأ وخبر بتقدير اللام، أي: غيرة الله ثابتة لأجل أن لا يأتي". عمدة القاري ٢٠/٢٠٧.

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٧/ ٣٤٩.

(٤)الكليات لأبي البقاء الكفوي /٦٧١.

(٥) حديث أم المؤمنين أم سلمة- رضي الله عنها- رواه مسلم / ٩١٨، في قصة وفاة أبي سلمة- رضي الله عنه- وطَلَبِ النبيِّ- صلى الله عليه وسلم- الزواجَ منها.

(٦) النهاية (غير)، وينظر اللسان (غير).

(٧) صحيح البخاري، حديث /٥٤٢٣، وينظر الحديث /٥٤٢٢، مع اختلاف في لفظ الراوي لا لفظ الحديث.

عن أنس بن مالك– رضي الله عنه–: عن النبي– صلى الله عليه وسلم– قال: (لا عَدْوَى ولا طِيَرَةَ، ويُعْجِبُنِي الْفَأْلُ). قالوا: وما الْفَأْلُ ؟ قال: (كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ)(١).

عن أنس– رضي الله عنه–: عن النبي– صلى الله عليه وسلم– قال: (لا عَدْوَى ولا طِيَرَةَ، ويُعْجِبُنِي الْفَأْلُ الصَّالِحُ: الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ)(٢).

في هذه الأحاديث يُبَيِّن النبي– صلى الله عليه وسلم– المراد بالفَأْلِ، فذكر مرة أنه (الكلمة الصالحة يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ)، وأخرى أنه (كلمة طيبة)، وفيهما كان البيان بعد سؤال، وفي المرة الثالثة جاء الفأل موصوفا بالصالح، وبيَّن النبي– صلى الله عليه وسلم– أنه (الكلمة الحسنة)، وفي هذه المرة جاء البيان دون سؤال من أحد.

الطِّيَرة والفَأْلُ يكونان في الخير والشر، وهما يرتبطان بالحالة المزاجية التي يكون عليها بعض الناس عند سماع ما يُبَشِّر أو يُنَفِّر، أو عند رؤيته أو العلم به، والأصل في ذلك أن العربي كان إذا أراد سفرا أو حاجة جاء بطَيْرٍ وأطلقه، فإن اتجه يمينا تفاءل به وأمضى حاجته، وإن اتجه شمالا تشاءم ولم يُمْضِ حاجته، وقعد عنها، فهذا هو أصل الطيرة؛ لذلك تكون في الخير والشر– وإن غلب عليها الشر في الاستعمال– وروايات الحديث التي معنا خير شاهد على ذلك؛ فالحديث الأول فيه (لا طِيَرَةَ، وخَيْرُها الْفَأْلُ)، فنهى عن الطيرة التي تكون في الشر على حسب ما هو الغالب فيها، ثم استأنف نوعا محمودا منها فقال: (وخَيْرُها الْفَأْلُ)، والضمير في (وخيرها) راجع إلي الطيرة؛ مما يدل على أنها تكون في الخير أيضا، وهذا موافق لأصل الاستعمال كما سبق.

ومما يدل على أن الفأل يستعمل أيضا في الخير والشر وَصْفه– صلى الله عليه وسلم– في الحديث الأخير بالصالح حيث قال: (ويعجبني الفأل الصالح)، فهذا يدل على أنه يكون في الخير والشر.

يقول الزمخشري: " الفأل والطيرة قد جاءا في الخير والشر، تقول العرب: ولا فأل عليك، وقال الكميت (٣):

وكان اسْمُكُمْ لَوْ يَزْجُرُ الطَّيْرَ عائِفٌ   لَبَيَّنَكُمْ طَيْرًا مُبَيَّنَةَ الفالِ

---

(١) صحيح البخاري، حديث /٥٤٤٠.

(٢) صحيح البخاري، حديث /٥٤٢٤.

(٣) البيت للكميت مع بيت قبله يخاطب بهما قبيلة (جذام) في تحوُّلها إلى اليمن فيقول:

فَإِنَّ جُذامًا فـــارَقَتْ إِذْ تَبــاعَدَتْ   برِيشِ أَبي دُودانَ معروفة النَّسْلِ
وكان اسْمُكُمْ لَوْ يَزْجُرُ الطَّيْرَ عائِفٌ   لَبَيَّنَكُـمْ طَيْـــرًا مُبَيَّنَـــةَ الفَأْلِ

بهمز (الفأل). ديوان الكميت، تح. د. محمد نبيل طريفي /٣٥٧.

مجيء الطيرة في الشر واسع لا يُفْتَقَر فيه إلى شاهد، إلا أن استعمال الفأل في الخير أكثر "(١)، ويقول ابن الأثير: " الفَأْلُ- مهموز- فيما يَسُرُّ ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيما يَسُرُّ. يقال: تَفاءَلْت بكذا وتَفَأَّلْت، على التخفيف والقلب. وقد أُولِع الناسُ بترك همزه تخفيفا. وإنما أَحَبَّ الفألَ لأن الناس إذا أملوا فائدةَ الله- تعالى-، ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي فهم على خير، ولو غلطوا في جهة الرجاء فإن الرجاء لهم خير. وإذا قطعوا أملهم ورجاءهم من الله كان ذلك من الشر. وأما الطيرة فإن فيها سوءَ الظن بالله وتَوَقُّعَ البلاء. ومعنى التفاؤل مثل أن يكونَ رجلٌ مريضٌ فيتفاءل بما يسمع من كلام، فيسمع آخر يقول: يا سالمُ، أو يكونَ طالبُ ضالَّةٍ فيسمع آخر يقول: يا واجد، فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه ويجد ضالته. ومنه الحديث (قيل: يا رسول الله: ما الفأل؟ فقال: الكلمة الصالحة).وقد جاءت الطيرة بمعنى الجنس، والفأل بمعنى النوع، ومنه الحديث(٢)(أصدق الطيرة الفأل)"(٣).

فنجده يعلل لحب الفأل بسبب تأمُّل الناس الخير عند الله ورجائهم له، ويعلل لكراهة الطيرة بأن فيها سوءَ ظن بالله، وهذا المعنى سبق إليه الخطابي حين قال: " والفرق بين الفأل والطيرة أن الفأل إنما هو من طريق حُسن الظن بالله- عز وجل-، والطيرة إنما هي من طريق الاتكال على شيء سواه "(٤).

وقد علَّق ابن حجر على كلام النووي الدال عل استعمال الطيرة والفأل في الخير والشر، فقال: " وقال النووي: الفأل يُستعمل فيما يسوء وفيما يَسُرُّ، وأكثره في السرور. والطيرة لا تكون إلا في الشؤم، وقد تستعمل مجازا في السرور اهـ.(٥) وكأنَّ ذلك بحسب الواقع، وأما الشرع فخص الطيرة بما يسوء، والفأل بما يسرُّ، ومن شرطه أن لا يقصد إليه فيصير من الطيرة. قال ابن بطال(٦): جعل الله في فِطَرِ الناسِ محبةَ الكلمة الطيبة والأنسَ بها، كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الأنيق والماء الصافي وإن كان لا

(١) الفائق في غريب الحديث ٣/ ٨٦.

(٢) الحديث في مسند أحمد برقم /٧٨٨٣.

(٣) النهاية (فأل)، وينظر التركيب في التهذيب والصحاح واللسان والمصباح والقاموس.

(٤) غريب الحديث ١٨٣/١.

(٥) ينظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/ ٢١٩.

(٦) ينظر شرح صحيح البخاري لابن بطال ٤٣٧/٩.

يملكه ولا يشربه "(١)، فجعل تخصيص الطيرة فيما يسوء، والفأل فيما يسرُّ– من التخصيص الشرعي، وليس بحسب الواقع اللغوي.

(فلس) **المفْلِس**

وقد قال– صلى الله عليه وسلم–: (إنما المفْلِسُ الذي يُفْلِسُ يوم القيامة)(٢).

جاء هذا الحديث عرضا تحت ترجمة (باب قول النبي– صلى الله عليه وسلم–: (إنما الكَرْمُ قَلْبُ المؤمنِ)، وقد بيَّن النبي– صلى الله عليه وسلم– فيه أن المفلس الحقيقي ليس الذي يخلو عن الملك في الدنيا، إنما هو مفلسُ يوم القيامة، حين يأتي الناسُ وقد مُلِئَتْ صحائفُهم بالحسنات، ويأتي هو مفلسا منها صِفْرا اليدين، فهذا معنى إسلامي للإفلاس، متطور عن المعنى اللغوي.

وهذا الحديث فيه إجمال لما ورد في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة– رضي الله عنه– أن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– قال: (أَتَدْرُون ما المفْلِسُ؟) قالوا: المفلسُ فينا مَنْ لا دِرْهَمَ له ولا متاعَ، فقال: (إنَّ المفْلِسَ من أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ القيامةِ بِصَلاةٍ، وصِيامٍ، وزكاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فَيُعْطَى هذا من حَسَنَاتِه، وهذا من حَسَناتِه، فإن فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى ما عَلَيه أُخِذَ مِنْ خَطَاياهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)(٣).

والأصل في هذا المعنى قولهم: " أَفْلَسَ الرَّجُلُ: إذا صار ذا فُلُوسٍ بعد الدراهم "(٤)، ويقول ابن دريد: " والفَلْس: عربي معروف، وأصل الفَلْسِ من قولهم: أَفْلَسَ الرجلُ إفلاسا، إذا قلَّ مالُه فهو مُفْلِسٌ، وهي كلمة عربية وإن كانت مبتذلة "(٥).

وحتى يتبَّن لنا حقيقة معنى الإفلاس لا بد من تحديد معنى الفَلْس أولا، يقول الجوهري: " وقد أفلس الرجل: صار مُفْلِسا، كأنما صارت دراهمه فُلُوسًا وزُيُوفًا "(٦)، فنص على أن الدراهم– هنا– فُلُوس وزُيُوف، ويقول النووي: " التفليس: قال الأزهري(٧): هو مأخوذ من الفلوس التي هي من أخسِّ الأموال، كأنه إذا حُجِرَ عليه مُنِع التصرفَ في ماله إلا في شيء تافهٍ لا يعيش إلا به، وهو مؤنته ومؤنة عياله.

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١٠/ ٢١٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول النبي– صلى الله عليه وسلم– (إنما الكرم قلب المؤمن)، رقم (١٠٢).

(٣) صحيح مسلم، حديث /٢٥٨١.

(٤) العين (فلس)، وينظر تركيب (فلس) في التهذيب والمجمل والمقاييس والمحكم.

(٥) الجمهرة (فلس).

(٦) الصحاح (فلس).

(٧) لم أجد هذا الكلام في التهذيب (فلس).

وقيل: لأنه صار مالُه كالفلوس؛ لِقلَّته بالنسبة إلى ما عليه من الديون "(١)، فجعل الفُلُوس من أَخَسِّ الأموال، وهي كالشيء التافه الذي لا قيمة له، وفي معجم لغة الفقهاء " الفَلْس: ... قطعة من النحاس يتعامل بها الناس"(٢).

ويقول ابن حجر: " المفلس شرعا من تزيد ديونه على مَوْجُودِه، سُمِّيَ مُفْلِسًا لأنه صار ذا فلوس بعد أن كان ذا دراهم ودنانير، إشارة إلى أنه صار لا يملك إلا أدنى الأموال وهي الفلوس، أو سُمِّيَ بذلك لأنه يُمْنَعُ التصرُّفَ إلا في الشيء التافه كالفلوس؛ لأنهم ما كانوا يتعاملون بها إلا في الأشياء الحقيرة، أو لأنه صار إلى حالة لا يملك فيها فَلْسًا "(٣).

كل هذه النصوص السابقة تبيِّن أن الأصل في الفَلْسِ إنما هو شيء تافه حقير من المال، كأنه لا قيمة له لخسته ورداءة حاله، لأجل ذلك سمي من لا يملك مُفْلِسًا وإن كان عنده الفلوس، فكأنها غير موجودة. هذا هو الأصل في معنى المفلس، ويقول ابن منظور: " أفلس الرجل، إذا لم يبق له مال، يراد به أنه صار إلى حال يقال فيها: ليس معه فَلْسٌ، كما يقال: أَقْهَرَ الرجلُ، صار إلى حال يُقْهَر عليها، وأذلَّ الرجلُ، صار إلى حال يَذِلُّ فيها "(٤).

ويقول الأمير الصنعاني- معلِّقا على طائفة من الأحاديث النبوية استُعملت الألفاظ فيها على غير الوجه الشائع في الاستعمال اللغوي-: " واعلم أن مثل هذه الاستعمالات(٥) النبوية لمثل هذه الألفاظ اللغوية الموضوعة فيها لمعان غير ما استعملها فيها الرسول- صلى الله عليه وسلم- مثل (العز والشرف) هنا، ومثل قوله: (أتدرون من المفلس من أمتي؟) ثم فسره بمن يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام، ويأتي قد شتم هذا وسفك دم هذا ... الحديث. ذكره المصنف في الذيل، ومثل قوله: (ليس الشديد بالصرعة، بل الذي يملك نفسه عند الغضب) ومثل قوله: (ليس المسكين بالطوَّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكنه الذي لا يسأل الناس ولا يفطن له)، ونظائر لهذه الأحاديث كثيرة، يراد بها إيقاظ السامعين وتنبيههم على أن هذه الأسماء وغيرها قد وضعت لمسميات باعتبار معانيها، وهي بهذه المعاني أجدر

(١) تحرير ألفاظ التنبيه للنووي /١٩٥، وينظر النظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذب، لبطال الركبي ١/ ٢٦٦.
(٢) معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي – حامد صادق قنيبي /٣٥٠.
(٣) فتح الباري لابن حجر ٦٢/٥.
(٤) اللسان (فلس).
(٥) في الأصل (الاستعمال) بالإفراد.

وأحق وأكثر مناسبة؛ لأن المعاني هذه بها أحق وأوفق وأليق، وليس هذا قادحًا في حكمة الواضع؛ لأنه قد وضعها لمعان هي فيها صحيحة ما خلت عن الحكمة. هذا ويحتمل أن هذه حقائق شرعية نقلها إليها الشارع في عُرْفِه، مع بقائها باعتبار معناها اللغوي غير مهجورة أيضاً. ويحتمل أن المراد أن عنده– تعالى– هذه الألفاظ لهذه المعاني، أي أنكم تسمون مثلاً المفلس من وُجِدَ فيه تلك الصفة، والمفلس عنده– تعالى– من ذُكر "(١).

ويقول القاضي عياض:" وقوله: في المفلس: (هو الذي يأتي بصلاة وصيام وزكاة، وقد شتم هذا، وضرب هذا، وسفك دم هذا ... الحديث)، يعني: أن هذا هو حقيقة المفلس خاصة؛ لأنه في استعمال الناس فيمن قَلَّ مالُه وعَدِمَه حتى صار فُلوسًا، وهذا لمن ينقطع وقد تنقلت به الحال، ويرجو الانجبار لحاله، وإذا بقيت له صحته وسَلِمَ له دِيْنُهُ لم يهلك في الدنيا ولا في الآخرة. فأعلمهم أن حقيقة المفلس هو الهلاك التام والعُدْمُ المتصل المهلك، مثل هذا الذي كانت له حسنات وللناس عليه تباعات، فأخذوا حسناته كما يؤخذ من الغريم ما بيده، ثم لما لم يكن له حسنات طُرِحَت عليه سيئاتُهم، وطُرِحَ في النار ؛ ليتم هلاكه وتَأَبَّدَ فَلَسُهُ، وأيس من فلاحه وانجبار حاله، إلا ما يكون بعد، مما تفضل الله به من إخراج المذنبين وإدخالهم الجنة، بعد الأمر الذي قدَّره الله في هذا البوار، نعوذ بالله من فَلَسِ الدنيا والآخرة "(٢).

(قرط) القِيراط

قال ابن شهاب: وحدثني عبد الرحمن الأعرج أن أبا هريرة– رضي الله عنه– قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: (من شَهِدَ الجَنازةَ حتى يُصَلِّيَ فَلَهُ قِيراطٌ، ومَنْ شَهِدَ حتى تُدْفَنَ كان له قِيراطانِ). قيل: وما القِيراطانِ ؟ قال: (مِثْلُ الجَبَلَيْنِ العَظِيمَيْنِ)(٣).

القيراط في الأصل مقدار معلوم من الوزن، وقد اختُلف في تقديره باختلاف الأزمنة والأمكنة، يقول الطيبي: " القيراط جزء من أجزاء الدينار، وهو نصف عشرة في أكثر البلاد، وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين، والياء فيه بدل من الراء؛ فإن أصله قِرَّاط. قيل: لأنه يُجمع علي قراريط، وهو شائع مستمر، وقد يطلق

(١) التنوير شرح الجامع الصغير ٢٨٧/١.

(٢) إكمال المعلم ٨/ ٥٠، وينظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٣٦/١٦.

(٣) صحيح البخاري، حديث/١٢٦١.

ويراد به بعض الشيء "(١)، ويقول الصغاني: " والقِيراط: معروف، ووزنه يختلف باختلاف البلاد، فهو عند أهل مكة- حرسها الله تعالى- رُبُعُ سُدْسِ الدينار، وعند أهل العراق نِصْفُ عُشْرِ الدينار "(٢)، ويقول التهانوي: "والقيراط: خَمْسُ شَعِيراتٍ متوسّطة غير مقشورة، مقطوعة ما امتدت من طرفيها "(٣).

وقد ورد القيراط في أحاديث عديدة اختلف فيها قدْرُه باعتبار السياق الوارد فيه، منها:

قول النبي- صلى الله عليه وسلم-: (مَنِ اقْتَنَى كَلْبًا لَيْسَ بِكَلْبِ ماشِيةٍ أَوْ ضارِيَةٍ نَقَصَ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ عَمَلِهِ قِيراطانِ)(٤)، يقول الطيبي: " والقيراط هنا مقدار معلوم عند الله، والمراد نقص جزء من أجزاء عمله"(٥).

ومنها ما جاء في حديث فتح مصر (إنكم ستفتحون مِصْرَ، وهي أرضٌ يُسَمَّى فيها القِيراط)(٦)، يقول القاضي عياض: " والقيراط: وزن من أوزان الأشياء، وهو هنا بعض الدرهم "(٧).

ومنها ما جاء في حديث عَمَلِ اليهود والنصارى، حيث قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: (أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْراةِ التَّوْراةَ فَعَمِلُوا حتى إذا انْتَصَفَ النهارُ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيراطًا قِيراطًا، ثم أُوتِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا إلى صلاة العَصْرِ، ثم عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيراطًا قِيراطًا)(٨)، يقول ابن حجر: " والمراد بالقيراط النصيب، وهو في الأصل نصف دانقٍ، والدانقُ سُدْسُ درهم "(٩).

والقيراط في حديثنا- هذا- يدل على مقدار من الوزن أيضا، حدَّده النبي- صلى الله عليه وسلم- حين بيَّن أن المراد بقِيراطَيِ الجنازة (صلاةً واتِّباعًا) الجبلان العظيمان، وفي هذا دلالة على عِظَم الأجر، وسعة الفضل الذي وعد الله به من صلَّى على الجنازة أو تَبِعَها حتى تُدْفَن. وإن كان هذا لا ينفي أن يراد بالقيراط المساحة أيضا،

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن ١٣٩٢/٤.
(٢) العباب الزاخر (قرط).
(٣) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ١٤٤٩/٢.
(٤)صحيح البخاري، حديث/٥١٦٣.
(٥)شرح المشكاة ٢٨١٦/٩، وينظر إكمال المعلم بفوائد مسلم ٥/ ٢٤٦.
(٦) صحيح مسلم، حديث/٢٥٤٣.
(٧) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٧/ ٥٨٥.
(٨) صحيح البخاري، حديث/٥٣٢.
(٩) فتح الباري لابن حجر ٤٤٦/٤.

ويكون ذِكْر الجبلين لبيان مساحة معيَّنة من الجنة جعلها الله- تعالى- جزاء لهذا العمل. ويمكن الجمع- هنا- بين الوزن والمساحة لبيان زيادة عِظَم الأجر أيضا. وفي هذا البيان تطوُّرٌ دلالي لمعنى القيراط، ويُعَدُّ بهذا من الدلالات الإسلامية التي تطورت عن الأصل اللغوي،

وتفسير القيراط بالجبل العظيم- هنا- جاء عامًّا دون تقدير لوزن القيراط أو مساحته، اكتفاء بالوصف بالعِظَم، وقد جاء تقديره في حديث آخر بجبل أُحُد، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال: (مَنِ اتَّبَعَ جَنازَةَ مُسْلِمٍ إِيمانًا واحْتِسابًا، وكان معه حتى يُصَلَّى عليها ويُفْرَغَ من دَفْنِها- فإنه يَرْجِعُ مِنَ الأَجْرِ بِقِيراطَيْنِ، كُلُّ قِيراطٍ مِثْلُ أُحُدٍ)(١)، يقول ابن حجر: " وذهب الأكثر إلى أن المراد بالقيراط في حديث الباب جزء من أجزاء معلومة عند الله، وقد قَرَّبَها النبيُّ – صلى الله عليه وسلم- للفهم بتمثيله القيراط بأُحُد. قال الطيبي: قوله: (مِثْلُ أُحُدٍ) تفسيرٌ للمقصود من الكلام لا للفظ القيراط، والمراد منه أنه يرجع بنصيب كبير من الأجر؛ وذلك لأن لفظ القيراط مُبْهَمٌ من وجهين، فَبَيَّنَ [جنس] الموزون بقوله (من الأجر)، وبَيَّنَ المقدار المراد منه بقوله (مثل أحد)(٢). وقال الزين بن المنَيِّر: أراد تعظيم الثواب فمثله للَعَيانِ بأعظم الجبال خَلْقًا، وأكثرها إلى النفوس المؤمنة حُبًّا؛ لأنه الذي قال في حقه إنه: (جَبَلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّهُ)(٣). انتهى. ولأنه أيضا قريب من المخاطَبِينَ، يشترك أكثرهم في معرفته. وخص القيراط بالذكر لأنه كان أقل ما تقع به الإجارة في ذلك الوقت، أو جرى ذلك مجرى العادة من تقليل الأجر بتقليل العمل "(٤).

ويقول القسطلاني في تعليقه على الحديث: "(مثل الجبلين العظيمين) وأخص من ذلك تمثيله القيراط بأُحُد كما في مسلم. وهذا تمثيل واستعارة ... ويجوز أن يكون على حقيقته، بأن يجعل الله- تعالى- عَمَلَه يوم القيامة جسمًا قَدْرَ أُحُدٍ ويُوزَنُ "(٥).

(١) صحيح البخاري، حديث/٤٧.
(٢) ينظر شرح المشكاة ١٣٩٣/٤.
(٣) صحيح البخاري، حديث/٢٧٣٢.
(٤) فتح الباري لابن حجر ١٩٤/٣.
(٥) إرشاد الساري ٤٢٨/٢.

(كرم) **الكَرْم**

عن أبي هريرة عن النبي–صلى الله عليه وسلم- قال:(لا تُسَمُّوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ)(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: (ويقولون الْكَرْمُ، إنما الكَرْمُ قَلْبُ المؤْمِنِ)(٢).

الكَرْم عند العرب شجرة العنب وثمرته، وأصله الكَرَم، يقول الأزهري: " والكَرْم سُمي كَرْمًا لأنه وُصِفَ بكَرَمِ شجرته وثمرته. وقيل: كَرْمٌ- بسكون الراء-؛ لأنه خُفِّفَ عن لَفْظَةِ كَرَمٍ لمَّا كَثُرَ في الكلام فقيل: كَرْمٌ. ... قال أبو بكر(٣): يُسمَّى الكَرْمُ كَرْمًا لأن الخمر المتخذَ منه يَحُثُّ على السخاء والكَرَمِ، ويأمر بمكارم الأخلاق؛ فاشتقوا له اسما من الكَرَمِ؛ للكَرَمِ الذي يَتَوَلَّدُ منه "(٤)، هذا من جانب اللغة.

وقد أورد البخاري هذين الحديثين في بابين متتاليين، الأول في (باب لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ)(٥)، وتمامه: (لا تُسَمُّوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ، ولا تقولوا: خَيْبَةَ الدَّهْرِ، فإن الله هو الدَّهْرُ)، والحديث الثاني أورده في (باب قول النبي- صلى الله عليه و سلم-: إنما الكرم قلب المؤمن)، ثم ذكر بعد اسم الباب- قبل إيراده الحديث- عدة أحاديث يتفق معها حديثُ الباب في جانب من جوانب الدلالة فقال: " وقد قال [صلى الله عليه وسلم]: (إنما المفلس الذي يُفْلِسُ يوم القيامة). كقوله: (إنما الصُّرَعَةُ الذي يملك نفسه عند الغضب)، كقوله: (لا مَلِكَ إلا الله)، فوصفه بانتهاء الملك، ثم ذكر الملوك أيضا فقال: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا (٦)﴾ "(٧)، وإيراد البخاري هذا الحديث مع الأحاديث الثلاثة فيه دلالة على أن الأحق بأن يُطلَق عليه اسم (الكَرْم) هو (قلب المؤمن)، شأنه في هذا شأنُ المسمَّيات الموجودة في الأحاديث الثلاثة؛ إذ هي أحق بأسمائها من غيرها، فالذي يُفْلِسُ يوم القيامة هو الأحق باسم المفلس، والذي يملك نفسه عند الغضب هو الأحق باسم الصُّرَعَة، والله- تعالى- هو الأحق باسم الملك، وليس المراد أن هذه الأسماءَ محصورةٌ على المسمَّيات المذكورة معها، وأنه لا يُسمَّى بها

---

(١) صحيح البخاري، حديث/٥٨٢٨.

(٢) صحيح البخاري، حديث/٥٨٢٩.

(٣) ينظر الزاهر في معاني كلمات الناس ٢/ ٢٨٢، ولفظه: " قال أبو بكر: إنما سُمِّي الكَرْمُ كَرْمًا لأن الخمر المشروبة من عِنَبِه تحثُّ على السخاء، وتأمر بمكارم الأخلاق؛ فاشتقوا لها اسما من الكَرَم، أعني الكَرَمَ الذي يتولَّد منه ".

(٤) التهذيب (كرم).

(٥) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٨٦.

(٦) النمل /٣٤.

(٧) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٨٦.

غيرُها، بدليل أنه ذكر بعد حديث (لا مَلِكَ إلا الله) قولَ الله– تعالى–: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ فسُمِّي غيرُ الله مَلِكًا، وقد علَّق ابن حجر على إيراد البخاري هذه الطائفة من الأحاديث فقال: " غرض البخاري أن الحصر ليس على ظاهره، وإنما المعنى أن الأحق باسم الكرْم قلبُ المؤمن، ولم يُرِدْ أن غيره لا يُسَمَّى كرْمًا، كما أن المراد بقوله: (إنما المفلس) مَنْ ذَكَرَ، ولم يُرِدْ أن من يُفْلِس في الدنيا لا يُسمَّى مُفْلِسًا، وبقوله: (إنما الصرعة) كذلك، وكذا قوله: (لا مَلِكَ إلا الله)، لم يُرِدْ أنه لا يجوز أن يُسمى غيره مَلِكًا، وإنما أراد الملِك الحقيقي وإن سُمِّي غيرُه ملكا ... وأشار ابن بطال إلى أنه يؤخذ من ذلك تَرْكُ المبالغةِ والإغراقِ في الوصف إذا كان الموصوف لا يستحق ذلك "(١).

وقد اختلفوا في تأويل هذا الحديث بسبب النهي الوارد فيه عن تسمية العنب كَرْمًا، وأسوق– هنا– كلام الخطابي حيث يقول: " والمعنى في تغييره– عليه السلام– هذا الاسمَ إلى غيره– أن الكَرْمَ عندهم اسمٌ مشتقٌ من الكَرَمِ، واسمه التَّلِيدُ عندهم إنما هو الجَفْنَة والحَبَلَة، وهما أصل شجر الكَرْمِ، قال الأصمعي: الحَبَلَة بفتح الباء، وجَوَّزَ غيرُه الحَبْلة ساكنة الباء. والأسماء على ضربين: اسم مشتق واسم موضوع، وإنما لَقَّبُوهُ كَرْمًا لأن شارب الخمر التي تُتَّخَذُ من عصيره يتعاطى الكَرْمَ إذا شربها، كما سموها راحًا لأن شاربها يرتاح للنَّدَى، وينبسط للجود والسخاء. وقد قال بعض الشعراء:

والْكَرْمُ مُشْتَقَّةُ المعْنَى مِنَ الْكَرَمِ (٢)

... ومثل هذا في الشعر كثير. فرأى– عليه السلام– أن في تسليم هذا الاسم لهم تقريرَ المعنى الذي تأوَّلُوه من الكَرَمِ فيها، وأشفق أن يكون حُسْنُ اسمها يدعوهم إلى شربها، ويُحَسِّن لهم تناوُلَ المحرَّم منها، وفي النفوس من الشغف بها والميل إليها– ما لا حاجة مع ذلك إلى أن تُهَزَّ وتُحَرَّك بالثناء عليها– فلذلك رأى أن يَسْلُبَه هذا الاسمَ، وأن يُسقِطَه عن رتبة الكَرَمِ، وجعله اسما للمسلم الذي يتقي شُرْبَها، ويرى الكرَم في تَرْكِها، وكل ذلك تأكيد لحرمة الخمر وتأبيد لها، والله أعلم "(٣).

---

(١) فتح الباري ١٠/ ٥٦٧.

(٢) لم أقف على نسبة الشعر، والرواية (والخمر) بدل (والكرم) وبها يستقيم السياق، وهو هكذا في تركيب (كرم) في التهذيب واللسان والتاج، وكذلك فتح الباري لابن حجر ٥٦٧/١٠، إرشاد الساري ١٠٨/٩.

(٣) غريب الحديث ٦٦٤/١.

ويقول الزمخشري: " أراد أن يُقرِّر ويُشَدِّد ما في قوله- عز وجل-: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾(١) بطريقة أنيقة ومسلك لطيف ورمز خلوب. فبصَّرَ أن هذا النوع من غير الأَناسِيِّ المسمى بالاسم المشتق من الكَرَم أنتم أَحقَّاء بألَّا تُؤَهِّلُوه لهذه التسمية، ولا تطلقوها عليه ولا تسلموها له؛ غيرةً للمسلم التقيِّ، ورَبْأً به أن يُشارَك فيما سماه اللهُ به، واختصه بأن جعله صفته، فضلا أن تُسَمُّوا بالكريم من ليس بمسلم، وتعترفوا له بذلك. وليس الغرض حقيقة النهي عن تسميه العنب كرما، ولكن الرمز إلى هذا المعنى، كأنه قال: إن تَأَتَّي لكم ألا تُسَمُّوه- مثلا- باسم الكَرْمِ، ولكن بالجَفْنة والحَبَلة فافعلوا. وقوله: فإنما الكَرْم: أي فإنما المستحق للاسم المشتق من الكرَم المسلمُ "(٢).

فالزمخشري لم يجعل النهي نهي تحريم، وإنما جعله نهي كراهة، وهو من باب التوجيه والإرشاد؛ إذ الأحق والأجدر باسم الكرْم هو المسلم صاحب القلب التقي، وإن كان يمكن أن يُسَمَّى غيره به، وهذا ما سبق إليه أبو بكر الأنباري حيث قال: " فكأنَّ رسول الله كره أن يُسَمَّى أصل الخمر باسم مأخوذ من الكَرَم، وجعل المؤمن أحق بهذا الاسم الحَسَن "(٣).

ويعلِّق أبو الوليد الباجي على هذا النهي فيقول: " ويحتمل عندي أن يكون معناه أن العنب وإن كان فيه منافع ورزق وخصب لمن رزقه- فإن قلب المؤمن أكثر خيرا وأنفع لنفسه وللناس، ولم يرد ذلك النهي عن أن يُسَمَّى الكَرْم كرْمًا؛ ولذلك لم ينقله الناس عن النهي، ولا امتنعوا من تسمية شجر العنب كَرْمًا، ولكنه إنما أراد به تفضيل قلب المؤمن عليه كما قال – صلى الله عليه وسلم – (ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) فهو الذي يظهر لي فيه، والله أعلم وأحكم"(٤)، وذهب ابن بطال إلى نحو ذلك حيث قال: " وغرضه في هذا الباب- والله أعلم- أن يُعَرِّف بمواقع الألفاظ المشتركة، وأن يُقْتَصَر في الوصف على ترك المبالغة والإغراق في الصفات إذا لم يستحق الموصوفُ ذلك، ولا يبلغ النهايات في ذلك إلا في مواضعها، وحيث يليق الوصف بالنهاية "(٥)، فهذه الأقوال تذهب إلى أن النهي عن تسمية العنب

(١) الحجرات /١٣.

(٢) الفائق في غريب الحديث ٣/ ٢٥٧.

(٣) الزاهر في معاني كلمات الناس ٢٨٣/٢، وينظر تفسير غريب ما في الصحيحين /٢٨٤، غريب الحديث لابن الجوزي ٢٨٧/٢.

(٤) المنتقى شرح الموطأ ٤/ ٢٤٤.

(٥) شرح صحيح البخاري ٣٣٩/٩.

كرْمًا إنما هو نهي كراهة، وأن الأحق بهذا الاسم هو قلب المؤمن، ولا تنفي إمكان تسمية العنب به.

وقد ذهب بعضهم إلى أن النهي نهيُ تحريم، فلا يجوز إطلاق اسم الكرْم على العنب، وإنما الألزم لهذا الاسم قلبُ المؤمن، فلا يُسمَّى به سواه، يُفهم هذا من قول الخطابي: " قلت: نهيه عن تسمية شجر العنب كرْما وهو اسمه المشهور عندهم، إنما معناه التوكيد لتحريم الخمر، وتأبيدُ النهي(١) عنها، وسَلْبُها الفضيلة بتغيير نعتها المأخوذ عندهم من اسم الكَرَم إذا كان في تسليم هذا الاسم تقريرٌ لدعواهم فيها، وتسويغ لما كانوا يتوهمونه من التكرُّم في سَقْيِها وشربها، فأمر بأن لا تُدعى كرْما، وأن تُسمَّى مواضعُها وأشجارُها حدائقَ الأعناب "(٢).

وجاء كلام الطيبي أكثر تأكيدا لمنع تسمية العنب كرْما فقال: " أقول: وتلخيص المعنى تخطئة رَأْيِ من سمى العنب بالكرْم؛ نظرا إلى أنه تُتَّخَذُ منه الخمر، وشربها يولد الكرَم، وتسفيههم فيه لأنها أم الخبائث والرجس الذي هو من عمل الشيطان، وتصويب رأي من رأى استحقاق هذا بقلب المؤمن الطاهر عن أوضار الرجس والآثام، وأنه معدن مكارم الأخلاق ومنبعها ومركز التقوى، فهو أولى وأحرى أن يسمى كرْما "(٣)، فحكمه بخطأ من سمَّى العنب كرْما وتصويب من رأى استحقاق قلب المؤمن بهذا يُرشِّح تحريم إطلاق هذا الاسم على العنب.

ومن جملة ما سبق أرى أن النهي ليس على سبيل التحريم، وإنما المقصد منه المبالغة في تأكيد أحقية قلب المؤمن باسم الكرْم، وأن هذه الأحقية لا تنفي صحة إطلاق هذا الاسم على العنب.

(كره) كُرْهُ لقاء الله

سبق الحديث عنه عند الحديث عن حُبِّ لقاء الله

(كفر) كُفْرانُ العَشِيرِ

عن ابن عباس قال: قال النبي– صلى الله عليه وسلم–: (أُرِيتُ النارَ فإذا أَكْثَرُ أَهْلِها النساءُ يَكْفُرْنَ). قيل: أَيَكْفُرْنَ بالله ؟ قال: (يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، ويَكْفُرْنَ الإِحْسانَ، لو أَحْسَنْتَ إلى إحداهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ منكَ شيئًا قالت: ما رَأَيْتُ منك خيرًا قَطُّ)(٤).

(١) في الأصل (تأييد النهي) بياءين، والباء (تأبيد) أوفق للسياق.

(٢) أعلام الحديث ٢٢١٢/٣.

(٣) شرح المشكاة للطيبي ٣٠٨٩/١٠.

(٤) صحيح البخاري، حديث/٢٩.

وقد ورد الحديث عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أيضا مرتين أخريين في قصة خسوف الشمس، ففي الأولى: قال- صلى الله عليه وسلم- (إني رأَيْتُ الجنةَ فَتَناوَلْتُ عُنْقُودًا، ولو أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمْ منه ما بَقِيت الدنيا. وأُرِيتُ النارَ، فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كاليومِ قَطُّ أَفْظَعَ، ورَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِها النِّساءَ). قالوا: بِمَ يا رسول الله؟ قال: (بِكُفْرِهِنَّ). قيل: يَكْفُرْنَ بالله؟ قال: (يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، ويَكْفُرْنَ الإِحْسانَ، لو أَحْسَنْتَ إلى إحداهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ ثُمَّ رَأَتْ منكَ شيئًا قالت: ما رَأَيْتُ منك خيرًا قَطُّ)(١)، وفي الثانية مثله مع اختلف يسير في العبارة (٢).

الكفر في اللغة التغطية والستر، ومنه أُطْلِق الكافر على أشخاص متعددين بجامع التغطية والستر في كلٍّ، يقول ابن دريد: " أصل الكفر التغطية على الشيء والستر له، فكأن الكافر مغطًّى على قلبه، وأحسب أن لفظَه لفظُ فاعِلٍ في معنى مفعول "(٣)، ويقول الأزهري: " وقال الليث: يقال: إنه سمي الكافر كافراً لأن الكفر غطَّى قلبَه كله (٤). قال: والكافر من الأرض: ما بَعُدَ عن الناس، لا يكاد ينزله أحد ولا يمر به أحد ... قلت: ومعنى قول الليث: قيل له كافر لأن الكفر غطَّى قلبه، يحتاج إلى بيان يدل عليه، وإيضاحُه أن الكفر في اللغة معناه التغطية، والكافر ذو كُفْرٍ، أي ذو تغطية لقلبه بكفره، كما يقال لِلَابِسِ السلاح: كافر، وهو الذي غطَّاه السلاح .... وأخبرني المنذري عن الحراني عن ابن السكيت أنه قال: إذا لبس الرجل فوق درعه ثوبا فهو كافر، وقد كفر فوق درعه. قال: وكل ما غطَّى شيئا فقد كفره. ومنه قيل لليل: كافر؛ لأنه ستر بظلمته كل شيء وغطَّاه "(٥)، ثم قال: " والعرب تقول للزارع: كافر؛ لأنه يَكْفُر البَذْرَ المبْذُورَ في الأرض بتراب الأرض التي أثارها ثم أَمَرَّ عليها مالَقَه (٦)، ومنه قول الله- جل وعز-: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾(٧)، أي أعجب الزُّرَّاعَ نَباتُه مع علمهم به، فهو غايةُ ما يُسْتَحْسَنُ، والغيث ها هنا: المطر، والله أعلم "(٨).

---

(١) صحيح البخاري، حديث /١٠٠٤.

(٢) صحيح البخاري، حديث /٤٩٠١.

(٣) الجمهرة (كفر)، وينظر المقاييس (كفر).

(٤) لم أقف على هذا النص في العين (كفر)، ولعل هذا من اختلاف النسخ.

(٥) التهذيب (كفر)، وينظر اللسان (كفر).

(٦) المالَق: الخشبة العريضة التي تُشَدُّ بالحبال إلى الثورين، فيقوم عليها الرجُلُ، ويجرها الثوران، فيُعَفِّي بها آثارُ آلة الحرث. ينظر اللسان (ملق).

(٧) الحديد /٢٠.

(٨) التهذيب (كفر)، وينظر اللسان (كفر).

فكل هذه الاستعمالات تؤكد دلالة الكُفْر على التغطية، وذكر ابن الأثير معنى زائدا على التغطية فقال: " وأصل الكفر: تغطية الشيء تغطية تَستَهلِكُه "(١)، فليس الأمر مجرد تغطية، إنما هي تغطية تستهلكه فلا يبقى معها أثر.

وفي هذا الحديث نجد الكفر مستعملا في أصل معناه اللغوي (التغطية والستر)، وليس في المعنى الاصطلاحي الشرعي (ضد الإيمان)، وفيه دليل على أن الكفر ليس مستوى واحدا، وأنه يزيد وينقص كما أن الإيمان يزيد وينقص، كل ذلك مرتبط بحقيقة المعتقَد ودرجة الفعل حُسْنا وقُبْحا، وقد ترجم البخاري لحديث الباب بقوله: " باب كُفْرَانِ الْعَشِيرِ وَكُفْرٍ بعد كُفْرٍ "(٢)، وقال أبو العباس القرطبي: " وأما الكفر الواقع في الشرع فهو جحد المعلوم منه ضرورةً شرعيةً، وهذا هو الذي جرى به العُرْفُ الشرعي، وقد جاء فيه الكفر بمعنى جحد المنعم، وترك الشكر(٣) على النعم، وترك القيام بالحقوق؛ ومنه قوله– عليه الصلاة والسلام– للنساء: (يكفرن الإحسان، ويكفرن العشير)، أي: يجحدن حقوق الأزواج وإحسانهم؛ ومن هاهنا صح أن يقال: كُفْرٌ دون كُفْرٍ، وظُلْمٌ دون ظُلْمٍ "(٤).

ولما أخبر النبي– صلى الله عليه وسلم– في هذا الحديث أن أَكْثَرَ أَهْلِ النار النِّساءُ– سئل عن سبب ذلك، فأخبر– صلى الله عليه وسلم– أنه (بِكُفْرِهِنَّ)؛ فتبادرا إلى أذهان بعض الصحابة المعنى الأَوَّلِيَّ للكفر عندهم، وهو الكفر بالله، الذي هو نقيض الإيمان؛ فسألوا (أَيَكْفُرْنَ بالله؟)، فأخبرهم النبي– صلى الله عليه وسلم– أنه كُفْر آخر غير الذي يظنون، إنما هو كُفْر العشير وكفر الإحسان، ثم ضرب لنا مثالا توضيحيا فيه تصوير لهذا الكفران حيث قال: (لو أَحْسَنْتَ إلى إحداهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ ثُمَّ رَأَتْ منكَ شيئًا قالت: ما رَأَيْتُ منك خيرًا قَطُّ).

والعشير– هنا– هو الزوج خاصة، أو المعاشر الذي يخالط الإنسان عامة، يقول ابن فارس: " العين والشين والراء أصلان صحيحان: أحدهما في عدد معلوم، ثم يُحمَل عليه غيرُه، والآخر يدل على مُداخَلَة ومُخالَطَة... فأما الأصل الآخر الدال على المخالطة والمداخلة فالعِشْرَة والمعاشَرة. وعَشِيرُك: الذي يُعاشِرُك. قال [الخليل](٥):

(١) النهاية (كفر).

(٢) صحيح البخاري ١/٢٠.

(٣) في الأصل (وترك الشرك)، والمعنى لا يستقيم به.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١/ ٢٥٣، وينظر فتح الباري لابن حجر ١٠/ ٤٦٦.

(٥) ينظر العين (عشر).

ولم أسمع للعَشِير جَمْعًا، لا يكادون يقولون هم عُشَراؤك، وإذا جمعوا قالوا: هم مُعاشِرُوك. قال: وإنما سميت عشيرةُ الرجلِ لمعاشَرة بعضِهم بعضا، حتى الزوج عَشِيرُ امرأتِه ... ويقال عاشَرَه مُعاشرة جميلة "(١)، فهذه المعاني جاءت من المخالطة والتداخل بين الإنسان وغيره، رجلا كان أو امرأة، يقول الحربي: " والعَشِير الخليط ، ولا يقال خليط إلا في شركة مال أو تجارة ، والعشير: الصديق، والزوج، وابن العَمِّ، وجمعها العُشَراء. قوله: (ويكفرن العشير): الزوج، عشير المرأة لمعاشَرة بعضهم بعضا ، وعاشَرْتُ فلانا مُعاشَرَة جميلة ، وعَشِيرُك: الذي أَمْرُكَ وأَمْرُهُ واحد "(٢).

والعشير في الحديث يصدق على حال كل واحد ممن يخالط المرأة ويعاشرها، سواء أكان زوجها أم غيره ممن يخالطونها في معيشة ونحوها، يقول القاضي عياض: " و (يكفرن العشير) قيل: هو الزوج، والعشير – أيضاً – المخالِط، فيحتمل أن يريد به الزوجَ أو كلَّ من يعاشرها ويخالطها من زوج وغيره "(٣)؛ إذ يصدق على كلٍّ لفظُ العشير، وحال المرأة مع الجميع يتحقق فيه ذلك، ويؤيده الواقع.

هذا كفران العشير، أما كفران الإحسان، فيحتمل أمرين:

الأول: أن يكون بيانا لكفر العشير، يقول ابن حجر: " قوله: (ويكفرن الإحسان) كأنه بيانٌ لقوله: (يكفرن العشير)؛ لأن المقصود كفرُ إحسانِ العشير لا كفر ذاته "(٤).

الآخر: أنه معنى ثانٍ أعم من الأول وأشمل له ولغيره، يقتضي كُفْرَهن لكل ذي إحسان إن بدر منه إليهن أي إساءة حسب رؤيتهن (ثم رأت)؛ فإنها (الإساءة) تُذهِب عندهن الإحسانَ ولو كان الدهر كله، يقول الشيخ زكريا الأنصاري: " (ويكفرن الإحسان) أي: ولو مع غير العشير، فهذه الجملة أعمُّ مما قبلها، وقيل: ليس كفرانُ العشير لذاته، بل لإحسانه، فالجملة كالبيان لما قبلها "(٥).

(لعن) لَعْنُ الوالدَيْنِ

عن عبد الله بن عمرو– رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: (إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ والدَيْه). قيلَ: يَا رَسُولَ الله، وكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ والدَيْهِ؟ قال: (يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ)(٦).

---

(١) المقاييس (عشر)، وينظر المعجم الاشتقاقي (عشر).

(٢) غريب الحديث لإبراهيم الحربي ١/ ١٥٧.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٣/ ٢٩٥.

(٤) فتح الباري ٥٤٢/٢.

(٥) منحة الباري بشرح صحيح البخاري ١/ ١٨٣.

(٦) صحيح البخاري، حديث /٥٦٢٨.

اللعن تختلف حقيقته باختلاف فاعله، فهو من الخالق– سبحانه– بمعنى، ومن الخلق بمعنى آخر وإن كان شديد الصلة بالأول، يقول ابن الأثير: " وأصل اللعن: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخَلْقِ السَّبُّ والدعاء "(١)، وكلمتا الرجل والوالدين معروفتا المعنى ظاهرتا الدلالة.

وفي هذا الحديث يُخْبِر النبي– صلى الله عليه وسلم– عن كبيرة من أكبر الكبائر، وهي لَعْنُ الرجلِ والديه، وهنا يأتي الاستفهام من بعض الصحابة– رضي الله عنهم– (يا رَسُولَ اللهِ، وكيف يَلْعَنُ الرَّجُلُ والِدَيْهِ؟)، إنهم يعرفون كل كلمة من كلمات هذا الحديث ويعرفون مدلولها، فليس أحد هذه الكلمات (يلعن – الرجل – الوالدين) غريبا عنهم فيحتاجون إلى معرفته، إنما الغرابة جاءت من إسناد الفعل (يلعن) إلى الرجل الكائن ابناً للملعون، ومن تركيبِ الكلمات مع بعضها بهذه الصورة الغريبة على مجتمعهم، مع أنهم قريبو عهْدٍ بجاهلية وكُفرٍ، لكن هذه الصورة الشنيعة التي فيها (يلعن الرجل والديه)– لا يَتصوَّر الواحدُ منهم وقوعها من الأبناء نحو آبائهم وأمهاتهم؛ لذلك لم يأت استفهامهم على سبيل الحقيقة، وإنما هو استفهام إنكاري؛ فيه استبعاد لحصول هذا الجُرْم من الأبناء، فلا يمكن أن يحدث هذا في واقع حياتهم. يقول البدر العيني: "قوله: (قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟) هذا استبعاد من السائل؛ لأن الطبع المستقيم يأبى ذلك، فبيَّن في الجواب أنه وإن لم يَتَعاطَ(٢) ذلك بنفسه ولكنه يكون سببا لذلك، وفي هذا الزمان من الناس الطَّغامِ (٣) مَن يَسُبُّ والديه بل يضربهما، ولقد شاهد جماعةٌ ذلك من العَقَقَة الفَجَرة، وربما ذبح والده، أخبرني بذلك جماعة "(٤).

إن ظاهر الحديث يقتضي أن يكون لَعْنُ الوالدين واقعا من ولدهما مباشرة، ولكن هذا ليس مراده– صلى الله عليه وسلم–، إنما هنا مجاز إسنادي؛ حيث أُسْنِد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي، وإنما صحَّ إسناده إليه لأن الفعل كان بسببه، يقول ابن بطال: "فكان ظاهر هذا أن يتولى الابنُ لَعْنَهُما بنفسه، فلما أخبر النبي– عليه السلام– أنه إذا سَبَّ أبا الرجلِ وسَبَّ الرجلُ أباه وأمه، كان كمن تَوَلَّى ذلك بنفسه، وكان ما آلَ إليه فِعْلُ ابنِه

(١) النهاية (لعن)، وينظر التركيب في المجموع المغيث، اللسان، المصباح، التاج.

(٢) في الأصل (وإن لم يتعاطى).

(٣) الطَّغام: أراذل الناس وأوغادهم. ينظر اللسان (طغم).

(٤) عمدة القاري ٢٢/ ٨٤، وينظر فتح الباري ٤٠٣/١٠.

كَلَعْنِه في المعنى؛ لأنه كان سَبَبَهُ "(١)، ويقول شمس الدين البرماوي: " (يلعن)، أي يَسُبُّ ويَقذِف، (والديه): الإسنادُ فيه مجازي باعتبار التسبُّب في ذلك "(٢).

(محو) **الماحي**

سبق الحديث عنه عند الحديث عن (الحاشر)

(نصر) **نَصْرُ الظالمِ**

عن أنس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا). قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قال: (تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ)(٣).

وعنه- رضي الله عنه- أيضا، قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا). فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قال: (تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ)(٤).

في هذا الموضع روايتان لأنس بن مالك- رضي الله عنه- لقول النبي- صلى الله عليه وسلم-: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا)، وهنا يقع التعجب من الصحابة على الإطلاق- كما في الرواية الأولى-، أو من رجل واحد منهم- كما في الرواية الأخيرة- ؛ ذلك أن نُصرة المظلوم معلومة معروفة بأن تدفع عنه الظلم وتحميه من الظالم، لكن كيف ينصرون الظالم؟ إذ ذلك- على المعنى السابق- يكون بإعانته على ظلمه، وتقويته وتشجيعه عليه، وهذا لا يتفق مع مبادئ الشريعة العادلة؛ مما استدعى السؤال طلبا للبيان، فبيَّن لهم النبي- صلى الله عليه وسلم- المراد بنصرة الظالم، وهو شيء غير الذي ذهبت إليه عقولهم؛ وذلك بأن تأخذ على يديه وتحجزه عن ظلمه وتمنعه.

والنَّصْر والنُّصْرة في استعمال اللغة العَوْن والإمداد، يقول الخليل: " النصر: عَوْن المظلوم. وفي الحديث: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما)، وتفسيره: أن يمنعه من الظلم إن وجده ظالما، وان كان مظلوما أعانه على ظالمه"(٥)،ونصَّ الأزهري على أن

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٩/ ١٩٢.

(٢) اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح، شمس الدين البرماوي ١٦/١٥، وينظر: منحة الباري بشرح صحيح البخاري ١٥٥/٩.

(٣) صحيح البخاري، حديث /٢٣١٢.

(٤) صحيح البخاري، حديث /٦٥٥٢.

(٥) العين (نصر)، وينظر التركيب في التهذيب والمفردات واللسان.

" النصرة: حسن المعونة "(١)، ووصْفُ المعونة بالحُسن يتناسب مع المعنى الأصلي للتركيب الذي ذكره ابن فارس حيث قال: " النون والصاد والراء أصل صحيح يدل على إتيان خير وإيتائه. ونَصَرَ اللهُ المسلمين: آتاهم الظفر على عدوهم، ينصُرهم نصْرا"(٢)؛ فنصُّه على إتيان الخير وإيتائه يناسبه الوصف بالحُسن.

وفي بيان المعنى الأصلي للتركيب يقول الدكتور جبل: " المعنى المحوري الإمداد بما فيه زيادةٌ مناسبةٌ وقوة: كما تمد النواصر الأوديةَ والتلاعَ بالماء(٣)، وكما يمد الغيثُ الأرضَ، وكالعطاء. ومن ملحظ الإمداد بالزِّيادة والقوة جاءت (النُصْرة – بالضم: حُسْنُ المعونة / إعانة المظلوم)، وهذا– أعني المعونة– هو أَشْيَعُ معاني النصر. وليس الغَلَب من معاني التركيب الأصلية، وإنما يتأتى باللزوم للمعونة، وبمساعدة الاستعلاء في (عَلى) ... ومن الإمداد المذكور استُعمل النصر بمعنى الإنقاذ أو الخلوص من العذاب –وهو سلامةٌ وبقاءُ قوةٍ، فهو من جنس المعونة التي هي تقوية، وذلك بمعونة التعدية بـــ (من) –كما في قوله– تعالى–: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ (٤)﴾ "(٥).

واستعمال النصر بمعنى الإنقاذ والخلوص من العذاب ذكره الصنعاني في شرحه لحديث الباب حيث قال: "(انصر أخاك) أي المسلم، والخطاب لكل مسلم، والإضافة للجنس، (ظالما) حال من المفعول، أي حال كونه ظالما لنفسه بفعل ما لا يحل أو لغيره، وهو حال مقدرة، أي حال كونه مريدًا للظلم أو آخذًا فيه، وذلك تمنعه. (أو مظلومًا) بإعانته على من ظلمه وتخليصه من يده. (قيل)، أي قال سائلٌ له– صلى الله عليه وسلم–: (كيف أنصره ظالما؟) أي: قد عُلِم من الشرع والعقل أن الظلم محرم، فكيف أُعين عليه؟ (قال: تَحْجُزُهُ) بالمهملة فالجيم فالزاي: تمنعه (عن الظلم)، وتحول بينه وبينه، فإن ذلك نصره، أي مَنْعُه عن ظلمه الغيرَ أو النفسَ هو الإعانةُ له والنصر؛ لأنه يُعينه على دفع العقاب عنه في الآخرة، فهو إما من باب المشاكلة، أو من تسميته باعتبار الأول، وفيه أنه يجب على كل مسلم نصرُ أخيه إذا رآه في منكر أو

(١) التهذيب (نصر)، وينظر التركيب في اللسان.

(٢) المقاييس (نصر).

(٣) النواصر: مجاري الماء إلى الأودية، واحدها ناصر. والتلاع: جمع التَّلْعة، وهي مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض. ينظر اللسان (نصر) و (تلع).

(٤) هود /٣٠.

(٥) المعجم الاشتقاقي (نصر).

مريدًا أَذِيَّةَ أحد، وهذا مما تساهل فيه الناس "(١)، فالظالم وإن كان متعديا على غيره فهو ظالم لنفسه أيضا؛ فيكون ظالما ومظلوما من جهة نفسه في الوقت ذاته، وما دام مظلوما فإنه يحتاج إلى من ينصره ويعينه على ظالمه الذي هو نفسه.

ويعلل ابن بطال لتسمية الرسول- صلى الله عليه وسلم- مَنْعَ الظالم من ظُلْمه نصرا فيقول: " والنُّصْرة عند العرب: الإعانة والتأييد، وقد فسره رسول الله أن نَصْرَ الظالم مَنْعُه من الظلم؛ لأنه إذا تركته على ظلمه ولم تَكُفَّه عنه أَدَّاهُ ذلك إلى أن يُقْتَصَ منه؛ فَمَنْعُكَ له مما يوجب عليه القصاص نَصْرُهُ، وهذا من باب الحكم للشيء وتسميته بما يئول إليه، وهو من عجيب الفصاحة، ووجيز البلاغة "(٢)، وبذلك تكون قد نصرته من نفسه، وأعنته على شيطانه وهواه، يقول الطيبي: " قوله: (فذلك نصرك إياه) إشارة إلى المنع. أي منعك أخاك عن الظلم نصرك إياه على شيطانه الذي يغويه، وعلى نفسه التي تأمره بالسوء "(٣)، وبذلك يكون نَصَرَهُ بمَنْعِه من الظلم كما ينصره بمنع الظالم عنه وإعانته على ظالمه.

وخلاصة الأمر أن المجتمع المسلم مطالَب بنصرة المظلوم وإعانته ومَنْعِه من ظالمه، سواء في ذلك كونُ الظلم جاءه من غيره أم جاءه من عند نفسه الأمارة بالسوء، وشيطانه الذي يُضله ويغويه؛ وبهذا يحيا المجتمع آمنا مطمئنا، ويتحقق الأمن والسلم المجتمعي، فما أحوجنا إلى تطبيق هذا الهَدْيِ النبوي في أيامنا هذه !!!

يقول البيهقي: " قال الإمام أحمد- رحمه الله-: " ومعنى هذا أن الظالم مظلوم من جهته كما قال الله- عز وجل-: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴾(٤)، فكما ينبغي أن يُنصر المظلوم- إذا كان غيرَ نفسِ الظالم ليُدفع الظلم عنه- كذلك ينبغي أن يُنصر إذا كان نفسَ الظالم ليُدفع ظُلمُه عن نفسه، وإنما أَمَرَ كلَّ واحد بنصرة أخيه المسلم- إذا رآه يُظْلَم وقَدَر على نصره- لأن الإسلام إذا جمعهما صارا كالبدن الواحد، كما أن أخوة النسب لو جمعتهما كانا كالبدن الواحد، والدِّين أقوى من القرابة، وأولى بالمحافظة

(١) التنوير شرح الجامع الصغير ٤/ ٢٨٤.
(٢) شرح صحيح البخاري ٦/ ٥٧٢.
(٣) شرح المشكاة للطيبي ٣١٧٧/١٠.
(٤) النساء /١١٠.

عليه منها، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله- عز وجل-: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ (١)﴾ "(٢).

(نقش) **مناقشة الحساب**

سبق الحديث عنه عند الحديث عن (الحساب اليسير) في الألفاظ القرآنية.

(نقص) **نُقْصانُ العَقْلِ والدِّينِ**

عن أبي سعيد الخدري قال: خرج رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في أَضْحَى أو فطْرٍ إلى المصلَّى، فمَرَّ على النساء فقال: (يا مَعْشَرَ النِّسَاء، تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ)، فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: (تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ). قُلْنَ: وما نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: (أَلَيْسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ)؟ قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: (فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ)؟ قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: (فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا)(٣).

النَّقْصُ والنُّقْصان مصدران للفعل (نقص) لازما ومتعديا، يقول ابن القطاع: "نَقَصَ الشيءُ ونَقَصتُه نَقْصا ونُقصانا: ذهب منه بعد تمامه شيءٌ. و [نَقَصَ] فلاناً حقّه: ضد أوفاه "(٤)، وذكر الفيروزابادي أنه يقال: " دخل عليه نقصٌ في دينه وعقله، ولا يقال نقصان "(٥)، وعلَّل لذلك الزَّبيدي فقال: " وذلك لأن النقص هو الضعف، وأما النقصان فهو ذهاب بعد التمام. هذا الذي ظهر لي بعد التأمل، فانظره "(٦)، وجعل ابن سيده " النقص: ضَعْفَ العقلِ "(٧).

وذكر الطيبي أن " العقل: غريزة في الإنسان، يدرك بها المعنى، ويمنعه عن القبائح، وهو نور الله في قلب المؤمن. واللُّبّ: العقل الخالص من الشوائب. وسمي بذلك لكونه خالصَ ما في الإنسان من قُواه، كاللُّباب من الشيء. وقيل: هو ما زكَى من العقل. وكلُّ لُبٍّ عَقْلٌ، وليس كلُّ عقلٍ لُبًّا "(٨).

---

(١) الحجرات /١٠.

(٢) الجامع لشعب الإيمان ٨٤/١٠.

(٣) صحيح البخاري، حديث /٢٩٨.

(٤) كتاب الأفعال لابن القطاع ٢٥٩/٣، وينظر (نقص) في المصباح والتاج.

(٥) القاموس (نقص).

(٦) التاج (نقص).

(٧) المحكم (نقص).

(٨) شرح المشكاة ٤٦٥/٢.

وفي هذا الحديث حكم النبي- صلى الله عليه وسلم- على النساء بأنهن ناقصات عقل ودين، فسأله بعض الصحابيات- رضي الله عنهن- عن المراد بنقصان دينهن وعقلهن؛ فأجاب النبي- صلى الله عليه وسلم- عن سؤالهن، شارحا لهن المراد بكل واحد من الأمرين: نقصان العقل، ونقصان الدين، وبيان ذلك فيما يلي:

أولا: نقصان العقل، حيث ذكر صورة من ذلك، وهي كون شهادة المرأة تعدل نصف شهادة الرجل، وذلك من نقصان عقلها، وفي هذا إشارة إلى قول الله- تعالى-: ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾(١).

يقول الدكتور مصطفى البُغا: " (من نقصان عقلها) أي وجودُ الثانية معها لنسيانها وقلة ضبطها، وهذا يُشْعِر بنقص عقلها عن الرجل إجمالا، وأما تفصيلا فقد تكون امرأةٌ أكثرَ عقلا من كثير من الرجال "(٢)، على ما يأتي بيانه بعدُ إن شاء الله.

ونلحظ في الحديث أن النبي- صلى الله عليه وسلم- أجاب النساء عن نقصان العقل بأن شهادة الواحدة منهن مثل نصف شهادة الرجل، مع أن التعبير القرآني جاء بأن المرأتين تعدلان رجلا، ﴿ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾، وقد اختلف التعبير بين الآية والحديث- وإن كان المعنى العام فيهما واحدا- لأن الحديث جاء في سياق بيان النقص فيهن؛ فكان التعبير بالنصف أوفق للدلالة على قلة عقلها ونقصانه عن الرجل، والسياق في الآية غير السياق في الحديث، يقول البدر العيني: " قوله: (أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل) إشارة إلى قوله- تعالى-: ﴿ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾(٣). فإن قلتَ: ما النكتة في تعبيره بهذه العبارة ولم يقل: أليس شهادة المرأتين مثل شهادة الرجل؟ قلتُ: لأن في عبارته تلك تنصيصا على النقص صريحا، بخلاف ما ذكرت، فإنه يدل عليه ضمنا، فافهم فإنه دقيق. فإن قلتَ: أليس ذلك ذمًّا لهن؟ قلتُ: لا، وإنما هو على معنى التعجب بأنهن مع اتصافهن بهذه الحالة يفعلن بالرجل الحازم كذا وكذا. فإن قلتَ: هذا العموم فيهن يعارضه قوله- صلى الله عليه وسلم-: (كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يَكْمُلْ من النساء إلا مريمُ بنتُ عمران وآسيةُ بنتُ مُزَاحِم)(٤) وفي رواية أربع، وهو ما رواه الترمذي وأحمد من حديث أنس- رضي الله

(١) البقرة /٢٨٢.

(٢) صحيح البخاري ١١٦/١ (حاشية)، وينظر: فتح الباري لابن حجر ٤٠٦/١، إرشاد الساري ٣٤٧/١، ٣٨٨/٤.

(٣) البقرة /٢٨٢.

(٤) الحديث في صحيح البخاري /٣٢٥٠، بلفظ (آسية امرأة فرعون) بدل (آسية بنت مزاحم).

تعالى عنه– قال: قال النبي– صلى الله عليه وسلم–: (حَسْبُكَ من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد – صلى الله عليه وسلم–)(١). قلت: أجاب بعضهم بأن بعض الأفراد خرج عن ذلك لأنه نادر قليل. والجواب السديد في ذلك هو أن الحكم على الكل بشيء لا يستلزم الحكم على كل فرد من أفراده بذلك الشيء "(٢).

وقد أحسن الطيبي في تعليقه على الحديث حيث قال: " أقول: وفي الحديث إغراب للمعنى، وإغراق في الوصف، أثبت– صلى الله عليه وسلم– لَهُنَّ وصفين: كفرانَ العشير، وإكثارَ اللعن، ثم ذكر أن ليس لهن عقل يمنع من ارتكاب تَيْنِكَ الخصلتين، ولا دين رادع عنهما؛ لأن الخصائل الرذائل مركوزة في جِبِلَّة الإنسان، وقَلْعُهَا إما بالعقل، أو الدين، قال المتنبي(٣) :

والظُّلْم مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فإن تَجِدْ ذا عِفَّة فَلِعلَّة لا يَظْلِمُ "(٤).

ثانيا: نقصان الدين، بيَّن النبي– صلى الله عليه وسلم– أن سبب وصف النساء بنقصان الدين شيءٌ خارجٌ عن إرادتهن، كتبه الله على بنات آدم، وهو الحيض؛ مما يجعل المرأة تتوقف عن الصلاة وتمسك عن الصيام، وهذا أمر يجعل عبادتها في الغالب أقل من عبادة الرجل، يقول الخطابي: " وفي الحديث دليل على أن النقص من الطاعات نقصٌ من الدين "(٥)، ويعلِّق عليه البدر العيني فيقول: " قلتُ: لا ينقص من نفس الدين شيءٌ، وإنما النقص أو الزيادة يرجعان إلى الكمال "(٦)؛ ذلك أنها معذورة في هذا الأمر، بل هي مأمورة بعدم الصلاة والصيام أيام حيضها، ولو صلَّت أو صامت كانت آثمة؛ لهذا وجَّه البدرُ النقص إلى نقص الكمال في الدين، وليس نقص الدين ذاته، وإلى نحو هذا ذهب عليٌّ القاري حيث قال: " قال: (فذلك) أي كونها غير مصلية ولا صائمة (من نقصان دينها)، يعني في الجملة؛ لأنها حُرمت من ثواب الصلاة فإنها لا

(١) الحديث مروي– مع اختلاف في بعض الألفاظ وترتيب النساء– في مسند أحمد، حديث /١٢٣٩١، سنن الترمذي، حديث /٣٨٧٨.

(٢) عمدة القاري ٢٧٢/٣.

(٣) ديوان المتنبي /٥٧١.

(٤) شرح المشكاة ٤٦٦/٢.

(٥) أعلام الحديث ٣١٦/١.

(٦) عمدة القاري ٢٧٣/٣.

تقضي، ومن كمال ثواب الصوم حيث لم يقع في وقت الفضيلة مع مشاركة المؤمنين في الطاعة، ولعل هذا وجه إيراده في هذا الباب، والله أعلم بالصواب"(١).

ويقول الدكتور البُغا: " أي إن ما يقع منها من العبادة- وهي من أهم أمور الدين- أَنْقَصُ مما يقع من الرجل "(٢)، ويقول أبو عمر القرطبي: " هذا الحديث يدل على أن نقصان الدين قد يقع ضرورة لا تُدْفَعُ، ألا ترى أن الله جَبَلَهُنَّ على ما يكون نقصًا فيهن؟ قال الله- عز وجل-: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾(٣)، وقد فضل الله أيضا بعض الرجال على بعض، وبعض النساء على بعض، وبعض الأنبياء على بعض، لا يُسأَل عما يفعل، وهو الحكيم العليم "(٤).

ولما كان النساء معذورات في هذا الأمر بيَّن ابن حجر سببَ ذِكْر النبي- صلى الله عليه وسلم- له مع كونه ليس تقصيرا منهن، ولا تفريطا في دينهن، فقال: " وليس المقصود بذكر النقص في النساء لومهن على ذلك؛ لأنه من أصل الخِلقة، لكن التنبيه على ذلك تحذيرا من الافتتان بهن؛ ولهذا رَتَّبَ العذابَ على ما ذكر من الكفران وغيره لا على النقص، وليس نقصُ الدين منحصرا فيما يحصل به الإثم، بل في أعم من ذلك، قاله النووي؛ لأنه أمر نسبي، فالكامل مثلا ناقص عن الأكمل، ومن ذلك الحائض لا تأثم بترك الصلاة زمن الحيض، لكنها ناقصة عن المصلي "(٥).

بقي الإشارة إلى أنه لا تعارض بين كمال الدِّين والعقل، فقد يكون الإنسان ذا درجة عالية في الدين والأمانة والصدق، لكنه غيرُ ذلك في عقله وضبطه، يقول الخطابي معلقا على هذا الحديث: " فيه دلالة على أن مَلاك الشهادة العقلُ مع اعتبار الأمانة والصدق، وأن شهادة المغفل من الناس ضعيفة وإن كان رَضِيًّا في الدين والأمانة "(٦)، ويقول ابن بطال: " قال المهلب: وفي حديث أبي سعيد دليلٌ أن الناس يجب أن يتفاضلوا في الشهادة بقدر عقولهم وفهمهم وضبطهم، وأن يكون الرجل الصالح الذى نعرف منه الغفلة والبلادة يُتَوَقَّف عند شهادته في الأمور الخفية، وتُقْبَل شهادةُ اليقظان الفَهِم العدل، والتفاضل في شهادتهما على قدر أفهامهما "(٧).

---

(١) مرقاة المفاتيح ٩٤/١.

(٢) صحيح البخاري ١١٦/١ (حاشية).

(٣) البقرة /٢٨٢.

(٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٣/ ٣٢٦.

(٥) فتح الباري ٤٠٦/١.

(٦) أعلام الحديث ٣١٦/١.

(٧) شرح صحيح البخاري ٢٣/٨.

(هجر) المهاجر

سبق الحديث عنه عند الحديث عن (المسلم).

(هرج) الهَرْج

عن سالم قال سمعت أبا هريرة: عن النبي– صلى الله عليه وسلم– قال: (يُقْبَضُ العِلْمُ، وَيَظْهَرُ الجَهْلُ وَالفتَنُ، وَيَكْثُرُ الهَرْجُ). قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الهَرْجُ؟ فَقَالَ: (هَكَذَا بِيَدِهِ فَحَرَّفَهَا)، كَأَنَّهُ يُرِيدُ القَتْلَ)(١).

وعن أبي هريرة قال: قال النبي– صلى الله عليه وسلم–: (لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ العِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الهَرْجُ، وَهُوَ القَتْلُ القَتْلُ، حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ فَيَفِيضَ)(٢).

وعنه أيضا قال: قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: (يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ العَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَيَكْثُرُ الهَرْجُ). قَالُوا: وَمَا الهَرْجُ؟ قَالَ: (القَتْلُ القَتْلُ)(٣).

هنا عدة أحاديث يُخبرنا فيها النبي– صلى الله عليه وسلم– عن بعض ما يكون من أحداث وفتن في آخر الزمان، قرب قيام الساعة، وقد تقاربت ألفاظ هذه الأحاديث وعبارتها، مع وجود زيادة في بعضها عن الآخر، وإن كان أحدُها (٤) ذكر عددا كبيرا من هذه الأحداث.

وقد ورد في جميعها لفظ (الهرج)، وبيَّن النبي– صلى الله عليه وسلم– معناه في بعضها دون سؤال، وفي بعضها كان البيان بعد سؤال من الصحابة– رضي الله عنهم.

والذي يلفت النظر في أحد هذه الأحاديث أنه– صلى الله عليه وسلم– بين معنى الهرج بنوع من أنواع الدلالة غير اللفظية، و هو دلالة الإشارة، وذلك كما في الحديث (قيل يا رسول الله وما الهرج ؟ فقال هكذا بيده فحرفها، كأنه يريد القتل)، ودلالة الإشارة إحدى أنواع الدلالة والبيان المعتبرة عند اللغويين، يقول الجاحظ: " وجميع أصناف الدلالات على المعنى من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد،

(١) صحيح البخاري، حديث /٨٥.

(٢) صحيح البخاري، حديث /٩٨٩.

(٣) صحيح البخاري، حديث /٥٦٩٠، ورُوِي عن أيضا أبي هريرة– رضي الله عنه– في حديث /٦٦٥٢ بزيادة (وتظهر الفتن) قبل (ويكثر الهرج)، وسؤال الصحابة– رضي الله عنهم– بلفظ " قالوا: يا رسول الله، أيما هو ؟ ".

(٤) ينظر صحيح البخاري، حديث /٦٧٠٤.

أولها: اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نِصْبة، والنِّصْبة هي الحال الدَّالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تُقَصِّر عن تلك الدلالات "(١).

ثم يتحدث الجاحظ عن دلالة الإشارة وأثرها في إفادة المعنى، وكونها ظهيرا ومعينا لدلالة اللفظ فيقول: " قد قلنا في الدلالة باللفظ. فأما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين، والحاجب، والمنكب- إذا تباعد الشخصان- وبالثوب، وبالسيف. وقد يَتَهَدَّدُ رافعُ السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرا، ومانعا رادعا، ويكون وعيدا وتحذيرا. والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط ... وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح- مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاصٌّ الخاصِّ، ولَجَهِلُوا هذا الباب ألبتة "(٢).

وفي إحدى روايات حديث الباب نجد النبي- صلى الله عليه وسلم- يبيِّن معنى الهرج بإشارة بيده، يقول أبو هريرة: (فقال هكذا بيده فحرَّفها) ثم فسَّر لنا إشارته - صلى الله عليه وسلم- فقال: (كأنه يريد القتل)، وقد ذكر البخاري هذا الحديث مع غيره من الأحاديث وترجم للباب بقوله: " باب من أجاب الفُتْيا بإشارة اليد والرأس"(٣).

والفعل (قال) يستعمل في معان عديدة غير القول الذي هو الكلام، يقول الأزهري: " وقال ابن الأعرابي: العرب تقول: قالوا بزيد، أي: قتلوه. وقلنا به، أي: قتلناه "(٤)، ويقول ابن الأثير: " وفي حديث آخر (فقال بثوبه هكذا)(٥)، العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال، وتُطلقه على غير الكلام واللسان، فتقول: قال بيده: أي أخذ، وقال برِجْله: أي مشى. قال الشاعر:

وقالت له العينان: سَمْعًا وطاعَةً(٦).

---

(١)البيان والتبيين ٧٦/١.

(٢) البيان والتبيين ٧٧/١.

(٣) صحيح البخاري ٤٣/١.

(٤) التهذيب (قول).

(٥) ينظر المجموع المغيث (قول).

(٦) هذا شطر بيت لم أقف على قائله، وتمامه:

وقالتْ له العَيْنان: سَمْعًا وطاعَةً وَحَدَّرَتَا كَالدُّرِّ لَمَّا يُثَقَّبِ

كما في أمالي ابن الشجري ٥١/٢، اللسان والتاج (قول)، وعجزه في الخصائص ٢٢/١ برواية وأَبْدَتْ كَمِثْلِ الدُّرِّ لَمَّا يُثَقَّبِ.

أي أَوْمَأَتْ، وقال بالماء على يده: أي قَلَبَ، وقال بثوبه: أي رفعه. وكل ذلك على المجاز والاتساع "(١).

فالعرب قد توسَّعوا في دلالة الفعل (قال) فاستعملوه في معنى الإيماء والإشارة، يقول الزمخشري: " ومن المجاز: قال بيده: أهوى بها، وقال برأسه: أشار "(٢)، ويقول ابن الشجري: " ومن معانى القول: أنهم عبّروا به عن حديث النّفس، فقالوا: قلت في نفسى كذا وكذا ... ومنها: أنهم استعملوه بمعنى الحركة والإيماء بالشيء، فقالوا: قال برأسه كذا، فنطحني. وقال بيده كذا، فطرف عينه. وقالت النخلة هكذا، فمالت، فعبّروا بالقول عن الفعل الذى هو حركة "(٣).

وهنا في الحديث استُعْمِل الفعل (قال) بمعنى أومأ وأشار، وذلك في تعبير أبي هريرة– رضي الله عنه–: (فقال هكذا بيده فحرَّفها)، يقول ابن حجر: " هو من إطلاق القول على الفعل، قوله (فَحَرَّفَها): الفاء فيه تفسيرية، كأن الراوي بَيَّن أن الإيماء كان مُحَرَّفًا، قوله: (كأنه يريد القتل): كأن ذلك فُهِمَ من تحريف اليد وحركتها كالضارب"(٤)، فالتحريف تفعيل من الحرف، وهو الطرف والحد، يقول الجوهري: "حَرْفُ كلِّ شيء: طَرَفُه وشَفِيرُه وحَدُّهُ، ومنه حَرْفُ الجبل، وهو أعلاه المحدَّد "(٥)، وقال ابن الأثير: "(وقال بيده فَحَرَّفَها)، كأنه يريد القتل: ووصف بها قَطْعَ السيفِ بِحَدِّه"(٦)، فحركة اليد كانت بجانبها وحدِّها، متمثلا هيئة السيف عند الضرب والقتل.

أما الهَرْجُ في اللغة فيدل على الاختلاط والاضطراب والكثرة في الشيء، يقول الفارابي: " والهَرْجُ: الفِتْنَةُ، وأَصْلُهُ الكَثْرَةُ في الشَّيْء "(٧)، ويقول ابن فارس: " الهاء والراء والجيم أصل صحيح يدل على اختلاط وتخليط. منه هَرَّجَ الرجلُ في حديثه: خَلَّط. ويُقاس على هذا فيقال للقتل هَرْجٌ، بسكون الراء "(٨)، واستعمالات التركيب

(١) النهاية (قول)، وينظر التركيب في المجموع المغيث واللسان والتاج.
(٢) أساس البلاغة (قول).
(٣) أمالي ابن الشجري ٥١/٢.
(٤) فتح الباري ١٨٢/١، وينظر: النكت على صحيح البخاري لابن حجر ١٦٠/٢، عمدة القاري٩٢/٢، إرشاد الساري ١٨٣/١.
(٥) الصحاح واللسان (حرف).
(٦) النهاية واللسان (حرف).
(٧) ديوان الأدب ١٠٠/١.
(٨) المقاييس (هرج).

وصيَغُه تشهد لهذا "(١)، ومن هذا المعنى قالوا: " الهَرْجَلة: الاختلاط في المشي، يقال منه: قد هَرْجَلَت الإبلُ "(٢).

فأصل الهرْج الاختلاط، ومنه استعمل في معنى القتل لما يكون فيه من اختلاط في الأمر، خاصة إذا ضممنا له معنى الكثرة الذي ذكره الفارابي، واستعماله بهذا المعنى فيه صورة من صور التطور الدلالي؛ من باب تخصيص الدلالة، واستعماله في القتل إنما هو لازم من لوازم معنى الهرج، خاصة في زمن الفتن والاضطراب واقتراب الساعة، يقول الكرماني : "(الهرج) بسكون الراء، وهو الفتنة والاختلاط، وأصله الكثرة في الشيء، فإرادة القتل من لفظ الهرج إنما هو على طريق التجوز؛ إذ هو لازمُ معنى الهرج، اللهم إلا أن يثبت ورود الهرج بمعنى القتل لغةً ومعنى"(٣).

ولعل في تكرار اللفظ (القتل القتل) الذي ورد في ثلاث روايات(٤) ما يدل على أحد أمرين: الأول: تأكيد وقوعه آخر الزمان، وتحذير الناس منه. والآخر: أنه كرره لإفادة الكثرة والمبالغة، وهذا يتوافق مع أصل الاستعمال اللغوي.

بقي الإشارة إلى أن البخاري أورد ما يدل على أن استعمال الهرج بمعنى القتل- غير عربي الأصل، حيث قال: " حَدَّثنا قُتَيْبَةُ، حَدَّثنا جَرِيرٌ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِل، قَالَ: إِنِّي لَجَالِسٌ مَعَ عَبْدِ اللهِ، وَأَبِي مُوسَى- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- (٥)، فَقَالَ أَبُو مُوسَى: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَمَ، مِثْلَهُ، وَالهَرْجُ بِلِسَانِ الحَبَشَةِ: القَتْلُ "(٦)، وقال: " حَدَّثنا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثنا غُنْدَرٌ، حَدَّثنا شُعْبَةُ، عَنْ وَاصِلٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، وَأَحْسِبُهُ رَفَعَهُ، قَالَ: بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامُ الهَرْجِ، يَزُولُ العِلْمُ، وَيَظْهَرُ فِيهَا الجَهْلُ، قَالَ أَبُو مُوسَى: وَالهَرْجُ: القَتْلُ بِلِسَانِ الحَبَشَةِ "(٧).

وقد علَّق القاضي عياض عليه بقوله: " وفي بعض الروايات (الهرج القتل بلغة الحبشة) وَهْمٌ من قولِ بعض الرواة، وإلا فهي عربية صحيحة، والهرج أيضا

(١) ينظر (هرج) في العين والجمهرة والتهذيب والصحاح والمحكم.

(٢) التهذيب (هرجل).

(٣) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري ٦٦/٢.

(٤) التهذيب (هرجل).

(٥) هما عبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري- رضي الله عنهما- كما ذكر البدر العيني. ينظر عمدة القاري ١٨٣/٢٤.

(٦) صحيح البخاري، حديث /٦٦٥٥.

(٧) صحيح البخاري، حديث /٦٦٥٦.

الاختلاط"(١)، فوصف القول بحبشية الهرج بالوهم، وهذا أمر يؤكده أصل اللغة واشتقاقها، ولعلها كلمة غاب معناها على الراوي فحكم عليها بهذا الحكم.

وأختم بتوجيه ابن حجر لِوُرود تفسيرين للهرج في روايات الحديث، أحدهما دلالة لفظية (القتل)، والآخر دلالة إشارية (فقال هكذا بيده فحرفها) حيث قال: " قوله: قال: (القتل القتل) صريح في أن تفسير الهرج مرفوع، ولا يُعارض ذلك مجيئُه في غير هذه الرواية موقوفا، ولا كونه بلسان الحبشة، وقد تقدم في كتاب العلم من طريق سالم بن عبد الله بن عمر، سمعت أبا هريرة فذكر نحو حديث الباب ... وقال في آخره: قيل: يا رسول الله، وما الهرج؟ (فقال هكذا بيده فحرفها)، كأنه يريد القتل، فيُجْمَعُ بأنه جَمَعَ بين الإشارة والنطق، فحَفِظَ بعضُ الرواة ما لم يحفظ بعضٌ "(٢).

(وجه) ذو الوجهين

عن أبي هريرة– رضي الله عنه– عن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– قال: (تَجِدُونَ النَّاسَ مَعادِنَ، خِيارُهُمْ في الجاهلية خِيارُهُمْ في الإسلام إذا فَقُهُوا، وتَجِدُونَ خيرَ الناسِ في هذا الشَّأْنِ أَشَدَّ له كَرَاهِيةً، وتَجِدُونَ شَرَّ الناسِ ذا الوَجْهَيْنِ: الذي يَأْتِي هؤلاءِ بوَجْهٍ ويَأْتِي هؤلاء بِوَجْهٍ)(٣).

الوجه معروف، وهو– من الرأس– ما تُواجِهُ به غيرَك حين تتجه إليه، وهو "مُسْتَقْبَلُ كلِّ شيء "(٤)، أي ما يُقابِلُكَ منه، ولكل أحد وجه واحد، لكننا نجد النبي – صلى الله عليه وسلم– في هذا الحديث يصف لنا نوعا مخصوصا من البشر بأنه ذو وجهين، ثم بيَّن المراد به، مُعْلِنًا أنهما ليسا وجهين على الحقيقة، وإنما هما تصوير لحال المنافق المتلوِّن الذي لا يثبت على أمر واحد، بل يتقلب مع كل أحد بما فيه مصلحته– حسبما يرى هو–، لدرجة أنك تجده في الأمر ومُضادِّه، يقول القسطلاني: "ليس المراد به الحقيقة، بل هو مجاز عن الجهتين، مثل المدحة والمذمة. قال– تعالى–: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾(٥)، أي إذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين أظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة غرورًا منهم للمؤمنين ونفاقًا وتقية، وإذا انصرفوا إلى شياطينهم: سادتهم

(١) مشارق الأنوار على صحاح الآثار ٢/٢٦٧.

(٢) فتح الباري ١٣/١٤، وينظر إرشاد الساري ٢/٢٥٦.

(٣) صحيح البخاري، حديث /٣٣٠٤.

(٤) العين (وجه).

(٥) البقرة /١٤.

وكبرائهم ورءسائهم من أحبار اليهود ورءوس المشركين والمنافقين ﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾، ساخرون بالقوم "(١).

ويقول الكوراني: " ولا يخفى أن الكلام على طريق الاستعارة؛ فإنه لَمَّا أَظْهَرَ لطائفة خلافَ ما أَظْهَرَ للطائفة الأخرى فكأنه جاء هؤلاء بغير ذلك الوجهِ الأولِ "(٢)، وذكر أن في هذا الوصف " ما يُشْبِهُ النِّفاقَ بل أعظم، فإنه يُوقِع الفتنةَ بين المسلمين، والوجه مجاز عن الصفة والشأن، وهذا متعارَف، يقال: خرج فلان بوجهٍ غيرِ الوجهِ الذي دخل به "(٣).

فهذا التصوير النبوي إنما هو من بلاغة النبي– صلى الله عليه وسلم–؛ حيث نقل وصف هذا الرجل من الحالة المعنوية إلى حالة حسِّيَّة منفِّرة، ويكفيه أن يحكم عليه بأنه (شرُّ الناس)، وأَوْضَعُهم قدرا، وأحطُّهم منزلة، قال الأمير الصنعاني : " قال العراقي: إنما كان شرَّ الناس لأن حاله حالُ المنافقين؛ إذ هو يَتَخَلَّق بالباطل وبالكذب، مُدخلاً للفساد بين الناس. وقال النووي: هو الذي يأتي كل طائفة بما يُرضيها، فيظهر لها أنه منها ويخالف لضدها، وصنيعه نِفَاقٌ مَحْضٌ وخداع وتَصنُّعٌ وتَحَيُّل على الاطلاع على أسرار الفريقين، وهي مداهنة مخزية "(٤)، ووصف حاله بقوله: " وهو أن يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه من كل متعادين، ويذم هذا عند ذا وهذا عند ذا؛ يتحبب إليهما نفاقًا وزورًا جعل تلونه في الأحوال كتلون ذاته "(٥).

وأسوق– هنا– كلام ابن حجر؛ حيث جمع ما عليه كثير من شُرَّاح الحديث فقال: "قال القرطبي: إنما كان ذو الوجهين شرَّ الناس لأن حالَهُ حالُ المنافق؛ إذ هو مُتَمَلِّقٌ بالباطل وبالكذب، مُدْخِلٌ للفساد بين الناس(٦) وقال النووي: هو الذي يأتي كل طائفة بما يُرضيها فيُظهِر لها أنه منها ومُخالف لضدها، وصَنِيعُه نفاقٌ ومَحْضُ كذبٍ وخداع وتَحَيُّل على الاطلاع على أسرار الطائفتين، وهي مُداهَنة محرمة(٧). قال: فأما من يقصد بذلك الإصلاح بين الطائفتين فهو محمود. وقال غيره: الفرق بينهما أن المذموم من يُزَيِّن لكل طائفة عملها ويُقَبِّحُه عند الأخرى، ويذم كل طائفة عند الأخرى.

(١) إرشاد الساري ٢٤٧/١٠.

(٢) الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري ٤٤٤/٩.

(٣) الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري ٨٢/١١.

(٤) التنوير شرح الجامع الصغير ٩/٥.

(٥) التنوير شرح الجامع الصغير ٣٧٣/١٠.

(٦) ينظر المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٥٨٨/٦.

(٧) ينظر صحيح مسلم بشرح النووي ٧٩/١٦.

والمحمود أن يأتي لكل طائفة بكلام فيه صلاح الأخرى، ويعتذر لكل واحدة عن الأخرى، وينقل إليها(١) ما أَمْكَنَهُ من الجميل ويستر القبيح ... وقال ابن عبد البر: حمله على ظاهره جماعةٌ، وهو أولى، وتَأَوَّلَهُ قوم على أن المراد به من يُرائي بعمله فيُرِي الناس خشوعا واستكانة، ويُوهِمهم أنه يخشى الله حتى يكرموه، وهو في الباطن بخلاف ذلك. قال: وهذا محتمل لو اقتصر في الحديث على صدره؛ فإنه داخل في مطلق ذي الوجهين، لكن بقية الحديث تَرُدُّ هذا التأويل، وهي قوله: (يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه) "(٢).

(وصل) **الواصِل**

عن عبد الله بن عمرو ... عن النبي– صلى الله عليه وسلم– قال: (لَيْسَ الوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنِ الوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا)(٣).

المكافِئ اسم فاعل من الرباعي كافأ، وهو دالٌّ على المشاركة، والأصل فيه المساواة والمماثلة والمناظرة، يقول ابن فارس: " الكاف والفاء والهمزة أصلان: يدل أحدهما على التساوي في الشيئين، ويدل الآخر على الميل والإمالة والاعوجاج. فالأول: كافَأت فلانا، إذا قابلتَه بمثل صنيعه. والكُفْءُ: المِثْل. قال الله– تعالى– : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾(٤)، والتكافؤ: التساوي "(٥)، ويقول ابن منظور: " والكَفِيء: النظير، وكذلك الكُفْءُ والكُفُوء، على فُعْلٍ وفُعُولٍ. والمصدر الكَفاءة، بالفتح والمد. وتقول: لا كِفاء له– بالكسر– وهو في الأصل مصدر، أي لا نظير له. والكُفْءُ: النظير والمساوي. ومنه الكفاءة في النكاح، وهو أن يكون الزوج مساويا للمرأة في حسبها ودينها ونسبها وبيتها وغير ذلك. وتَكافَأَ الشَّيْئانِ: تماثَلا. وكافأه مكافأة وكِفاء: ماثَلَه "(٦)، ويقول الكفوي: " المكافِئُ: كل شيء ساوَى شيئا حتى يكون مثله فهو مُكافِئٌ له "(٧)، فالمكافأة تعني المساوة في الأمر، ومعاوضة كل واحد الآخرَ بمثل ما قدَّم له، تقول: " كافأه على الشيء مُكافأة وكِفاءً: جازاه "(٨).

---

(١) في الأصل (إليه).

(٢) فتح الباري ٤٧٥/١٠، وينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢٥١/٩، عمدة القاري ١٣١/٢٢، إرشاد الساري ٢٤٧/١٠.

(٣) صحيح البخاري، حديث /٥٦٤٥.

(٤) الإخلاص /٤.

(٥) المقاييس (كفأ).

(٦) اللسان (كفأ)، وينظر التاج (كفأ).

(٧) الكليات /٨٠٣.

(٨) اللسان (كفأ).

وفي هذا الحديث يُبيِّن لنا النبي- صلى الله عليه وسلم- درجة عُليا من درجات وَصْلِ الأرحام، فليس الواصل الكاملُ الوَصْلِ ذلك المكافئَ- وإن كان في حقيقته واصلا- الذي تُعطيه ويُعطيك، وتصله ويصلك؛ لأن هذا " نوعُ معاوَضة "(١)؛ إذ كلٌّ منهما قد عاوَض صاحبه بمثل الذي قدَّم له، إنما الواصل الحقُّ الذي يصل عند القطيعة، ويُحْسن عند الإساءة، ويحلم عند الجهل، الواصل الحق من (إذا قُطِعت رحمه وصلها)(٢)، ولا يبتغي من رَحِمه إلا أن يُرضي اللهَ فيهم، ممتثلا قوله- تعالى-: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾(٣)، متنكبا سبيل القاطعين الذين كتب الله عليهم اللعنة في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾(٤).

يقول ابن حجر- في شرحه لهذا الحديث: " قوله: (ليس الواصل بالمكافئ) أي الذي يعطي لغيره نظير ما أعطاه ذلك الغيرُ، وقد أخرج عبد الرزاق عن عمر موقوفا (ليس الوَصْلُ أن تَصِلَ من وَصَلَكَ؛ ذلك القِصاصُ، ولكن الوصل أن تصل من قطعك). قوله: (ولَكِنَّ)، قال الطيبي: الرواية فيه بالتشديد، ويجوز التخفيف. قوله: (الواصل الذي إذا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا)، أي الذي إذا مُنِعَ أعطى ... قال الطيبي: المعنى ليست حقيقة الواصل ومَن يُعْتَدُّ بصلته مَن يُكافِئ صاحبَه بمثل فِعْله، ولكنه من يَتَفَضَّل على صاحبه(٥). وقال شيخنا(٦) في شرح الترمذي: المراد بالواصل في هذا الحديث الكاملُ؛ فإن في المكافأة نوعَ صلة، بخلاف من إذا وصله قريبه لم يكافئه؛ فإن فيه قطعا بإعراضه عن ذلك، وهو من قبيلِ (ليس الشديد بالصُّرَعَة)(٧) و (لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ)(٨) انتهى. وأقول: لا يلزم من نفي الوصل ثبوت القطع؛ فهم ثلاث

(١) الكواكب الدراري ١٦٠/٢١، وينظر: اللامع الصبيح ٣٤/١٥، إرشاد الساري ١٤/٩، منحة الباري ١٦٤/٩.
(٢) رُوِي الحديث (قُطِعت رحمُه) بالبناء للمجهول ، و(قَطَعَتْ رحمُه) بالبناء للمعلوم. ينظر فتح الباري لابن حجر ٤٢٣/١٠.
(٣) الرعد /١٩ : ٢١.
(٤) الرعد /٢٥.
(٥) ينظر شرح المشكاة للطيبي ٣١٦٣/١٠.
(٦) يريد به الحافظ العراقي في كتابه (تكملة شرح الترمذي).
(٧) سبق تخريجه.
(٨) صحيح البخاري، حديث /٦٠٨١.

درجات: واصل(١) ومكافئ وقاطع، فالواصل: من يَتَفَضَّل ولا يُتَفَضَّلُ عليه، والمكافئ: الذي لا يزيد في الإعطاء على ما يأخذ، والقاطع: الذي يُتَفَضَّلُ عليه ولا يَتَفَضَّلُ، وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين كذلك تقع بالمقاطعة من الجانبين، فمن بدأ حينئذ فهو الواصل، فإن جوزي سُمِّيَ من جازاه مُكافئا. والله أعلم "(٢)، فالوصل متحقق في كلٍّ من الواصل والمكافئ، لكن الأجدر والأحق بهذه التسمية على الكمال إنما هو الواصل لمن قطع، والمحسن لمن أساء.

وليس المراد بنفي الوصل في الحديث نفيَ أصل الفعل، إنما المراد نفي درجة الكمال فيه مع إثبات أصل الفعل، يقول الكوراني: "المراد نفي الكمال، إنما الكمال في أن تصل من قطعك، والكلام على طريقة القلب، أي: ليس المكافئ بواصل؛ لأن المراد إخراج المكافئ عن زمرة الواصلين، وفائدة القلب المبالغة كما لا يخفى في المكافئ، أيضًا لا يدخل تحت وعيد القاطع "(٣)، وقد ورد صدور النفي– غير مقصود به نفي أصل الفعل، بل نفي الكمال والأولى– كثيرا في كلام النبي– صلى الله عليه وسلم–، يقول أبو العباس القرطبي: " وقد صدر هذا الأسلوب من النبي– صلى الله عليه وسلم– كثيرا، كقوله: (ليس المسكين بالطواف عليكم)، و (ليس الشديد بالصُّرَعة)، و (ليس الواصل بالمكافئ)، ومثله كثير، ولم يُرِدْ بهذا السلب سلبَ الأصلِ، لكن سلب الأَوْلَى والأحقِّ "(٤).

(١) في الأصل (مواصل)، وما أثبته موافق لنص الحديث، ولما يأتي بعده مباشرة من بيان للأصناف الثلاثة؛ حيث بدأ فقال: (فالواصل من يَتَفَضَّل ولا يُتَفَضَّلُ عليه).

(٢) فتح الباري ٤٢٣/١٠ وينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢٠٨/٩، إرشاد الساري ١٤/٩، التنوير شرح الجامع الصغير ٢٣٣/٩.

(٣) الكوثر الجاري ٤٠٧/٩.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٥٩٥/٦، وينظر الكوكب الوهاج ٤٢٥/٢٤.

النتائج والتوصيات:

أولا: النتائج

لا أدعي أن ما أذكره هنا نتائج اكتشفها البحثُ، أو مبتكراتٌ لم يُسبَق إليها الباحث، إنما هي أمور أظهرها البحث وأخرجها من مكامنها، ورفع اللثام عن وجهها، وفيما يأتي أهمها:

١- ليس بعد بيان النبي- صلى الله عليه وسلم- بيان، فإذا فسَّر آية أو بيَّن معنى كلمة قرآنية أو حديثية- فليس لأحد أن يقول مع قوله قولا آخر؛ فهو كما قال الله - تعالى-: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾(١).

٢- النبي- صلى الله عليه وسلم- هو المؤسس الأول للمعجم العربي؛ فما قام به من بيان لمعاني بعض الألفاظ القرآنية أو الحديثية- يُعَدُّ اللبِنة الأولى التي ارتكز عليها اللغويون في صناعة المعجم العربي.

٣- روايات النبي- صلى الله عليه وسلم- التي بين أيدينا في هذه الدراسة أسبق وأضبط من رواية كل من سواه ممن أتى بعدُ من مفسرين ولغويين ممن اهتموا برواية اللغة، وسجَّلها عنهم المعجميون.

٤- السبب الرئيس للبيان النبوي خفاءُ معاني بعض الألفاظ أو العبارات على بعض الصحابة- رضي الله عنهم- مع وجود أسباب أخرى ذُكِرت في موضعها.

٥- بلغ عدد المواضع التي بيَّن النبي- صلى الله عليه وسلم- معناها في صحيح البخاري (ثلاثة وأربعين موضعا)، انقسمت إلى قرآنية وحديثية، وبلغ عدد المواضع القرآنية (ثمانية) مواضع، أما المواضع الحديثية فبلغ عددها (خمسة وثلاثين) موضعا، مع غض النظر عن تكرار بيان بعض الألفاظ في روايات أو أماكن عدة في صحيح البخاري.

وفيما يأتي حصر لهذه المواضع:

أولا: المواضع القرآنية: الحساب اليسير- السبع المثاني- الظُّلْم- مستَقَرُّ الشمس- القول الثابت-إقامة الوزن- الكَوْثَر- الوَسَط.

ثانيا: المواضع الحديثية: الإذْن- أم القرآن- الإيمان- بركات الأرض- المبشِّرات- جائزة الضيف- حُبُّ لقاء الله- الحاشِر- الدَّخَن- الرِّضا- مستراح منه- مستريح- المسكين- المسلم- الشديد- الصُّرَعة- إضاعة الأمانة- عَرْضُ الحساب- اليمين

(١) النجم /٣ ، ٤.

الغموس– غَيْرة الله– الفَأْل– المفْلس– القيراط– الكَرْم–كُرْهُ لقاء الله– كُفْران العشير– لَعْنُ الوالدين– الماحي– نَصْرُ الظالم– مناقشة الحساب– نُقصان العقل والدِّين– المهاجر– الهَرْج– ذو الوجهين– الواصل.

٦– تنوَّعت الدلالات التي جاءت في بيان النبي– صلى الله عليه وسلم– لألفاظ الوحيين من حيث طبيعة الدلالة؛ فكان منها الدلالة اللفظية، ويُمثِّلها جميُع المواضع الواردة في هذه الدراسة سوي ثلاثة مواضع كانت دلالتها غير لفظية على ما ذكر الجاحظ، واحد منها يمثِّل دلالة الإشارة هو قوله في بيان معنى (الهَرْج): (فقال هكذا بيده فحَرَّفَها)، وموضعان يُمثِّلان دلالة الحال أو النِّصْبَة هما (الإذن والرضا)، وبهذا تكون الدلالات اللفظية تمثَّلت في (واحد وأربعين) موضعا، وتكون كلمة (الهرج) تمَّ بيان معناها بدلالتين: إحداهما لفظية– كما في الحديث– قَالُوا: وَمَا الهَرْجُ؟ قَالَ: (القَتْلُ القَتْلُ)، والأخرى دلالة إشارة (فقال هكذا بيده فحَرَّفَها).

٧– انقسمت الدلالات اللفظية إلى دلالات لغوية أصلية، ودلالات متطورة عن الأصل اللغوي، وتنوَّعت الدلالات المتطورة إلى دلالات متطورة تطورا دلاليًّا عامًّا– على ما هو معروف في درس التطور الدلالي– ودلالات إسلامية، والجدول الآتي يوضِّح عدد ألفاظ كل نوع:

أصلي	متطور	
	تطور عام	تطور إسلامي
٩	٩	٢٣

وفيما يأتي تحديد للألفاظ الداخلة تحت كل نوع:

أ– ألفاظ الدلالات الأصلية: جائزة الضيف– الحساب اليسير– السبع المثاني– عرض الحساب– الفأل– مستقَرُّ الشمس– كفران العشير– مناقشة الحساب– الوسَط.

ب–ألفاظ التطور العام: بركات الأرض– الشديد– الصُّرَعة– القيراط– لَعْن الوالدين– نصر المظلوم– الهَرْج– ذو الوجهين– الواصل.

ج–ألفاظ التطور الإسلامي: أم القرآن– الإيمان– المبشِّرات– حُبُّ لقاء الله– الحاشِر– الدَّخَن– مستراح منه– مستريح– المسكين– المسلم– إضاعة الأمانة– اليمين الغموس– غَيْرة الله– الظلم– المفْلِس– القول الثابت– إقامة

الوزن– الكوثر– الكَرْم– كُرْهُ لقاء الله– المـــاحي– نُقـــصان العقـــل والـــدِّين– المهاجر.

٨– تنوعت ملامح البيان النبوي فلم تأت على طريق واحدة ونمط ثابت، وإنما تنوعت بحسب المواقف والأحوال، وطريقة صوغ المعنى المراد.

ثانيا: التوصيات

١– لفت أنظار الباحثين إلى كتب السنة لدراسة ما جاء فيها من بيان النبي– صـــلى الله عليه وسلم– لألفاظ الوحيين، دراسة لغوية تأصيلية، تُحَدِّد ما كـــان منهـــا لغويـــا صِرْفا، وما حدث له تطور دلالي، سواء أكان تطورا دلاليا عامًّا، أم مـــا يـــسمى بالمعاني الإسلامية.

٢– جَمْعُ مواضعِ البيان النبوي لألفاظ الوحيين من كتب السنة لعَمَلِ (المعجم النبويِّ)، وقد بدأتُ فيه– بعون الله تعالى–، ولعلي أجد من يمدُّ لي يد العون ممـــن يحبـــون رسول الله– صلى الله عليه وسلم–؛ فالعمل شاق، ويحتاج إلى أيادٍ مخلصة.

جريدة المصادر

١- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تح. مركز الدراسات القرآنية، بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- السعودية، الطبعة الأولى.

٢- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني، ط. المطبعة الكبرى الأميرية- مصر، السابعة، ١٣٢٣ هـ.

٣- أساس البلاغة، للزمخشري، تح. محمد باسل عيون السود، ط. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الأولى، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨ م.

٤- أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري)، أبو سليمان الخطابي، تح. د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، ط. جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

٥- الإفصاح عن معاني الصحاح، يحيى بن هُبَيْرَة الشيبانيّ، تح. فؤاد عبد المنعم أحمد، ط. دار الوطن، ١٤١٧هـ.

٦- الأفعال، لابن القطاع، ط. دائرة المعارف العثمانية- حيدر آباد ١٣٦٠ه.

٧- أمالي ابن الشجري، تح: د. محمود محمد الطناحي، ط. مكتبة الخانجي، القاهرة، الأولى، ١٤١٣هـ-١٩٩١م.

٨- البارع في اللغة، أبو علي القالي، تح. هشام الطعان، ط. مكتبة النهضة- بغداد، دار الحضارة العربية- بيروت، الأولى، ١٩٧٥م.

٩- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، تح. الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ط. دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى ١٤١٣ه/١٩٩٣م.

١٠- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. مكتبة دار التراث.

١١- البيان والتبيين، للجاحظ، تح. عبد السلام هارون، ط. مكتبة الخانجي- القاهرة، السابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٨٨م.

١٢- تحرير ألفاظ التنبيه، للنووي، تح. عبد الغني الدقر، ط. دار القلم – دمشق، الأولى، ١٤٠٨ه.

١٣- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ط. الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤م.

١٤- تفسير الثوري، أبو عبد الله سفيان مسروق، ط. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الأولى ١٤٠٣ه-١٩٨٣م.

١٥- تفسير الطبري، تح. د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، ط. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان- القاهرة، الأولى، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١ م.
١٦- تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، أبو عبد الله بن أبي نصر الحُمِيدي، تح. د. زبيدة محمد سعيد عبد العزي، ط. مكتبة السنة – القاهرة، الأولى، ١٤١٥ه – ١٩٩٥م.
١٧- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تح. سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الثانية ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
١٨- تفسير القرطبي، تح. أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط. دار الكتب المصرية – القاهرة، الثانية، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤ م.
١٩- تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)، للزمخشري، ط. دار الكتاب العربي – بيروت، الثالثة- ١٤٠٧ هـ.
٢٠- تفسير مجاهد، تح. د. محمد عبد السلام أبو النيل، ط. دار الفكر الإسلامي الحديثة- مصر، الأولى، ١٤١٠ هـ – ١٩٨٩ م.
٢١- تفسير مقاتل بن سليمان، تح. عبد الله محمود شحاته، ط. دار إحياء التراث – بيروت، الأولى – ١٤٢٣هـ.
٢٢- التفسير النبوي- مقدمة تأصيلية مع دراسة حديثية لأحاديث التفسير النبوي الصريح، د. خالد بن عبد العزيز الباتلي، ط. دار كنوز إشبيليا- المملكة العربية السعودية، الأولى ١٤٣٢ه/٢٠١١م.
٢٣- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي، تح. مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، ط. وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب، ١٣٨٧ هـ.
٢٤- التنوير شرح الجامع الصغير، لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، تح. د. محمد إسحاق محمَّد إبراهيم، ط. مكتبة دار السلام، الرياض، الأولى، ١٤٣٢ هـ- ٢٠١١ م.
٢٥- تهذيب اللغة، للأزهري، تح. عبد السلام هارون وآخرين، ط. الدار المصرية للتأليف والترجمة.
٢٦- التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، ط. عالم الكتب – القاهرة، الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٢٧- التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري، ط. دار الغرب الإسلامي- بيروت، الأولى ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م.
٢٨- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، تح. شعيب الأرناؤوط- إبراهيم باجس، ط. مؤسسة الرسالة – بيروت، السابعة، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
٢٩- الجامع لشعب الإيمان، للبيهقي، تح. د. عبد العلي عبد الحميد حامد، ط. مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
٣٠- جمال القراء وكمال الإقراء، للسخاوي، ط. عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي، ط. مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الأولى ١٤١٩ هـ/١٩٩٩ م.
٣١- جمهرة اللغة، لابن دريد، تح. رمزي منير بعلبكي، ط. دار العلم للملايين – بيروت، الأولى، ١٩٨٧م.
٣٢- دلائل النبوة، أبو بكر البيهقي، تح. د. عبد المعطي قلعجي، ط. دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٣٣- ديوان الأدب، للفارابي، تح. د. أحمد مختار عمر، مراجعة د. إبراهيم أنيس، ط. مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر- القاهرة، ١٤٢٤ هـ- ٢٠٠٣ م.
٣٤- ديوان الحارث بن حلزة، جمع وتحقيق د. إميل يعقوب، ط. دار الكتاب العربي- بيروت، الأولى ١٤١١ه- ١٩٩١م.
٣٥- ديوان العباس بن مرداس السلمي، تح. د. يحيى الجبوري، ط. مؤسسة الرسالة- بيروت، الأولى ١٤١٢ه- ١٩٩١م.
٣٦- ديوان الكميت بن زيد الأسدي، تح. د. محمد نبيل طريفي، ط. دار صادر- بيروت، الأولى ٢٠٠٠م.
٣٧- ديوان المتنبي، ط. دار بيروت للطباعة والنشر- بيروت ١٤٠٣ه- ١٩٨٣.
٣٨- الرسالة، للشافعي، تح. أحمد شاكر، ط. مكتبه الحلبي- مصر، الأولى، ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م.
٣٩- الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر الأنباري، تح. د. حاتم صالح الضامن، ط. مؤسسة الرسالة – بيروت، الأولى، ١٤١٢ هـ-١٩٩٢.
٤٠- سنن أبي داود، تح. شعيب الأرنؤوط – محمد كامل قره بللي، ط. دار الرسالة العالمية، الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م

٤١- سنن الترمذي، تح. الشيخ أحمد محمد شاكر وآخرِين، ط. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
٤٢- الشافية في علم التصريف لابن الحاجب، تح. د. حسن أحمد العثمان، ط. المكتبة المكية – مكة، الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.
٤٣- شرح صحيح البخاري لابن بطَّال، تح. أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط. مكتبة الرشد- السعودية، الثانية ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
٤٤- شرح صحيح مسلم، للقاضي عياض، المسمى (إكمال المعلم بفوائد مسلم)، تح. د. يحيى إسماعيل، ط. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الأولى،١٤١٩ هـ- ١٩٩٨ م.
٤٥- شرح المشكاة للطيبي، المسمى (الكاشف عن حقائق السنن)، تح. د. عبد الحميد هنداوي، ط. مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة- الرياض)، الأولى، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧ م.
٤٦- شرح المفصل للزمخشري، موفق الدين ابن يعيش، تح. د. إميل بديع يعقوب، ط. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
٤٧- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميري، تح. د حسين بن عبد الله العمري وآخرَين، ط. دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية)، الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٤٨- الصاحبي في فقه اللغة، لابن فارس، تح. السيد أحمد صقر، ط. مطبعة عيسى البابي الحلبي- القاهرة.
٤٩- الصحاح، للجوهري، تح. أحمد عبد الغفور عطار، ط. دار العلم للملايين – بيروت، الرابعة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٥٠- صحيح البخاري، تح. د. مصطفى ديب البُغا، ط. دار ابن كثير- بيروت، اليمامة- بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
٥١- صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم-)، تح. محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٥٢- صحيح مسلم بشرح النووي (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، للنووي، ط. المطبعة المصرية بالأزهر- القاهرة، الأولى ١٣٤٩ه-١٩٣٠م.
٥٣- العباب الزاخر واللباب الفاخر، للصغاني، تح. الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط. وزارة الثقافة والإعلام العراقية- نشر: دار الرشيد للنشر ١٩٩٧م.

٥٤- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للبدر الدين العيني، ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٥٥- العين للخليل، تح. د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، ط. دار ومكتبة الهلال.
٥٦- غريب الحديث، لإبراهيم بن إسحاق الحربي، تح. د. سليمان العايد، ط. مركز البحث العلمي وإحياء التراث بجامعة أم القرى – مكة المكرمة، الأولى، ١٤٠٥ه- ١٩٨٥م.
٥٧- غريب الحديث لابن الجوزي، تح. د. عبد المعطي أمين القلعجي، ط. دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، ١٤٠٥ه – ١٩٨٥م.
٥٨- غريب الحديث، لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي، تح. عبد الكريم إبراهيم العزباوي، خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، ط. دار الفكر – دمشق، الناشر: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م.
٥٩- غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، تح. د. حسين محمد شرف، ط. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، الأولى، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.
٦٠- الغريبين في القرآن والحديث، للهروي، تح. أحمد فريد المزيدي، قدم له وراجعه: د. فتحي حجازي، ط. مكتبة نزار مصطفى الباز- المملكة العربية السعودية، الأولى، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٩ م.
٦١- الفائق في غريب الحديث والأثر، أبو القاسم الزمخشري، تح. علي محمد البجاوي – محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار المعرفة – لبنان، الثانية.
٦٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ط. دار المعرفة- بيروت، ١٣٧٩.
٦٣- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب الحنبلي، تح. محمود بن شعبان بن عبد المقصود وآخرين، ط. مكتبة الغرباء الأثرية- المدينة النبوية، الحقوق: مكتب تحقيق دار الحرمين – القاهرة، الأولى ١٤١٧ هـ/١٩٩٦ م.
٦٤- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تح. محمد إبراهيم سليم، ط. دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
٦٥- فيض الباري على صحيح البخاري، محمد أنور شاه الكشميري، تح. محمد بدر عالم الميرتهي، ط. دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الأولى ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

٦٦- القاموس المحيط، للفيروزآبادي، تح. مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، ط. مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، الثامنة، ١٤٢٦ هـ /٢٠٠٥ م.
٦٧- كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي، تح. د. علي حسين البواب، ط. دار الوطن – الرياض، الأولى ١٤١٨ه- ١٩٩٧م.
٦٨- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق الثعلبي، أبو إسحاق، تح. الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م.
٦٩- الكليات، لأبي البقاء الكفوي، تح. عدنان درويش - محمد المصري، ط. مؤسسة الرسالة – بيروت، الثانية ١٤١٩ه – ١٩٩٨م.
٧٠- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، للكرماني، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، الثانية: ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٧١- الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري، لأحمد بن إسماعيل بن عثمان بن محمد الكوراني، تح. الشيخ أحمد عزو عناية، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الأولى، ١٤٢٩ هـ- ٢٠٠٨ م.
٧٢- الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم، المسمى (الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَرَري، مراجعة لجنة من العلماء برئاسة البرفسور هاشم محمد علي مهدي، ط. دار المنهاج- دار طوق النجاة، الأولى، ١٤٣٠ هـ- ٢٠٠٩ م.
٧٣- اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة المعروف بـ (التذكرة في الأحاديث المشتهرة)، للزركشي، تح. مصطفى عبد القادر عطا، ط. دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.
٧٤- اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح، شمس الدين البِرْماوي، تح. لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، ط. دار النوادر- سوريا، الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.
٧٥- لسان العرب، لابن منظور، تح. عبد الله علي الكبير وأخَرَين، ط. دار المعارف.
٧٦- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي، تح. د. محمد فؤاد سزگين، ط. مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٣٨١ هـ.

٧٧- مجمع الأمثال، للميداني، تح. محمد محيى الدين عبد الحميد، ط. دار المعرفة- بيروت، لبنان.
٧٨- مجموع الفتاوى، لابن تيمية، تح. عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة المنورة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
٧٩- المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، أبو موسى الأصفهاني، تح. عبد الكريم العزباوي، ط. دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع- جدة، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
٨٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، تح. عبد السلام عبد الشافي محمد، ط. دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى- ١٤٢٢ هـ.
٨١- المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، تح. د. عبد الحميد هنداوي، ط. دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م.
٨٢- المخصص، لابن سيده، تح. خليل إبراهم جفال، ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت، الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
٨٣- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري، ت؛. صدقي محمد جميل العطار، ط. دار الفكر، بيروت – لبنان، الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٨٤- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، تح. فؤاد علي منصور، ط. دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.
٨٥- المسائل البصريات، أبو علي الفارسي، تح. د. محمد الشاطر أحمد محمد أحمد، ط. الأولى، ١٤٠٥ه/١٩٨٥م.
٨٦- المسائل والأجوبة في الحديث والتفسير، لابن قتيبة الدينوري، تح. مروان العطية - محسن خرابة، ط. دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، الأولى، ١٤١٠ه-١٩٩٠م.
٨٧- المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، تح. مصطفى عبد القادر عطا، ط. دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، ١٤١١ه - ١٩٩٠م.
٨٨- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح. شعيب الأرنؤوط وآخرين، إشراف د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط. مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢١ هـ- ٢٠٠١ م.
٨٩- مسند أبي يعلى، لأبي الموصلي، تح. حسين سليم أسد، ط. دار المأمون للتراث – دمشق، الأولى، ١٤٠٤ه - ١٩٨٤م.
٩٠- مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض، ط. المكتبة العتيقة (تونس) – دار التراث (القاهرة) ١٩٧٨م.

٩١- المصباح المنير، للفيومي، تح. د. عبد العظيم الشناوي، ط. دار المعارف المصرية، الثانية.
٩٢- معالم السنن (شرح سنن أبي داود)، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي، تصحيح: محمد راغب الطباخ، ط. المطبعة العلمية – حلب، الأولى ١٣٥١ هـ- ١٩٣٢ م.
٩٣- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، تح. د. عبد الجليل عبده شلبي، ط. عالم الكتب– بيروت، الأولى ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م.
٩٤- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصَّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها)، د. محمد حسن حسن جبل، ط. مكتبة الآداب – القاهرة، الأولى،٢٠١٠م.
٩٥- المعجم الكبير، للطبراني، تح. حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط. مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الثانية.
٩٦- معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي – حامد صادق قنيبي، ط. دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.
٩٧- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، للحافظ العراقي (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين للغزالي)، ط. دار ابن حزم، بيروت – لبنان، الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.
٩٨- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، ط. دار إحياء التراث العربي– بيروت، الثالثة١٤٢٠هـ.
٩٩- المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني (أذن)، تح. صفوان عدنان الداودي، ط. دار القلم، الدار الشامية– دمشق بيروت، الأولى ١٤١٢ هـ.
١٠٠- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، تح. محيي الدين ديب مستو، وآخرِين، ط. دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ودار الكلم الطيب، دمشق – بيروت، الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.
١٠١- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، للسخاوي، ط. محمد عثمان الخشت، ط. دار الكتاب العربي – بيروت، الأولى، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م.
١٠٢- مقاييس اللغة، لابن فارس، تح. عبد السلام محمد هارون، ط. دار الفكر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٠٣- المنتقى شرح الموطأ، لأبي الوليد سليمان الباجي، ط. مطبعة السعادة- مصر، الأولى ١٣٣٢ه.
١٠٤- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، للتهانوي، تح. د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الأولى – ١٩٩٦م.
١٠٥- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، تح. علي محمد الضباع، ط. دار الكتاب العلمية- بيروت.
١٠٦- النظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذب، محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان بن بطال الركبي، تح. د. مصطفى عبد الحفيظ سالم، ط. المكتبة التجارية، مكة المكرمة ١٩٨٨م.
١٠٧- النكت على صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تح. أبي الوليد هشام بن علي السعيدني، وأبي تميم نادر مصطفى محمود، ط. المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع- القاهرة، الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
١٠٨- النكت والعيون، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، تح. السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط. دار الكتب العلمية، ومؤسسة الكتب الثقافية- بيروت/ لبنان.
١٠٩- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، خرج أحاديثه: صلاح بن محمد بن عويضة، ط. دار الكتب العلمية، الأولى ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .
١١٠- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، مكي بن أبي طالب، تح. مجموعة من الباحثين بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي- جامعة الشارقة، بإشراف أ. د. الشاهد البوشيخي ،ط. كلية الدراسات العليا والبحث العلمي- جامعة الشارقة، الأولى، ١٤٢٩ هـ/٢٠٠٨ م.
١١١- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن الواحدي، تح. الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ط. دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى ١٤١٥ هـ/١٩٩٤ م.